لجنة التأليف والترجمة والنشر



تأليف

محمد كرد على

الجزء الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٧

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره :

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار ، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، واطردت سياستها ، وخيف سلطانها ، وعظم شأنها ، ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التى نشبت بين الأمين والمأمون ، للنزاع على ولاية العهد ، فسالت الدماء فى خراسان والعراق ، وأنفق الأمين الأموال ، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة ، عادت الأمور إلى مجراها الأول فى عهد الرشيد وأبيه المهدى وأخيه الهادى . ثم اختلت الدولة بعد عهد الواثق ، فقتل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم .

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربى أوربا مثل « شارلمان و ببين » على غاية الوئام ، يتبادل العباسيون مع ملوك الإفرنج السفراء والهدايا ، ويريد بنو العباس من هـذا التلطف على الغالب أن يقف الإفرنج بالمرصاد لدولة الأندلس . أما دولة روم القسطنطينية ، فكانت فى بلاء من جيش بنى العباس إلى زمن الواثق ، يغزوها فى الأحايين فيظفر ويغنم ، حتى اضطرت أن تؤدى للعباسيين جزية سنوية .

وعرف الرشيد أن دولة الأمويين فى الأندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة ، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة ، فحاذر تقدمها نحو بلاده ، ورأى أن يقيم أمامها حاجزاً فى إفريقية من دولة الأغالبة ، فمنح هذه شبه استقلال ، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد ، فقاتلهم بجزء من

جيشه ، فأيقنوا أن لا سبيل إلى تحقيق رغائبهم فى قلب أوضاع الدولة ، وعادوا بمـا لاقوا من الجدّ فى استئصالهم يعتصمون بالتقية ، وأرجأ بقايا السيوف منهم بثّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب .

وأهم ماتم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدى ، وتقطيع كتبهم كتقطيع أوصالهم ، استمتاع أرباب العقول بحرياتهم ، فأنشأوا يفكرون على ما يشاءون فى نطاق الإسلام ، لا يخرجون عن رُخَصه وعزائمه ، وكثر الباحثون والدارسون ، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدى من أتقنوا فنهم وعلمهم ، واشتد الغرام بنقل العلوم المـادية اشتداده فى تدوين العلوم الدينية ، وفى هذا الزمن نبغ عظماء فى علوم الدين ، وعظماء فى علوم الدنيا ، وعظماء فى الآداب والفنون ، وعظماء فى الحرب والسياسة ، وكان كل من تفرّد بضرب من ضروب العلم والأدب يلقى من الخلفاء على الأكثر أنواع التجلّة والإكرام ، ويخلع عليه كل جميل .

وفى هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الأربعة التى وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة ، ودوّن مذهب مالك وأبى حنيفة وغيرهما ، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر ، وكثر عظماء القراء ، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية ، وراجت الوراقة رواجًا عظيماً ، لمـا بدأ الملوك يجمعون خزائن كتب فى قصورهم ، ويقيمون دُور الحكمة فى عاصمة الخـلافة ، وعَلق الأمراء وعِلْية الأمة يتنافسون فى اقتفاء آثار خلفائهم فى خدمة الآداب ، يُحْظُون ويُعْطُون كل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف . وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية ، شاركتهما بغداد بهذا الشرف ، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار ، فمـا هى إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد

مدينة علم ، وكانت من قبل مدينة ملك ، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم .

وأيقن أرباب البصائر أن الدنيا لا تأتى من غير طريق الكفاية ، وأن « كل عزّ لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول » فانكبوا على التأدب ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وكان إذا تفرس رب البيت فى ولده ذكاء جاءه بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهى نفسه من الآداب ، ولذا أصبح التعليم صناعة ، وحسن عيش المؤدبين ؛ وغدا التأديب أيضاً طريقاً إلى المجد والسؤدد ، على ما أمست منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها ؛ وقد يبلغ سلطان النديم فى قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتاب ، وهو ابن الخَلوة والجَلوة ، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار .

عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المَفَنّين والإخصائيين ، يغشاها أرباب الأفكار ، وحملة الآثار والأشعار ؛ والعهد بعلماء البصرة يختلفون إلى المسجد والمِرْبد ، وكان المسجديون والمِرْبَديون جماعاً من شُعب الأدب والرواية ؛ والعهد بالكوفة يختلف المنورون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء ، ومسجدهم مجمع علمائهم ، ومغنى قرائهم ، والمنافسة بين المصرين ، الكوفة والبصرة ، فى الفقه والحديث واللغة والنحو والتصريف مشهورة مذكورة ، وبغداد تنعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وَحَفَدة الشريعة ، وقادة الفكر ، وشعراء الحضارة ، وأمراء البلاغة .

وهناك مجالس اللهو يَعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم ، ويتبارى أرباب النعيم والرفاهية فى اقتناء المسْمِعات والقَيْنات ، وغدت الجارية التى تجد من نفسها طبيعة مؤاتية فى هذا الفن ، تتوفر على إتقانه ، وتلقَف ما يستلزم فنها

من أدب وشعر ؛ فجاء منهن أديبات وشاعرات ، وغدا لكل قريحة قيمة ، ولكل أدب خُطّاب ، والناس يتمززون طعم الحياة ، وينعمون بمباهجها ، وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم ، بعيدين عن حياة التزمت والتخافت بُعْدَهم عن الامية ، وراحوا يحضرون مجالس الغناء على تصوّن وتعفف غالباً ، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن ، وأنشأت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير .

وأثارت الرعية الأرض وعَمَروها ، ففاضت الثروة ، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وزاد العمران ، وجدّ كل عامل فى ناحيته أن ينفق جانباً من الجباية على ما يزيد فى ريع بلده ونمائه ، وغدا غرام معظم الخلفاء بتنظيم أمور الرعية ، يوازى غرامهم فى دفع كل معتد على سلطانهم .

وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى من أعظم ما تكون عليه الفُرَضُ البحرية فى الدول العظمى ، تبادل تجارة بلاد العرب مع موانى المحيط الهندى حتى الصين ، ويغشاها أصناف من شعوب الشرق فى آسيا وإفريقية ، والبصرى كالحيرى مشهور بأسفاره ومغامراته ، وأصبح البحر الرومى بحراً عربيًا ، وتراجع الروم إلى موانى بلادهم ، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وإفريقية والأندلس ، واعترفت شعوب جنوبى أوربا فى موانيها لا يبحر لها سفين ، ولا تحمل لهم بضاعة ؛ والعرب بما عرف من مرانهم على التجارة يتولون كبرها فى البر والبحر ، والزراعة والصناعة على الأمم الأغلب فى أيدى أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم ؛ وتعينت حدود الاختصاص بالصناعات اليدوية والعلمية ، وقلّ فى الناس المتشائمون وكثر المترفون .

كتب الرواج فى هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة ، واستوت شعوب

المملكة العباسية أمة ذات حضارة مقررة ، وربة شخصية ظاهرة ؛ وكان حظ الجميع سواء فى الاستمتاع بالأَمَنَة والسلامة ، وعلى قدر كفاية الكفء ، وإخلاص المخلص للدولة ، يَخْلُص الناس إلى المراتب والمناصب ، وعلى نسبة عمل العاملين فى صنوف الأعمال يفتنون ويسعدون ، لا يخاف الناس إلا أنفسهم ، ولا يُلزَمون أن يقدموا حسابهم لغير ديّانهم وسلطانهم ؛ فحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية ، واشترك فى خدمتها أهل كل نحلة وملة ، ووقف كل امرئ عند حده ، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان ، وقلما تعدى حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة ، وصفحات الأسفار والرسائل ، فهذا العصر هو خير عصور بنى العباس على الناس ، وفيه سَعِدَ العلم ، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ .

نشأته ونعمته :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى ، من بنى كنانة بن خُزَيْمة ، والد النضر أبى قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم كنانة طامحة ، والليثى نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركة ، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ ، وقيل إنه كان مولى أبى القلمّس عمرو بن قِلَع الكنانى ثم الفُقيمى . فهو كنانى صليبة خالص النسب ، وكان جده فزارة أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وأُطلق على عمرو اسم « الجاحظ » لنتوء عينيه ، ويقال له « الحَدَقى » لذلك ، وكان مشوّه الخلقة ، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله .

ولد فى البصرة حوالى سنة ستين ومائة ، وتوفى والده وهو طفل ، فلما

ترعرع تعلم الخط والقراءة فى أحد كتاتيب بلده ، وأخذ مذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب فى المِرْبد ، وكان المربد أشهر محالّ البصرة ، وبه كانت فى الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، على مثال سوق عُكاظ بين نَخْلة والطائف فى الجاهلية . واتصل بعظماء فى الدين والآداب ، مثل الأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى عبيدة مَعْمَر بن المثنّى ، والأخفش ، والنظّام إبراهيم ابن سيار البلخى ، وصالح بن جناح اللّخْمى . أخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين ، والنحو عن الأخفش ، والكلام عن النظام ، والحكمة عن ابن جناح .

وحدّث عن ثُمامة بن أشرس النميرى المتكلم ، ويزيد بن هارون ، والسرى ابن عبدويه ، والقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة . وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الدلهاب ، ودعامة بن الجهم ، وأبو سعيد الحسن بن على العدوى ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، ويموت بن المزرّع ، وأبو العَيناء محمد بن القاسم . وقال عن نفسه إنه جلس إلى أبى عبيدة والأصمعى ويحيى بن نجيم وأبى مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين .

أولئك الذين عرفوا ممن أخذ الجاحظ عنهم ومنهم نَجَمَ ، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره ، فكان له فى كل حلقة من حلاق البصرة متنفس .

وإذا نظرنا فى اختصاص أساتيذ الجاحظ من غير المحدثين ، نرى الأصمعى ممن جمع شتيت اللغة فى الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش وغير ذلك ، وقالوا إنه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها . وصنف أبو عبيدة فى البازى والحمام والعقارب والحيات والزرع « وكان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم » وكان يرى رأى الخوارج ، ووصفه تلميذه

بأنه لم يكن فى الأرض خارجىٌ ولا جماعى أعلم بجميع العلوم منه . وألف أبو زيد الأنصارى فى القوس والترس والقضيب والإبل والوحوش ، وخلق الإنسان والمطر والنبات ؛ وكان هؤلاء الثلاثة فى عصرهم « أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أُخذ جلُّ ما فى أيدى الناس من هذا العلم بل كله » . كان الأخفش الأوسط من أعلم الناس بالنحو والتصريف ، وصالح بن جناح كان ممن أدرك التابعين ، وكلامه مستفاد فى الحكمة كما قال ابن عساكر ، أخذ عنه الجاحظ فى نيسابور ؛ أما النظام ، شيخ المعتزلة وإمام الأئمة ، فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها ، مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس فى الفتيا ، وقد وصفه الجاحظ بقوله : إن الأوائل يقولون فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام . وقال إنه ما رأى أحداً أعلم بالكلام والفقه منه . وقال عن نفسه : إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة .

هذه أوجه الدراسة التى وجهت إليها مدارك الجاحظ ، وهؤلاء أشهر أساتذته . أحكم فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة ، أى تثقف بالثقافة الراقية لعهده ، وزاد على هذه العلوم النظرية أنه أعمل فكره فيما تعلم ، وحال المسميات كما تعلم الأسماء ، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين ، فكان صاحب مذهب وأتباع ، والغالب أنه كان يعرف الفارسية . وكان مولعاً بالكتب ، يكثر الاختلاف إلى الوراقين فى البصرة وبغداد ، يقضى فى حوانيتهم ساعات « حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ

فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » وله ورّاق خاص .

روى الخطيب البغدادى عن محمد بن سليمان الجوهرى قال : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوما لنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننتظر شيئاً أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الأوراق وقال : انتظرونى ، ومضى بها إلى منزله ؛ فلما عاد أخذنا نهزأ به ويقول : فزت بقطعة من العلم وافرة ، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس .

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين ، قيل إنه رؤى بسيحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك فى صباه ، وقيل إن أمه كانت تمونه فى حداثته ، فجاءته يوماً بطبق عليه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذى تجىء به . فخرج مغتماً وجلس فى الجامع ، ويونس بن عمران[1] جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرّب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك ، قالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التى قدّمتها إلىّ .

وظل رزق الجاحظ غيبيًّا فى شبابه ، واتسع فى الكهولة عقبى تأليفه كتاب العباسية للمأمون ، وعلى عهده تصدر فى ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام ، ثم

---

(١) يقول ياقوت إن زياداں ناحيـة ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بنى الهجيم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن بشار بن زياد .

استمنى فأُعفى ؛ وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب . واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فأقطعه أربعمائة جَرِيب ؛ وكتب إليه مرة زمن المتوكل « إن أمير المؤمنين يَجِد[1] بك ، و يهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لِعِلْمك ومعرفتك ، لحال بينك و بين بُعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه » ثم حثه على الفراغ من كتاب الردّ على النصارى والتعجيل به إليه ، وقال : « وتنال مشاهرتك ، وقد استطلقتهُ لما مضى ، واستسلفته لك ، لسنة كاملة مستقبلة » .

والظاهر أن أداء الرواتب كان يتأخر فى بعض الأيام ، حتى قال الجاحظ فى أبى الفرج نجاح بن سلمة الكاتب — وكان على الأموال زمن الواثق والمتوكل ، و إليه أهدى رسالته فى امتحان عقول الأولياء ورسالته فى الكَرَم — هذه القصيدة :

أقام بدار الخفض راضٍ بخفضه	وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى
يظنُّ الرّضا شيئاً يسيراً مُهَوَّناً	ودون الرضى كأس أمرُّ من الصبر
سواء على الأيام صاحب حنكة	وآخر كابٍ لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم أرجو نواله	وقد كنت لا أُعطِى الدنيّة[2] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بِشره	ويجمل حسن البشر واقية الوفر
رَبَعْت عَلَى ظَلْعى[3] وراجعت منزلى	فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وشاورت إخوانى فقال حليمهم	عليك الفتى المرّىّ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت	« أبو الفرج المأمول يزهد فى عمرو »

(١) وجد وجداً فى الحب فقط وكذا فى الحزن لكن يكسر ماضيه (القاموس) .

(٢) فى الحديث : علام نعطى الدنية فى ديننا ، أى الخصلة المذمومة .

(٣) من المجاز « إرق على ظلعك » أى ارفق بنفسك ، واربع على نفسك تمكث وانتظر .

ولو كان فيــه راغباً لرأيتـه ... كما كان دهراً فى الرخاء وفى اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسـد ... وذو الودّ منخوب[1] الفؤاد من الذعر
فإن ترع ودى بالقبول فأهـله ... ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التى تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة ، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم ، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة ، فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك ، فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى دواد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ، ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجـديد ولا تسميد . كان هذا والجاحظ فى شيخوخته ، والخلفاء والعظماء يعشقون قربه ، ويفاخرون بصداقته ؛ ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[2] ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب . ولم ير الجاحظ التقيد بخدمة الخلفاء ، واعترض عليه بعضهم فى ذلك ، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم ، ومُتّعوا به من جاه وسطوة : « إنى لم أر أغبن من الجاحظ لنفسـه ، وإن كان أوحد البلاغة فى عصره ؛ فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصـنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا ،

---

(١) المنخوب : الذاهب اللحم المهزول .

(٢) يقول ابن خلكان إنه كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها على بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة . قال أبو هفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهـم : الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضى .

وهو يلتمس فوائدها والجاه بهما » بيد أن الجاحظ كان يفضل أن يكون أميراً وسط كتبه على الصورة التى رأى عليها إسحق بن سليمان ، وقد دخل عليه فى إمرته ، فرأى السماطين والرجال مثولاً ، كأن على رءوسهم الطير ، ورأى فرشته وبزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ، وإذا هو فى بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر . قال الجاحظ : فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه فى ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ومنذ ابتعد الجاحظ عما يستهوى من المظاهر انتهت أيام ضائقته لما اشتهر بين العالمين قدره ، وتحامى الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا ، على ما لا يوازى أفضالهم إذا رضوا . ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فى خلافة المتوكل ، وكان الجاحظ فى أسبابه وناحيته منحرفاً عن أحمد بن أبى دواد ، هرب الجاحظ فقيل له : لِمَ هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور . يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة . وذكروا أنه لما قتل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفى عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل ؛ فلما دخل على ابن أبى دواد عاتبه عتاباً فاحشاً . فقال الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أُسىء وتحسن ، أحسن فى الأحدوثة من أن أُحسن وتسىء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام منى ، فعفا عنه وصدّره فى مجلسه .

مذهبه وأخلاقه :

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة فى المعتزلة ، وفى هذا المذهب رُبى وعليه نشأ ، وعنه ناضل وله ألّف ؛ وقد خالف أصحابه فى مسائل طفيفة ، فسميت فرقته الجاحظية ، وزعموا أنه قال إن المعرفة طبائع ؛ ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال إذا انتهى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام ، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها ، وقال بعدم استحالة الجواهر ، وأن الأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن تفنى ، ومذهبه مذهب الفلاسفة فى نفى الصفات ، وفى إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة .

هذا مجمل ما يقال فى مذهب أبى عثمان ، أما أخلاقه ومزاجه ، فما كان بالسوداوى ولا بالعصبى ، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، لا بعين المَغيظ المُحنَق ، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب ، وتغمره الغبطة ، وتعتاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جِبِلّة ، يتنادر إلى الطبقات المختلفة ، يعبث بهذا ، ويَوْلع[1] بذاك ، لا تفزعه المظاهر ، ولا يتوقف فى إيراد النكتة ؛ فطر على الوفاء لأصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف ، لاعتقاده أن الوصاة شهادة ، وصعب عليه أن يشهد الزور .

كان يحافظ على أوقاته لايضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد ، بعيداً عن الفوضى

---

(١) ولع كوضع ولعاً وولعاناً محركه : استخف .

بعض البعد ، ويحب النظام فى الجملة . إلا أنه كان لا يدخر المـال إلى أيام العسرة ، وإذا أتاه ينفقه لا يحسب للغد حساباً كبيراً ، ولذلك كان يعسر أحياناً وتعوزه النفقة ، ويلوب على الناضّ يرتفق به . وما كان ضنيناً على إخوانه ، وود لو أخذ من الأغنياء فأفضل على الفقراء . ولئن نشأ من بيت وضيع ، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس .

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك ، قام بمـا فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين ، دعاهم إلى الحياة الفاضلة ، وحبب إليهم دينهم ودنياهم ، ليسـتقيموا أمة عزيزة فاضلة فى أخلاقها . وكان يرى سعادة أصحـاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها ، أو عمـا يعرض لها من أسباب الفناء ، وأن العمل الصالح هو الأثر الذى يظل على الأيام ، ولذلك كان يتقن عمله ، لا يتوخى منه إلا ما يجدى فى الحياة والمعاد . وسع علمه الناس والأمصار ، ونظر أكثر من غيره إلى ما وراء حدود النظر ، وما كان بالمقلد الخائف ، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قضية مسـلمة لا بحث ولا نظر : قصـاراه التجديد ، والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف إلى كل شيء معرفة ثاقبة .

رأى من العبث تكليف الأيام ضد طباعها ، فلابس دهره كما شاء فى الجملة ، لا كما أراد هو بالتفصيل ، فضحك لشـقاء الحياة الدنيا ، وهزأ بمـا يراه غيره نعمة ؛ عرف أن السـعادة فى الأرض مستحيلة ، وأن العالَم يحلو ويمرُّ ، فرضى بحلوه ومره ، وفى الرضا والقناعة عزاء وشفاء . رأى فساد الناس بمـا كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسـد والخبث ، فاستعمل من دهائه ما اتقى به شرهم ، وعَلِق يطمع فى الحيلة لتعليمهم ، ومداواة أمراض نفوسهم ، وتفنن فى

دعوته ، لا تفنن صاحب خيال ، وطالب محال ، بل تفنن الرجل الحكيم ، يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه ، بقدر ما يشهد فيه من استعداد ، ويسمح له من رأس ماله الواسع ما يرجى له أن ينم به ، وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله ، ولا يقرعهم على كل ما هم فيه .

خُلق نقاداً كما يُخلق الشاعر شاعراً ، وقوة النقد فيه شديدة ، ومع هذا يعمد إلى الرفق ، وينصف خصمه من نفسه ، ويستمع إلى ما يدلى به من حجة . تراه وهو العربى القح فى جميع منازعه ، لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس ، وما امتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم ، ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق ، وعمن وافق وخالف ؛ لا ينبو نظره عن شىء ، ولا تُرذل نفسه حقيراً . ولم تورثه شهرته العلمية زهواً وغروراً ، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع ، وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا ، وبالجهلاء حتى يتعلموا ؛ يحاسن الكبراء من دون إسفاف ، ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم وعتوهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويبتعد عن الحاسدين والموتورين ؛ لا يضجر ولا يضطرب ؛ مُتَّزن إذا أُزم ، معتدل إذا حاور ؛ لا يحسد ذا نعمة على نعمته ، ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته .

* * *

فلج الجاحظ وأصيب بالنقرس فى شيخوخته ، فدخل عليه المبرّد فى آخر أيامه وهو عليل ، فسأله عن حاله فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو نشر بالمنشار لما أحس به ، ونصفه الآخر منقرس ، ولو طار الذباب بقربه لآلمه ، والأمر على ذلك أنى قد جاوزت التسعين وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس[1] كالجديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يوماً بسرَّ من رأى يعودونه وقد فلج ، فلما أخذوا مجالسهم أتاه رسول المتوكل فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل عليهم فقال : ما تقولون فى رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث[2] وأكثر ما أشكوه الثمانون ؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلى نفسه بالتأليف على النحو الذى جرى عليه أيام الكهولة والشباب . فعوضته الطبيعة فى شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله ، وأعاضته فى شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل . مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ قيل إنه وقعت عليه مجلدات العلم ، فمات فى الذى أحبه و بحر فيه طول حياته . قالوا وكان من عادته أن يضعها قائمة ، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها ، فسقطت عليه . مات فى البصرة لا فى بغداد ، بدليل ما رواه ابن المهلبى عن أبيه قال : قال لى المعتز بالله : يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز . قال المعتز : لقد كنت أحب أن أشخصه إلىَّ وأن يقيم عندى ، فقلت له : إنه كان قبل موته عطلاً بالفالج .

أدبه :

يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع ، و يعلمك فى سهولة و يسر لا يشق عليك ، يدخل من نفسك مدخل صدق ، و يستهويك وأنت لا تدرى كيف أُخذت . قد تقرأ لغيره كلاماً ، وتُعجَب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق ، أو تحقيق و إحاطة ، أو فكر طريف ، أو رأى نادر ، أما أن

(١) درس الثوب أخلقه فدرس ، هو لازم متعد .
(٢) غوث الرجل تغويثاً قال وا غوثاه .

يضمّ الكلام شتيت هذه الميزات ، ويحمل كل ما يعن للخاطر من الصفات ، فهذا مما لا يقع إلا على النُّدْرة فى كلام البلغاء ، وهو من الأمور المعتادة فى كلام أبى عثمان . أنت تمثل فيما يملى الكاتبون شيئاً تستطيبه وتستملحه ، وفى أدبه كل ما يطرب ويعجب . الكتّاب فى العادة يتطاولون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم ، والجاحظ يستمليه موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف . يصوّر لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويعرض عليك المعقول والمنقول ، ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد فى علماء هذه الأمة الطويل تاريخها ، الكثير نبغاؤها ، كأن الجاحِظ بوق عصره ومصره ، والآلة المحكمة التى أحسنت نقل أصوات أهل جيله . سجّل الفاخر والمعاير ، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جمّلها بروح الحق وسحر الجمال .

يقف القارئ عما ينقل إليه على صور رآها بعينه ، فأحب إمتاع غيره برؤيتها ، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه ، هو ممن ربط ماضى الأمة بمستقبلها ، ودينها بدنياها ، وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح ، فطبَّ بلطف عبقريته روحها وجسمها . وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك ما يقع بصره عليه ، فأدب الجاحظ يصور لك فى حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه . ولما كان من رقة الشعور إلى التى ليس بعدها ، جاء كلامه شعوراً وعاطفة .

ينبعث البهاء فى أدب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور فى الروح . قالوا : إذا أورثك الكلام ما يعلو به فكرك ، وما ينبه فيك حسًّا شريفاً ، فلا تبحثن بعدها عن شىء آخر لتحكم على ما قرأت ، وكن

على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح ، وأنه ما صدر إلا عن يد صَنَاع ، وقريحة وقادة . والجاحظ ، فوق هذا ، لم يتقيد كثيراً بذوق عصره ، وفى ذلك إبداعه فى أدبه .

كان كما قال لانسون فى وصف أحد كتاب الإفرنج يعيش كالأديب فى العالَم ، ويكتب كما يكتب الأديب للعالم ، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يُرضى الناس ، وقد قَبِل البشر بكل ما فيهم من صفات ، ليزحزحهم عما هم فيه . فخاطب الإنسان للتأثير فى الإنسان ، ونظر إليه لا على أنه روح محض ، ولا على أنه عقل محض ، نظر إليه على أن له جسماً يضطهد الفكر ويحرّفه وينفيه ، فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه ، فخاطب فيه العقل والإرادة والذهن والإحساس ، فبرزت فصوله تُزهى بما خلع عليها من الجمال ، والفكر الذى لا يتمثله الكاتب ينفر القارئ منه ، لأن له من عزّة نفسه ما يحب معه أن يُخاطب بما ألف ، وبما تتأثر به نفسه . وهذا ما كان مستجمعاً فى أبى عثمان .

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة ، وما عانى من الأبحاث إلا ما اضطلع به ، وما قولك بعظيم يحيط بأكثر ما فى صحيفة الوجود من المعارف ، ويعرف ما فى الأرض من تعاجيب ، وما فى السماء من غرائب ، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه ، ويرافقه ويعاشره من قرائه . ومن لا يحتقر شيئاً يدخل فى باب الآداب ، ولا يستنكف من الأخذ عن صغير الناس وكبيرهم ويكشف كل غامض ، ويستقرى ويستنبط ، خليق أن يفعل أدبه فى النفوس ، وأن يكون كلامه راحاً للأرواح .

قيل إن الكتابة الصحيحة صعبة المراس ، وأصعب منها اختراع تركيب جديد ، وأن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء ؛ ومنها أن

يسلى الكاتب السامع بالمناظر المختلفة ، يجمع له منها أصنافاً ، وينقله فى الأحاسيس ، ويبعد به عن المهجورات والمكررات ، ويهيب به إلى الإشراف على ما تخترع قريحته ، ويتكشف عنه بيانه . وهذا القول أيضاً يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه ، وبصره بالأشياء ، حتى لا يترك قولاً لغيره إذا بدا له أن يقوله .

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله . أحدهما فى وصف الكتاب والثانى فى وصف الحسد . ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيراً . ومن أعرفُ بنفع الكتب من سيّد من صنفها ، ومن أقدر على وصف الحسد ، من العارف بدبّ هذا الداء من نفوس الحساد ، ومن كان طول حياته غرضاً لهم يحاولون أن يصيبوه فيتقيهم . انتقد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب ، فذكر لهم فضلها على الناس ، ومما قال : الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولابد أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذّ عنده من عشق القيان ، لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضيًا ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤْثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤَمل فى العلم ما يؤمل الأعرابى فى فرسه .

وقال بعد مقدمة : « وأنا أحفظ وأقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ، ونعم النزهة ، ونعم المستغلّ والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملئ علماً ، وظَرف حشى ظَرفاً ، وإناء شحن مزاحاً . إن شئت كان أعيي من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرّتك نوادره ، وشَجَتك مواعظه . ومن لك بواعظ مثله ،

وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ؛ ومن لك بطبيب أعرابى ورومى وهنـدى وفارسى ويونانى ، ونديم مولّد ، وحبيب ممتع ؛ ومن لك بشىء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

« وبعد فما رأيت بسـتاناً يحمل فى رُدن ، وروضة تنقل فى حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ؛ ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ؛ آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ؛ ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً ، ولا أبعد عن مراء ، ولا أترك لشَغَب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكفّ عن قتال — من كتاب ؛ ولا أعمّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاة ، ولا أعجل مكافأة ؛ ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أطيب ثمراً ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد فى كل إبان — من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمعه كتاب .

« ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غِبًّا ، وورده خمساً [1] ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ؛ والكتاب هو الجليس الذى لا يُطريك ،

(١) الغب بالكسر فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس بالكسر من إظماء الإبل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهى إبل خوامس .

والصديق الذى لا يَقليك ، والرفيق الذى لا يَملّك ، والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يُساطيك ، والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق . ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخّم ألفاظك ، وبجّح[1] نفسك ، وعمّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ؛ يعطيك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر ؛ وهو المعلم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عُزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك . ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء .

« وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، وتثمير مال وربّ[2] صنيعة ، وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية ، وجهالتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع . ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما تشتهيه ، لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم ، وأعظم المنة . وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يملّ ،

---

(١) بجحته تبجيحاً فتبجح أى أفرحته ففرح .

(٢) رب : جمع ورباد ولزم .

لأنه وإن كان كتاباً واحداً ، فإنه كتب كثيرة فى خطابه ، والعلم بالشريعة والأحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير .

« والكتاب هو الذى يؤدى إلى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكتّه ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمور : منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر مستحيل فى واضع الكتاب ، والمتنازع فى المسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته ، لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجاربنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأى عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلّ الحد وتبلّد .

« ولولا جياد الكتب وحَسَنها ، وبَيّنها ومختصرها ، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل ، وأن تكون فى غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرة من الجهل وسوء الحال ،

ما عسى أن لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا . وقد نجد الرجل يطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، يجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدُّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه ، فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرىّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلد من البلدان . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرَّقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة فى بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء » .

أملى الجاحظ هذه الفقرات فى عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ ، والأخذ عن الرواة ، على مطالعة الأسفار ، والمنافسة فى دواوين العلم ، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيراً ، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه ، فوجه أفكار أمته وجهة أخرى مستديمة مستقرة ، أتاها يرغبها فى الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعة ما يستقى من مَعينه ، نصح لقومه أن يتناغوا فى اقتناء الأسفار ، ويتباروا فى الاعتماد على ما تدخره من الدرر الغوالى ، وبذلك ينشط المؤلفون إلى وضع كتبهم ومصنفاتهم ، وتبقى لمن يتلوها أصح مرجع على الأيام .

وبعد فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المتعلمين ، أو من يطمع فى تثقيفهم من العالمين ، عند ما قال لهم إن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك ؛ وأن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل ، إلا

إذا درس كتب أبي حنيفة وغيره ، فأصبح بما استظهر قاضياً أو حاكماً فى أحد الأمصار . و بعد أن أفاض فى ضروب من الأقوال التى تفعل فى النفوس ، ونقل ما قاله من تقدموه فى هذا الباب ، باغت القارئ فضرب به فى الوتر الحساس ، وهو طلب المال والجاه بالكتاب ، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب ؛ وما دامت المسألة لا تحتمل أكثر من النظر فى صفحات معدودة ، و يفتح الكنز المرصود لطالب السعادة ، فجمهرة المقبلين على الأخذ من الأسفار ، ستزيد يوماً بعد يوم .

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ فى الإصلاح والتمدين ، يحاول أن يصل منه إلى غاية معينة ، و بضربه على نغمة المادية يستهوى قلوب العالم ؛ وما هو بالغافل عن ضعفهم ، وأنهم عبيد الدنيا مهما تقلبوا زماناً ومكاناً ، فخاطبهم بما يقربهم إليه . ثم هو ليس ممن يرغب فى الخطب التى يزول أثرها بزوال مؤثراتها ، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها ، و يتعشق الكتب لأنها موضع تبصر وتدبر ، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف ، وزيادة ونقص . وأثبت الجاحظ فى هذا المنحى أيضاً أنه على جانب عظيم من الدهاء ، أثبت أنه لو اعتمد فى تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته فى مجالسه ودروسه فقط ، لضاع على الناس علم كثير ، واستهلك ذلك وقتاً ودّ لو صرفه فى التآليف الخالد ، ثم لا يجد إليه المشاغبون طريقاً يلجونه لمناقشته ومراوغته ، فيضطر إلى إجابتهم وصرف الذهن عبثاً فى حوارهم ؛ ومن خُلقوا للجدال فى الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان ، وهل يرضى العدو من عدوه بغير إهلاكه أو زوال نعمته ؟

من أجل هذا تملص الجاحظ من إجابة من تقدم إليه أن يحدثه قائلا له : إنه ليس حشويًّا ، ذلك لأن الجاحظ الحذر اليقظ لا يُرضيه أن يستخدم أحد

اسمه ، مدعياً أنه نقل عنه حديثاً قد يحرفه ، أو يعبث به على هواه ، ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من الحشوية ، والحشوية هم الذين لا يدرون ما يروون ، ولا ما يصححون من أحاديث الرسول . وأخرى أنه كان ينوى بالدعوة إلى الاستكثار من اقتناء الكتب أن يظهر تدجيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا فى أصح مظاهرهم ، وتتبين للقاصى والدانى أقدارهم ، فيسقط المموّهون ، ويبقى المجوّدون ، ممن تستحق مدوناتهم أن تبقى وتتناقل جيلاً فجيلاً .

والآن ننتقل إلى الصفحة الجاحظية الأخرى ، صفحة الحاسد والمحسود ؛ فاستمعوا إليها من لسان أعرف الناس بطباع الناس ، بل أعظم منشئ وأكبر عالم قام فى القرن التاسع للميلاد كما وصفه أحد علماء الأفرنج ، وهو جواب من سأله عن الحسد : « لِمَ صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء ، ولم كَثُر فى الأقرباء ، وقلّ فى البعداء ، وكيف دبّ فى الصالحين ، أكثر منه فى الفاسقين ، وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان » فقال : « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأَود ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى . وما بطن منه فمداريه فى عناد ، ولذلك قال النبى (ص) : دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسدُ والبغضاء . . . فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشرّ بين الخلطاء ، يكمن فى الصدور ، كمون النار فى الحجر . ولو لم يدخل ، رحمك الله ، على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغيص عمره وكدر نفسه ، ونكد لذاذة معاشه ، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما أفاده الله عبده ، وتمنيه عليه أن يرجع

فى هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان عندهم فى القياس مظلوما » .

وبعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال :

« فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًا ، توبيخه على المال وقوله إنه جمعه حراما ، ومنعه أثاما ، وألّب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، وقال له : كفروا معروفَك ، وأظهروا فى الناس ذمك ، فليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يَشكرون . وإن وَجَد له خصماً ، أعانه عليه ظلماً ، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه ، أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سُئل عنه هَمَزه ، أو كانت عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال : إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود » .

« إن كان المحسود عالماً ، قال : مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومتبع نَيْل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل بوجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا إليه ، فقبحه الله من عالم ، ما أعظم بليته ، وأقل رعيته ، وأسوأ طِعْمته . »

ووصفه للعالم المحسود وصفه انفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه فى علمه وفنه ، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم فى حياته ، ومداراة الشياطين منهم من جملة ما يعد فى باب عقل الجاحظ . وقال : « لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً » وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله : « فإذا أحسست ، رحمك الله ، من صديقك

بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصّن سرّك منه تسلم من شذى[1] شره ، وعوائق ضره ، و إياك والرغبة فى مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته » .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً ، و إن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب ، و إن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبته عنك ، أو قصر من عيبه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، وَالنمر الحرِب ، وَالسم القشب ، وَالفحل القَطِم[2] ، وَالسيل العرِم . إن مَلَك قتل وسبى ، و إن مُلك عصى وبغى ؛ حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ؛ يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضى ؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ؛ عدوّك بطانته ، وصديقك علاوته . . . . أحسن ما تكون عنده حالاً ، أقلّ ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً ؛ فإذا كان الأمر على هـذا فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزّمْنى ، والاكتنان بالجدران ، ومصّ المصران ، وأكل القردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله . . . . وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ، ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته ... »

قال : « وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، و إخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه ، ومن خلق المحروم

(١) الشذى كالأذى وزناً ومعنى .

(٢) القطم ككتف الكثير العض . والقشب : الخلط وسقى السم .

تقبيح ما حُرِم وتصغيره والطعن على أهله » ، « والذى يحسد فعلى ما لا حدّ له يكون حسده ، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه[1] وكتمانه ، حتى يتمرد عليه فى ظهوره و إعلانه ، فيصده و يستعمله ، و يستعطفه لقهره عليه ، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » .

وقال فى مكان آخر : « ومتى أحب السيد الجامع ، والرئيس الكامل ، قومه أشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان أبغض أعدائهم له على حسب حب قومه له ؛ هـذا إذا لم يتوثب إليه ، ولم يعترض عليه من بنى عمه و إخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به . وحسد الأقارب أشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم . وقد قال الأولون : رضا الناس شيء لا يُنال . وقد قيل لبعض العرب : مَن السيد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هبناه ، و إذا أدبر اغتبناه . وقد قال الأوَل : بَغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة ، وتجرى فى الحاشية مجرى الملوك ؛ وليس فى الأرض عمل أكدُّ لأهله من سياسة العوام » . والجملة الأخيرة من حكمه أو من الكلام الذى يختم به فصوله غالباً ليبقى من القارئ على ذُكر . وما أحلى قوله فى الحاسد : « من العدل المحض أن تحط من الحاسد نصف عقابه ؛ لأن ألم حسده لك قد كفاك شر مؤنة غيظه عليك » . وما أصدق قوله : « ما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، و إخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك الخ » .

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل أن نشير إلى أن الجاحظ كان صريحاً فى

(١) أشحن السيف أغمده وسله ضد .

أدبه ، لا يبالى تشدد المتزمتين ، يسمى الأشياء بأسمائها ، رغم أنف من رضى وكره ، فأدبه ، والحالة ما ذكرنا ، الأدب الواقع Réalisme ، على ما يدعوه المعاصرون ، أى نقل الطبيعة كما هى ، أو كما يظن أن تُرى ، مع ما فيها من بشاعة وابتذال ؛ ولهذا الأدب فى دهرنا من أهل الغرب أدباء مشهورون عانوه فى كتبهم ، وما عبأوا بمصطلح مجتمعهم .

وكان كثير من المؤلفين فى العرب ، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل ، يسيرون على نهج أبى عثمان فى ذلك ، ومنهم خصمه اللدود جاحظ أهل السنة ابن قتيبة ، فقد قال فى مقدمة عيون الأخبار : « وإذا مرّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر[١] خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب . قال ولم أترخص لك فى إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيراك[٢] على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح ، فى إرسال النفس على السجية ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع » .

وأبان الجاحظ عن منزعه فى الأدب الواقع بقوله : « وبعض الناس إذا

---

(١) صعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر ، وربما يكون خلقة .

(٢) الرفث محركة الجماع ، والفحش كالرفوث وكلام النساء فى الجماع أو ما ووجهن به من الفحش . يقال هذا هجيراه (بكسر الأول وتشديد الثانى) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه ، أى دأبه وشأنه .

انتهى إلى ذكر الحـ . والايـ . والنيـ ، ارتدع وأظهر التعزز ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك ، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ، ونذالة متمكنة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأى أن لا يلفظ بها »[1].

سار الجاحظ على العرف قبله فى إيراد أسماء الأعضاء وعملها ، لأنها

(١) جرى كثير من العلماء والأدباء على هذه الطريقة فى التصريح ، بما يعد اليوم مخالفاً للعرف ومنافياً للأدب ، ومنهم ابن حزم الظاهرى فى طوق الحمامة والراغب الأصفهانى صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، فى كتاب محاضرات الراغب ، والقاضى التنوخى فى نشوار المحاضرة ، وياقوت فى طبقات الأدباء وغيرهم كثير . وروى الحصرى بمناسبة مجون الحسن بن هانئ « إن الشعر لم يؤسسه بانيه على أن يكون المبرز فى ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يغو بصبوة ، ولم يرخص فى هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يعرق فى ذم ، ولم يتجاوز فى مدح ، ولم يرور الباطل ، ويكسبه معارض الحق ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك ، لكان صاحب لوائه من المتقدمين ، أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وعدى بن زيد العبادى ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ فى أشعارها من امرئ القيس والنابغة . قال : وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس على تعهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم ، إلا على ملأ من الناس ، وفى حلق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم وما نهى النبى ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر اهـ . وقال الجرجانى : وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ، ولم يرووا الشعر من أجله » . وتقول مثل هذا لمن يحورون تعبير نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر ، ونحن فى صدد معرفة أدب ذاك العصر . قال القديس كليمان : أنا لا أخجل ، لفائدة القراء ، من الكلام على الأعضاء التى يخلق بها الانسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها • وقال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين : ماذا كان عمل الفعل التناسلى فى الناس وهو طبيعى وضرورى حتى شحنوه وابتعدوا عن ذكره ؟ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشىء من الخجل ، ويبتعدون عنه فى أحاديثهم ، الناس يجرؤون على التلفظ بأعمال القتل والسرقة والخيانة والزنا الخ . ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذى يهب الحياة للمخلوق . يااللعنة المكذوبة ، ويااللصاق المخجل ؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذى يخلق الانسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات ؟

ما وجدت فى اللغة إلا لتستعمل ، ولطالما أرسل النفس على سجيتها ، وأورد النكات والنوادر بالألفاظ التى رويت بها . وليس ذكر الأشياء بأسمائها بدعاً فى أسلوب الجاحظ ، ووصف الأشياء بما فيها من قبح وحسن بالأسلوب الواقعى طريقة للعرب قديمة ؛ ومع هذا لم يفرط أبو عثمان فى ذلك ، يورد ما يورد منها فى المناسبات ، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين ، أو يعبث بخلق ، أو يأتى على أدب ، ولا سيما فى حكاياته وما ينقله من أشعار . الجاحظ يملى أدبه من روحه وقلبه وعقله ، ويقول ما يقول غير متزيد ، فمن الأحجى أن يعرض الطبائع البشرية فى صورتها الحقيقية ، لا يداجى ولا يحابى ، ويجابه الحقيقة مجابهة .

بقى أن نقول إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظارة طريقته ، ولو أنك ألقيت قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبية لغيره ، لما صعب عليك أن تميز كلامه من كلام غيره ، إن كنت ممن تأدب بكلامه ، لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها ؛ فشخصية الجاحظ تلمسها إذاً فى كل موضوع جالت فيه يراعته ؛ وهذا قلما تعرف مثله كثيراً لغيره من العلماء والأدباء ، وأسلوبه خاص به ، لا ينازعه فيه منازع ، وجماع عوامل الإحسان مستوفاة فى كلامه .

بلاغته :

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته « حتى كان يقال من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به » ومن الخير لطلاب البلاغة إذاً أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته ، ويتواصفوا فى الجملة طراز إملائه

دروس البلاغة ، ويتعرفوا ميزانه الدقيق فى فقه اللغة ، « أى النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب » و « تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال » ، و « اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه » .

قالوا إن « مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » وحظ الجاحظ من هذا كان جزيلاً . حسنت بلاغته فى كل عين ، لتجميلها ببراعته فى تخير جيد الألفاظ ، وتجافيه عن استخدام الثقيل فى ميزانه ، وقد ينبذ اللفظ الواحد ويستعمل معناه ، ويؤدى المعنى بعدة ألفاظ ، واللفظة الواحدة تُجزئه ، وفى ألفاظ الأعيان يضع الشىء موضعه ، ويطبق كل اسم على مسماه . قال مرة : « ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل ، وهو الذى يقال له سَبْكور ، أكثر من أن يقولوا به هُدْبِدٌ » . وقال فى وصف كتاب بالقدم « كتاب متقادم الميلاد دهريُّ الصنعة » ، وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يستعمل مالا عهد باستعماله قبله مثل قوله : « القرويون والبلديون » ، « اللغويون والمعنويون » أطلق هذا على من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعانى ، فمعرفة أبى عثمان بوقع الكلمة فى نفس القارئ وتمييزه الدقيق بين حىّ الألفاظ وميتها ، وسهلها وصعبها ، سبب أول فى تفوقه فى بلاغته .

وملاك الأمر عنده أبداً أن يكون اللفظ سمحاً لا كزًّا [1] ، والابتعاد عن المعانى التافهة ، والقوالب المستكرهة ؛ ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً ، ولا وحشياً غريباً وقال : « الاستعانة بالغريب عجز » « إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى

(١) يقال رجل كز اليدين ذو كزز أى بخل ، والكزازة اليبس والانقباض .

من الناس ، كما يفهم السوق رطانة السوق » ؛ والمعوّل عليه فى هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » ؛ فهو إذًا ممن سعوا فى تدميث اللغة ، على نحو ما تدمثت طبائع الأمة العربية بالحضارة .

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال : « قد يستخفُّ الناس ألفاظاً و يستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » « وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعانى » ويقول إن لكل قوم ألفاظاً حَظِيت عندهم « وكذلك كل بليغ فى الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج [1] وألف ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها فى كلامه ، وإن كان واسع العلم ، غزير المعانى ، كثير اللفظ » .

قال وأنا أقول فى هذا قولاً ، وأرجو أن يكون مرضياً ، ولم أقل أرجو لأنى أعلم فيه خللاً ، ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب . وذلك أنه قيل لصُحَارٍ [2] العَبْدى : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه ؟ قال : أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً مُرْضِياً . وهو يعلم أنه قد وفّاه حقه الواجب ، وتفضل بما لا يجب . قال صُحَار : كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتَنَفَّساً ،

(١) لهج به : كفرح أغرى به فثابر عليه .
(٢) صحار بن العباس العبدى وفد على النبى وكان من أخطب الناس وأبينهم .

وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يُمنعوا منه ، فلذلك قلت أرجو ، فافهم ، فهّمك الله تعالى .

« فإن رأيي فى هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن أكون ما دمت فى المعانى ، التى هى عبارتها والعادة فيها ، أن ألفظ بالشىء العتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل ، إلا بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً فى صناعة الكلام ، مع خاصّ أهل الكلام ، فإن ذلك أفهم عندى وأخف لمؤنهم علىّ . ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها و بين تلك المعانى . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والجار ، أو فى مخاطبة أهله وعبده وأَمَته ، أو فى حديثه إذا حدّث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجاب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

ذلكم رأى الجاحظ فى وضع الألفاظ مواضعها فى التأليف . وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق ، هو لا يدعوك فى وضع القاعدة التى سنّها لك ، إلا أن تتدبر ما قال ، وتعمل به فى اختيار اللفظ الموافق ، وأما المعانى فقد قال إن حكمها خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة . وهنا روى عن غيره : « قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصورة فى أذهانهم ، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، و بعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ،

لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره . و إنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، و إخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً . وهى التى تخلص الملتبس ، وتحل المتعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشى مألوفاً ، والغُفل موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى ، هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت وأصناف العجم » .

« وقال مَن علم : حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وَفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفصولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوِداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم » .

قال : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغَشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع فى القلوب صنع الغيث فى التربة الكريمة ، ومتى كانت الكلمة على هذه

الشريطة ، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة » .

قال : « ومتى شا كل أبقاك الله اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفقاً ، ولذلك القدر لفقاً[١] ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قَمِناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين . و يحمى عِرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة . ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتّصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القُلوب ، وخفّ على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريّض[٢] ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذَنوبا[٣] حبب إليه المعانى ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كدّ التكلف . وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم » .

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القضية الواحدة فى عدة أماكن من كتبه ورسائله ، يريد إثباتها فى الأذهان ، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعانى الصورة اللائقة مما يُعنى به ، فقد قال فى رسالة « مدح التجار وذم عمل السلطان » ما لم يخرج عن قوله فى هذا المعنى فى البيان والتبيين وفى الحيوان

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان هما : لفقان . والوفق والوفاق والفيقة والفوقة والسية والعدل واحد .

(٢) يقال ناقة ريض كسيد أول ماريضت وهى صعبة بعد .

(٣) الحظ والنصيب والدلو أو فيها ماء أو الملأى أو دون الملأى .

وغيرهما . قال : ثم خذه بتعريف حجج الكتّاب ، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره التكلف ، واستكراه العبارة ، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب[1] ، ويكون مقصوراً على معناه ، لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه ، فاختر من المعانى مالم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مغرقاً فى الإكثار والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ ، وغموضه على السامع ، بعد أن يتسق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة ، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه ، وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً ، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به ، والآفة الكبرى أن يكون ردىء الطبع ، بطىء اللفظ ، كليل الحد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يعدَّ فى البلغاء ، شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء ؛ فإذا كان كذلك خفى عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ ، واستكراهه لها .

« وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ، الذى لا ينبغى أن يجاوزه ، أو يقصر دونه ، ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعانى ، فهو على سبيل صواب ؛ ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ ، فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ

---

(١) التعقيب : المكث والالتفات .

حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها ، إلى أن يستعملها قبل وقتها ، و يضعها في غير مكانها ؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ، قال صاحبه : ولمَ ذاك ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه ، و إنما هي رياضة وسباحة ، والرفيق مصلح ، والآخر مفسد ، ولابد من هذين ، وطبيعة مناسبة ؛ وسماع الألفاظ ضار ونافع ؛ فالوجه النافع أن يدور في مسامعه ، ويغيب في قلبه ، و يختم في صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ، ولا مختلسة ولا مُغْتصبة ، ولا دالة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره ، و بين الشيء إذا عشش في الصدر ، ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، و بين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيّن » . وقال : « إن كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والقبيح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، و بكل قد تكلموا ، و بكل قد تمادحوا وتعايبوا » .

وقد أعجب بما يستخدمه رواة الأخبار من السهولة فقال : ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهدتي لهم — لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها ، وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني ؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتّاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر . يعني أن الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من

الألفاظ إلا ما يفهمه العامة ؛ والكاتب يكتب ليُفهم لا ليُعجم ، ويتوخى المعانى الجديدة التى تصلح فساد القلوب ، وتعمر بها الأفئدة والعقول .

قال الجرجانى فى دلائل الإعجاز : واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذ تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نَضَد أشياء بعضها على بعض لا يريد فى نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس إلا أن تكون مجموعة فى رأى العين ؛ وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ : « جنَّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عزّ الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة » .

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال فى كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن : « حجة على الملحد ، وتبيان للموحد ، قائم بالحلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل ، وإمام تقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، ومصباح لا يخزن ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا تنقطع كنوزه ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار ، وزاجر يصد عن المحارم ، ويجير يوم التحاكم » .

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير

طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعانى السخيفة ، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشى كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات فى عصره ، فعُدَّ ذلك فى جملة إفضاله على اللغة أيضاً ، قال : « ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيَّرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليكَ فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطَّغام[1] ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، وأن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريًّا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أُريدت له ، ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » وهو يرى « أن النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح ، لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح ، ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده فى نفسه » .

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له : « وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الإسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم فى تحبير المنثور ، وقد تعمل فى المعانى ، وتكلف إقامة الوزن ، والذى تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً[2] ، مع قلة لفظه وعدد هجائه — أحمد أمراً ، وأحسن موقعاً من القلوب ، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولأن التقدّم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليه ، لا يكون إلا ممن يحب السمعة ، ويهوى الفَلْج[3] والاستطالة » .

* * *

(١) الطغام كسحاب أوغاد الناس والحشوة (بكسر الحاء وضمها) : العوام .

(٢) الرهو : السير السهل ، والسهو : السهل .

(٣) الفلج : الظفر والفوز كالإفلاج والاسم بالضم كالفلجة .

تخوّف الجاحظ من فساد كبير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة ، عند ما شرعت العرب بنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية ، وقد شاهد النقلة ضعافاً فى البيان ، وأقرب إلى الركاكة فى الألفاظ وسبكها ، حتى أفسدوا المعانى وأبهموها فعميت على الناس ، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها فى الحقيقة إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها فى نقلها . قال : « إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ، وكذلك كتاب أقليدس ، وهو عربى وقد صُفّى ، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطق الذى استخرج من جميع الكلام » . وقال : « ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ، ولا تصير صَناعاً[١] ، ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها ، واللسان لا يكون أبداً ذاهباً فى طريق البيان ، متصرفاً فى الألفاظ ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، منقلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه . »

وإليك الآن منزعــه فى الترجمة والنقل ، وما ينبغى لها من البلاغة ، وما السبيل إليهـا : « وقال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له ، إن الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بمـا يلزم الوكيل ويجب على الجرىّ[٢] ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها ، على حقها وصـدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما حاذق فى الصنعة من قوم صنعى الأيدى بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة وأصناع الأيدى .
(٢) الجرى . الوكيل للواحد والجمع والمؤنث ، والرسول والأجير والضامن .

وواضعه ؛ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن وهيلى وابن المقفع مثـل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون . ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمـة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة ؛ وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيها سواء وعاية ؛ ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخـل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكن اللسان منهـما مجتمعين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنمـا له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغـة واحدة استفرغت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيـه ، ولن تجد مترجماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء . هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل » .

وما عجب أبو عثمان من رجل عرف لغتين ، فكان إماماً فى البلاغة ، غير موسى بن سيار الأسوارى ، قال : إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحـد أدخلت كل واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها .

وقال فى معنى الترجمة ومسخها بلاغة الشعر المنقول ، وكيف يُحيل النقل

المبانى والمعانى : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه . وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه . وصار كالكلام المنثور ، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر . وقد نُقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من أُمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

إنا إذا تأملنا قول الجاحظ فى النقل ، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة ، لينقل فيجيد من لغة إلى لغة ثانية ، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أحدث الآراء فى عصرنا ، وكأنك إذا تدبرت ما قاله فى هذا المعنى ، تقرأ رأياً لرجل أنفق عمره فى الترجمة والنقل ، ولا تبعد كثيراً عن محجة الصواب إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أُخرى فى الأحايين . والأرجح أن هذه اللغة هى الفارسية . وفى ذلك إشارات فى البيان والتبيين ، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار ببلاغته فى اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس ، وصعب أن يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين ، ومن لم يكن جهبذاً فى البلاغة وما يقتضى لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين .

جدله ونقده :

لا يرى الجاحظ ، صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح ، طريق النجاة للناس ، إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان أبداً حرباً على من خالفوا الدين ، وحرباً على الملحدين والكافرين . أنحى على الشيع التى انفصلت من الإسلام ، وعبثت بشىء من فروعه ، فردّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم . وجادل اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالتى هى أحسن . وأهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين ، والطعن على من حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا فى ملتهم من امتلوا ملة الإسلام[١] ؛ مثل رده على من ألحد فى كتاب الله ، ورده الذى عنن له[٢] « بصيرة غنام المرتد » وغير ذلك .

كتب الجاحظ كل هذا ، وبعض المتنطسين من الحشوية ، أو المتنطعين فى الدين والمتنمسين[٣] فيه . يعدونه مقصراً ويطلقون ألسنتهم فيما كتب ، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة . وقاموا فى عصره وبعده يكذبون عليه ، ومنهم من بلغت به القحة أن يخرجه من الدين ، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية ، ومن الغريب أن أولئك الغُيُر على الإسلام لم تحدثهم أنفسهم أن يكتبوا فصلاً واحداً فى دفع أعدائه ؛ وراحوا ، ورأس مالهم الباطل ، يعترضون من دون حياء على من كان فى مثل قوة الجاحظ فى تصديه لرد شبه المخالفين . أما أرباب العقول المستنيرة ، المنزهون عن الأغراض فى الحكم على

---

(١) الملة بالكسر الشريعة أو الدين وتَملل وامتل : دخل فيها .

(٢) عن الكتاب وعنه وعنونه وعناه : كتب عنوانه .

(٣) تنطس فى الكلام تأنق فيه ، وتنطع فى كلامه إذا تفصح فيه وتعمق . والتمييس التلبيس والاحتيال .

الجاحظ ، فقد كانوا يعدون ظهوره فى ذالك العصر ، عصر تسرب الشبهات والجاذبات الدينية ، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين .

وأغرب من هذا دعوى بعض أصحاب الجرح والتعديل أن الجاحظ كان إذا روى حجج من يجادلهم من النصارى أوردها برمتها ، وقصر عمداً فى رد أقوالهم ، تاركاً بعض النواحى الضعيفة فى جوابه ، وهو يرمى بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن ينصف الخصم فيضع أمام الأنظار حججه ، ثم ينقدها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب ، وقد يسخر ممن ينقده ويتهكم به ، ويمن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب . ورسالته فى الرد على النصارى تنادى بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه . وما كان لمؤلف أن يضع تأليفه ليرضى به حتى المتعنتين ، ومراض العقول وأصحاب الأهواء . ولولا أن الجاحظ كان الحجة الثبت فى هذا الموضوع بين علماء عصره ، ما حثه الفتح بن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى . « وهَمُّكَ من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك[1] من صدوق » إن جادل أفحم ، وإن ألف كان الأعلم والأحكم .

أجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله : « وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتنى أقول فى أول كتابى : وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتنى أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علىّ بالنصب لحكايتى ، فهلاّ حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى ، وهلا كنت عندكَ من الغالية لحكايتى حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة . وقد حكينا فى كتابنا قول الأباضية والصُّفْرية ،

(١) يقال مررت برجل شرعك من رجل أى حسبك يستوى فيه الواحد والجميع ، ومثله وهذا رجل همك من رجل وهمتك من رجل حسبك .

كما حكينا قول الأزارقة والزيدية . وعلى هذه الأركان الأربعة بنت الخارجية وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة ، واشتقاق منها ومحمول عليها ، وإلا كنا عندك من الخارجية ، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة ، فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة إلى أعراض الناس من الخارجية ، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانيــة والضرارية أشبع وأجمع ، وأتم وأجود وعبتنى بكتاب العباســية ، فهلا عبتنى بحكاية مقالة من أبى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن تركَ الناس سدًى بلا قيم أردّ عليهم ، وهملاً بلا راع أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل » .

وفى كتابه حجج النبوة : « والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف الناس النبى من المتنبى . والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة ، والفريضة من النافلة ، والحظر من الإباحة ، والاجتماع من الفرقة ، والشذوذ من الاستفاضة ، والردّ من المعارضة ، والنار من الجنة ، وعامة المفسدة والمصلحة » . وقال : « إن كل منطيق محجوج ، والحجة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر . فإذا تكلمنا فى العيان وما يفرع منه ، فلا بدّ من التعارف فى أصله والتعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاســتدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لــكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال إحدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد . والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجىء خبر يدل على صدق » .

كان الجاحظ محيطاً بما يجول فى قلوب أولئك الناقدين الناقمين ، يعرف أنهم يبغون له العثرة ، و يقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم ، لوقوفه على نياتهم ، ومثل هاته الطبقة كان على الأغلب يهزأ بها و يرحمها . وليس بعد الجهل ذنب ، كما قيل ليس بعد الكفر ذنب . وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله و يحسدونه حسد لؤم وغباوة ، بقوله : « إنى ر بما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته [1] ، وأ كثر ما يكون هذا منهم ، إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة [2] فإن أمكنتهم الحيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له ، فهو الذى قصدوه وأرادوه ، و إن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً [3] بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومَتوا [4] إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه . لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بى . ور بما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة و يحيى بن خالد والعتابى ،

---

(١) نصح : خلص .

(٢) المغتلمة من الابل التى غلبت عليها شهوة الضراب .

(٣) النقاب بكسر النون الرجل العلامة ، أو النافذ فى الأمور كما فى الأساس ، والنقريس بكسر النون أيضاً الطبيب الماهر الفطن المدقق كالنقرس .

(٤) مت إليه بحرمة متاً توصل بقرابة أو دالة .

ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم . ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب إلى تأليفى » .

هكذا سبر الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه ، وضحك وأضحك من لؤمهم وغبائهم ، وأبت نفسه أن يحاورهم ، وهو جدّ عارف بقدر ما يكتب ، وبما يرمى إليه من المقاصد فى وضع أسفاره . ولطالما وطّن نفسه على استماع سخف السخفاء فى أحكامهم المتجانفة [(١)] عن الحق ، قال : « لأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة » . وبديهى أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه إلا أن ينقطع عن التأليف ليساويهم فى قصورهم ، ولذلك كان من الطبيعى أن لا يناقشهم لأنهم طلقوا المنطق فى حواره ، وأبهموا وما أبانوا فى وجوه اعتراضهم على أفكاره ، والكلام المجمل يحتاج إلى تفصيل ، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق ، وهو فى غُنية عن أن يعرض لكلام من قتلهم الحسد .

على انه عرض فى الحيوان لأولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله : « ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم فى هذا الزمان ، ويظهر اصطناع الكتب فى هذا

---

(١) تجانف : مال .

الدهر ، لما احتجت فى مداراتهم واستمالتهم ، وتوفيق نفوسهم ، وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، إلى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذى أفيدهم إياه أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتى فى صلاحهم ، رغبة من رغب فى دنياهم » . وقال فى غرض كتاب آخر : « وقد جمعنا فى هذا الكتاب جلاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار ، ولعل بعض من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيد والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره . كلاَّ والذى حرّم التزيد[1] على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج[2] الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه » . وما أحلى هـذا القسم وما أجمل مغزاه .

ولما كان المعتزلة يتشددون فى الحديث وتأويله وروايته ، ويردون كثيراً مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية ، أبت نفس الجاحظ بالضرورة أن يكون فى الحديث حاطب[3] ليل ، فما كان من الأحاديث مرضى الإسناد صحيح المخرج قبله ، وما كان مسخوط[4] الإسناد فاسد المخرج نبذه . وكان الشهاب الزهرى يقول عن الحديث وروايته : يخرج الحديث من عندنا شبراً ، ويعود فى العراق ذراعاً . وكان مالك بن أنس يقول : إذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته ؛ وكان يسمى الكوفة دار الضرب لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود ؛ وكان أحمد بن حنبل يشك فى التفسير ويقول : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى .

---

(١) التزيد فى الحديث الكذب .

(٢) البهرجة أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .

(٣) حاطب ليل : مخلط فى كلامه . (٤) المسخوط : المكروه .

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه ، وفهم « تأويل الأحاديث ، وأى ضرب يكون مردوداً ، وأى ضرب منها يكون متأوّلاً ، وأى ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل » . وقال : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » .

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على أحد من أهل الملل والنحل ، وما جوّز التقول على من يخالفه أيًّا كان وكانت نحلته ، « ولم يذكر محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم لأنه يتولاهم[1] ، ولا لأنه يميل إليهم ، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به ، أحسن اقتصاداً من الرافضة ، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم ، وجرأة الرافضة على الكذب عَلَى أعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم ، ووصف أصحابهم بالنسك والفضل ، ثم خبر عن شعر عمران بن حطان وحبيب ابن خُدرة وأشباههما من شعراء الخوارج » . قال الخياط : « وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ ، وأنه لم يتزيد على الرافضة حرفاً واحداً ، وقال إن الجاحظ بين فى كتاب فضيلة المعتزلة أن الرافضة يقتطعون آل أبى طالب عن العلم والعمل جميعاً ، ويوهمونهم أن المعاصى لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع ، وأنه لم يسلم جلة أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من شتمهم وعداوتهم ، ولم يسلم من تولوه من آل على من تثبيطهم عن العلم ، وتزهيدهم فى العمل الصالح المقرّب لهم إلى الله ، فلم ينج منهم ولى ولا عدوّ » . ومن أجل هذا قال المسعودى فى كتب الجاحظ : إنها حسنة « إن لم تدع إلى نَصْب » ؛ وأهل النصب هم المتدينون ببغضة على بن أبى طالب فإنهم نصبوا له

---

(١) تولاه : اتخذه ولياً .

أى عادوه ومنهم الخوارج . والمعتزلة يختلفون فى أمير المؤمنين عثمان بعد الأحداث التى أحدثها ، وأكثرهم تولاه وتأول له ؛ ومعظمهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما ؛ ولا نعرف السرّ فى انحرافهم عن بنى أمية ، مع أن المعتزلة كانوا معتدلين فى الحكم عَلَى علىّ بن أبى طالب يعطونه حقه من دون زيادة ، ومعاوية وآله وأنصاره جمعوا شمل الإسلام . ولا نعتقد مع هذا أن رسالة النابتة التى نسبت إليه وفيها إقذاع بالأمويين هى من تأليفه ، كما لا نعتقد أن كتاب التاج وكتاب الأخلاق هما له أيضاً .

يقول شيخنا طاهر الجزائرى إن الجاحظ قد يسلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصرييه من أبناء نحلته كأبى جعفر الإسكافى . وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذى بصيرة ، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه ، وقد يصرح بغير ذلك فى موضع آخر ؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان . ونقل ابن أبى الحديد أن الجاحظ ألف كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر ما يشعر بالنصب ، لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم ، فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافى فنقض كتابه ، وأطلق لسانه فى الجاحظ ؛ ومن ذلك قوله : القول ممكن ، والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ ... قوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ؛ يقول الشىء وخلافه ، ويحسن القول وضده . قال قاضى القضاة عبد الجبار فى طبقات المعتزلة : نقض الإسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانية فى حياته ، فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض لنقد كتابى ، وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره . وكان أبو جعفر علوىّ الرأى محققاً منصفاً ، قليل العصبية ، ألف سبعين كتاباً فى علم الكلام اهـ .

وقول أستاذنا إن الجاحظ قد يعمد إلى التمويه ، وتمويهه تمويه العاقل ، كلام يحتاج إلى شرح قليل . فإن الجاحظ قد ينقل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من أميرى المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية ابن أبى سفيان . فنسب إلى معاوية فى رسالته القيان ما يقدح فى عدالته وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمتهتك ، ولم يجرأ خصومه أن يتهموه بشىء من ذلك . وغريب من أبى عثمان إطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتى فى مقارعة أعدائه . ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما أعجبه نسكهم وامتناعهم عن الكذب على من خالفهم ، وإن لم يقل بقولهم فى إكفار من رضى بالتحكيم ، وحط من الرافضة لما رآهم يضعون ما لا يحل من الكذب على الرسول وعلى مخالفيهم ، وأصلاهم ناراً من نقده لما وضعوا آل على فى منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته ، فقالوا بعصمتهم وأن المعاصى لا تضرهم .

ومن هذا الضرب إشارته إلى ما وقع بين أحمد بن حنبل والمعتصم فى مسألة خلق القرآن قال الجاحظ : وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكاً . وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة ، والذين خالفوا فى العرش ، إنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق .
وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين

إعذاراً و إنذاراً : امتحنتنى وأنت تعرف ما فى المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت . وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْك على الإسلام ما عرض لك ، فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل . وقيل المعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه فينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم فأبى أن يقبل ذلك وأنكره إلى آخر ما ذكر .

مذهب الجاحظ فى الدين كمذهبه فى العلم ، مذهب العقل وصدق الحس لا يحكِّمُ غيرها ، ولا يَحْكُمُ بسواها . لا جرم أن اختلاف أهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيراً ، والمسائل المختلف فيها لا تعبث بأصل من أصول الدين ، فمن قال مثلاً بأن الله يرى فى الآخرة له أدلته من الكتاب ، ومن قال بأن الله لا يرى تأول بعض الآيات لإثبات قضيته ، ومن قال إن الفاسق يخلد فى النار أو لا يخلد ، فلا يتعلق على كلامه كبير أمر فى الدين . يقول ابن حزم : « إن أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد النجار و بشر بن غياث المريسى ثم أصحاب ضرار بن عمرو وأبعدهم أصحاب أبى هذيل » .

ومن ثبتت له كالجاحظ كل هذه الحسنات فى الدفاع عن الدين ، لا يضيره إذا رأى رأى غيره فى مسائل طفيفة . والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون فى كل الأمور . فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف أحد أساتذته فى بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم ، ولا عُدَّ عمله من سوء الأدب . و إذا أدركنا أن معظم ما كتبه فى

الدين قد فقد نتخيل مبلغ سعة الدعاية التى دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة . يقول ابن أبى الحديد إن المرتضى لما رأى الجاحظ وافق غرضه مرة استجاد قوله فكناه ، مع أنه ما كناه أصلاً قال : « فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم » .

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فينفى عن النصارى لما جاء يحاجهم معرفة الفلسفة ، ويقول ليس لهم « إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون [1] . وكتب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العُلوى والمجسطى والهندسة والطب ليست للنصارى ، بل هى لأرسطاطاليس وبطلميوس وأقليدس وجالينوس وديمقراط وأبقراط وغيرهم » . « هؤلاء الناس من أمة قد بادوا وبقيت عقولهم ، وهم اليونان ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم : أولئك علماء وهؤلاء صناع . أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتدانى الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم » . وقال : إن أكثر من قتل من الزنادقة — ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره — هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك » قال : « ومما عظّم النصارى فى قلوب العوام ، وحببهم إلى الطغام ، أن منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً ، أو قصاباً أو شعاباً [2] .

وذكر أن المسلمين يبجلون النصارى أكثر من اليهود ، لأن النصرانية كانت فاشية فى العرب وعليها غالبة ، إلا مُضَر فلم تغلب عليها يهودية

(١) البزيون : السندس . (٢) الشعاب : اللئم وحرفته الشعابة .

ولا مجوسية ، ولم تفشُ فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم ، نزلوا الحيرة يسمون العبّاد ، فإنهم كانوا نصارى وهم مغمورون[١] مع نبذ[٢] يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لَخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعة وطيئ في قبائل كثيرة وأحياء معروفة ، ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على ثعلب وعبدالقيس وأفناء[٣] بكر ثم في آل ذي جَدَن[٤] خاصة . وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب وحِمْيَر وتَيْماء ووادى القرى في ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى ، المُلكُ الذي كان فيهم ، والقرابة التي كانت لهم ، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيرة ، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الإسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

وقال في وصف حال الفلسفة عند اليهود : « إنهم يرون أن النظر في الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مَجْلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة ، والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك » .

وقال في علاقة المسلمين بالنصارى : « على أن هــذه الأمة لم تبتل باليهود

---

(١) المغمور : الخامل . (٢) النبذ : الشيء القليل اليسير .

(٣) الهنأ محركة : الكثرة ، وبالسكون الجماعة . (٤) قيل من أقيال حِمْيَر .

ولا المجوس ولا الصابئين ، كما ابتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف الإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلُون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشْغَبون على القوى ، ويُلبِّسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » .

وتفسير هذا أن الجاحظ عُنى بالرد على من نال من الإسلام ، فلم يتخلَّ حتى عن الكتابيين ، وأحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين ، واعترف بأن من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول العوام من المسلمين ، وقال إن النصارى ليسوا أهل حكمة ، وأن الحكمة خاصة باليونان ، وإنما النصارى أهل صناعات وقع إلى بلادهم شيء من علوم اليونانيين ، واليونان مخالفون للنصارى فى دينهم وتاريخهم وأدبهم ، واليهود لا يعرفون شيئاً غير التوراة ، وينبذون ما عداها من العلوم ، وصناعاتهم حقيرة ، وصناعات النصارى شريفة ، وأن ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية إلا الصلات الكثيرة التى تأصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولأن فيهم ملكاً قائماً .

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلاً : « أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع ، وأن إصلاح الناس فى إقامة جزاء الحسنة والسيئة ، ولكم فى القصاص حياة ، والقَوَد حياة ؛ وهذا شىء تعمل به الأمم كلها غير الزنادقة ، والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها مُلك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وأجاب من قال له إن الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق

النقى الأبيض ، والحبر الأسود واستجادة الخط : « إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب ، كإنفاق النصارى على البيَع ، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم ، وكتب فلسفة ، وكتب مقاييس ، وسنن تبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات ، أو سبل الكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ؛ وإن كان ذلك لا يقرب من غنىً ولا يبعد من مأثم ؛ لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فإنما إنفاقهم فى ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب ، وكإنفاق الهند على سَدَنة البددة[1] . . . والذى يدل على ما قلنا أنه ليس فى كتبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ، وجلّ ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت ... لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً موثقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة والتحرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنيا . . . وكل دين يكون أظهر فساداً احتاج من الترقيع والتمويه ، ومن الاحتشاد له ، والتغليظ فيه ، إلى أكثر ، وقد علمنا أن النصرانية

---

(١) البد : الصنم معرب بت ج بددة وأبداد بيت الصنم ، والسدنة واحدها سادن وهو خادم الصنم وأطلق فى الإسلام على خادم الكعبة .

أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم فى توكيده ، واحتفالهم فى إظهار تعليمه » .

وقال فيهم وفيمن يحب مشاكلتهم : « وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء ، وأنهم عقلاء وأدباء ، وأنهم عباد ، وأصحاب اجتهاد ، وأن لهم البصائر فى دينهم ، والبذل لمهجهم ، وأن هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلا ، فينزو نحوهم نزو المُهر الأرن[1] ، ويحن إليهم حنين الواله العجول ، ويتصبى فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل فى طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق » .

وقال فى نعت الدهريين : « فإن الذى ينفى الرب ، ويحيل الأمر والنهى ، وينكر جواز الرسالة ، ويجعل الطينة قديمة ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام ، ولا يقرُّ بأن فى جميع العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، ويجعل الفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم ، وبين المحسن والمسىء ، ولا يستطيع الزيادة فى حركته ، ولا النقصان من دورانه ، ولا معاقبة للسكون بالحركة ، ولا الوقوف طرفة عين ، ولا الانحراف عن الجهة هو الذى يكون به جميع الإبرام والنقض ، ودقيق الأمور وجليلها ، وهذه الحكم العجيبة ، والتدابير المتقنة ، والتأليف البديعة ، والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق معروف على غاية من حقائق الحكمة ، وإحكام الصنعة . . لأن الدهرىَّ ليس يرى أن فى الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية

(١) الأرن : المائج ، وينزو : يثب .

ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يتوخى الثواب على الإحسان ، وإنما الصواب عنده والحق فى حكمه ، أنه والبهيمة سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وإن مدار الأمر على الإخفاق والدَّرْك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وإن قتَل ألف إنسان صالح لمنالة[1] الدرهم الردىء . . . » .

وقال فى المنانية أصحاب مانى : « إن أناساً حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء . وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش . وأُعِدّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعدّ فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشىء قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها . »

« فهذه حال هذا الصنف فى إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى إتقان خلقته ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشىء يجهل سببه والأرب فيه ، فيشرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطإ والإحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووفقه لتأمل هذه الخليقة ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ،

(١) النال والمنال والمنالة مصدر نلت أنال .

بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصر فى إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد فى نشره و إذاعته و إيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعى الإيمان ، وتخيب مكيدة الشيطان » .

هذه نموذجات من أساليب الرد على من خالفوا الإسلام ، ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد ، فيتأذى الإسلام بدعوتهم ، وتسرى فى أذهان العوام . وقال فى المجوسية : ولم تر قط ذا دين تحول إلى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب إلا فى ضعفة من أهل فارس والجبال ، وخراسان كلها فارسية فإن عجبتَ من استسقاطى لعقل كسرى ابرويز وآبائه وأحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته فإنى أقول فى ذلك قولاً لا يعرف به أننى ليس إلى العصبية ذهبت .

رأى أبو عثمان إنزال العقوبات فى العابثين بالأديان فقال : « من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى موضع القتل ، وأحيى فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العفو ، وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الربَّ فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ؛ وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، و بعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌّ منه من كان شره صرفاً ، ولكن أخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون و يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة ، ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ؛ فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً . ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل أولى

بذلك الحكم ، وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار ، وفى جميع الأعصار ، على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ؛ وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً » .

وراعنى سمعك فى تلاوة الجملة الآتية يرد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله ، وكيف حاجه فأحسن حجاجه ، ودله على قصور علمه وضعف منطقه ، قال : « وكان شيخ من البصريين يقول : إن الله إنما جعل نبيّه أمّيّاً لا يكتب ، ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين ، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب والأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ، ليكون أنقص حظًّا من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبيًّا ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ؛ فإنما نَقَصَه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ، ليجلى له الكثير .

قال الجاحظ وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولوزعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر وجميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ،

وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان فى ظاهره ، والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ، ولكنه أراد أن لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف فى المؤنة ، وأسهل فى المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التى كانوا يتكافونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما فى غير ذلك ، فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ، وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشىء عليه من طول الهجران له رفق .

قال : « ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام فى حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو وإن طال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من أمره عليه السلام غير ما توهم » .

ويخيل إلى من يتدبر هذا الكلام أنه لم يفهم من أمية الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما أدركه الجاحظ من هذه الصفة الشريفة فى النبى خاصة ، وإذا فهمه فيستحيل عليه أن يكتب فكره بهذا البيان .

انظر إليه ينتقد على السلف فى تقصيرهم فى سيرة الرسول ، يقول : إن السلف

الذين جمعوا القرآن فى المصاحف بعد أن كان متفرقاً فى الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبى صلى الله عليه وسلم و برهانه ودلائله وآياته ، وصنوف بدائعه ، وأنواع عجائبه ، فى مقامه وظعنه ، وعند دعائه واحتجاجه فى الجمع العظيم و بحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك فى خبرهم إلا الغبى الجاهل والعدو المائل لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهرى معاند ، ولا متظرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً فى عوامنا كشهرته فى خواصنا ، ولكان استبصار جميع أعياننا فى حقهم كاستبصارهم فى باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع فى غبيّ يستميله وفى حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر و إظهار البارز والاحتجاج الواضح اه .

كان الجاحظ على سعة صدره ، وطول أناته ، لا يغتفر التخليط لأى كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه ، يناقشهم و يحاسبهم خصوصاً إذا قصروا فى الكلام وادعوا ما ليس فيهم وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه . فقد رأيناه آنفاً ينحى إنحاء شديداً على الخليل بن أحمد وعلى عبد الله بن المقفع ، لأنهما كتبا فى الكلام أموراً عدها جرأة على العلم . ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم يجب أن لا يدعى غيرهما ، و يحجم عن مقامات العلوم الأخرى ، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم ، فالخليل بن أحمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى فى فنه لا يتعداه ، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه ، وهو ما هو فى البلاغة والحكمة واختراع المعانى ، أن لا يتعدى ذلك إلى البحث فى الكلام

ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعديا اختصاصهما فى العلم ، ونقدهما بشدة لم يشفع فيهما ذكاؤهما النادر ، وجهة إخصائهما فى الفنون الأخرى. قال فى كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر أن الخليل بن أحمد واضع علم العروض : فلما أحكمه و بلغ منه ما بلغ أخذ فى تفسير اللحون فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستعمله من عنى به ، وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلى أول من حذا حذوه وامتثل هديه . واجتمعت له فى ذلك آلات لم تجتمع للخليل ابن أحمد قبله . وقال فى الموصلى إنه ألف فى الغناء كتباً معجبة « وسهل له فيها ما كان مستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل ، وحذق راجح ، ووزن صحيح » .

مقاتل المرء تبدو متى عالج عملاً ليس منه بسبيل ؛ فقد كتب المسعودى فى سنان بن ثابت الحرانى لما وضع كتاباً فى الأخلاق يقول : « إنه انتحل ما ليس من صناعته ، واستنتج ما ليس من طريقته ، وهو و إن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فإنه عِيب لأنه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو أقبل على علمه الذى انفرد به من أنواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره معوز ، والعالم بمواضع الخلة مفقود » .

كل هذا يعالجه الجاحظ فى نطاق الإنصاف والأدب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم . ومن أقواله : و إن امرأً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان ، على اختلاف أهوائهم و بغيتهم لكل ما ورد عليهم ؛ فإن قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه وترى تغييره ، قلنا : إن الروافض ليست منا بسبيل ، لأن من كان أذانه غير أذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجه غير حجنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا ، و إمامه غير إمامنا ، وقراءته غير قراءتنا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا . فلا نحن منه ولا هو منا .

فنه :

سئل الجاحظ مرة ما تأويل هـذه الآية (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) فقال : تأويلها تلاوتها . ونحن إذا سئلنا ما هى الصنعة أو التثقيف أو الفن فى كلام الجاحظ نقول : تدبروا كلامه تدركوا مبلغه من الصنعة . وإذا كان لا بد من تحليل صنعته نقول : كان اتساع أبى عثمان فى اللغة لا يشبه اتساع اللغويين ، استبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره ، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح فى الأدب ، وطوائف تصلح فى الزراعة ، وأخرى للصناعات وأعمال الحياة ، وغيرها للدينيات ومطالب العقبى ، عدا ما خص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لـكل شأن . كان جدّ عارف بمـا يختار ويطرح ، يقدر اللفظة بجَرْسها ورنتها ، وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ، ويميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة من الوحشية ، فيختار ما يؤدى جملته حق الأداء ؛ فإبداعه فى فنه يرجع أولا إلى ما يختار من الألفـاظ . كان نحاتاً وبناء فى آن واحد : يجوّد نحت أحجاره ، ويحسن رصفها فى البناء ، والمهارة كل المهارة فى إبراز المتماثل من المواد إلى جانب ما يوائمها ، وقد يستجيد البانى أجمل الأحجار لبنائه ، فإذا لم يحسن الهندسة فقد البناء روعته المشعرة بأن البانى عليم بالجمال . يقول العسكرى : « إن المعانى مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسُّوقى والنبَّطى والزنجى ، وإنمـا تتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

أعظم ما تدور حوله صـنعة الجاحظ إذاً لباقة فى تصيده من بحر اللغة المتلاطمة أمواجه فى صدره . هو لم يستعمل إلا ما عذب فى المذاق ، وحلا فى

السمع ، وما تحذلق قط فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعانى ، وما عمد إلى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً أن يتخير ألفاظاً لمعانيه ، لا معانى لألفاظه . يسير مع الطبع ، ولا يتكلف السجع ، ويكتفى منه بما جاء عفواً فى الأحايين ، متجافياً عن خشونة التعمل ، ووعوثة[1] التعقيد ، وآية صنعته ولوعه بتصوير المعانى ، وتقريبها من الأذهان ليخرج التالى بشىء يبقى فى نفسه . إذا عرفنا كل هـــذا كشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه فى إبداعه وفنه .

وقد أفصح عن صنعته بقوله : « ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال[2] ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم يَنَلْ طائلا[3] ، وشق عليـه النزوع[4] ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة . والوجه الصار أن يحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يود أن يعد لتلك الألفاظ قَسْمها من المعانى ، فهذا لا يكون الا بخيلا فقيراً ، وحائفاً سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، منقطع النظام ، فإذا مر كلامه بنُقّاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه . ثم اعلم أن الاستكراه فى كل شىء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الظرف أسمج ، وفى البـلاغة أقبح ، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة فى نفسه ، ولم تكن مخلدة فى كتبه ، وخير الـكتب

---

(١) وعث الطريق : كسمع وكرم تعسر سلوكه ، والوعث المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر .

(٢) الوكال : هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالا إذا اتكل بعضهم على بعض .

(٣) الطول و طائل والطائلة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .

(٤) النزوع : التشبه .

ما إذا أعدت النظر فيه زادك فى حسنه » . ومعنى قوله هذا أن خير الـكتّاب ، من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ، ليكرهها على الاندماج فى تراكيبه ، ومن لا يستعمل من الألفاظ إلا السهل ، حتى يحوز رضا النقاد ، وأن يجعل تصفحه لدواوين المعانى لا لدواوين الألفاظ « وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى » عشقاً للفظ الذى يريد إقحامه . ولعل السبب فى أنه لم يأت من اللغويين كتاب عظماء كونهم حصروا أذهانهم فى الألفاظ ، وما عبأوا بمواطن الاستعمال ، ملأوا حافظتهم بالجيد والردىء ، وعدوه كله من الجيد ، لأنه كان من محفوظهم ، فإذا جاءوا ينشئون استعملوا كل ما وجدوا أمامهم أو ذكروه ، فقصروا فى البيان ، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغاء .

وفى نظره « ليس الـكتاب إلى شىء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفِلة[1] والحشوة ، ويحطه من غريب الأعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه ويروّقه ، حتى لا ينطق إلا بلباب اللب ، وباللفظ الذى قد حذَفَ فضوله ، وتعرّفه وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شَوْب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه ، إلا بأن يُجدِّ لهم إفهاماً ، مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا أن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

فالطريقة عنده إذاً ألا يكثر المنشئ من التصفية والترويق فى الألفاظ ، ولا يرسل كلامه فى الناس ، مفتوناً بما جادت به قريحته بادئ الرأى . هو يريد التنقيح ، ولـكنه لا يوصى بالإكثار منه ، لأن فى التعمق الزلل . ولما كان

(١) سفلة الناس (بكسر السين) كفرحة : وأسافلهم وغوغاؤهم .

على علم بأن « فتنة الرجل بشعره ، وفتنته بكلامه وكتبه ، فوق فتنته بجميع نعمته » أوصى من يكتب كتاباً « أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له » قال أبو زيد البلخى ما أحسن ما قال الجاحظ : « عقل المنشئ مشغول ، وعقل المتصفح فارغ » قال أبو عثمان: « ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ولا يرضى بالرأى الفطير ، فإن لابتداء الكتب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طبعه فى السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب » . دلّ الكاتبَ بهذا على الوقت المناسب لإعادة النظر فيما كتب . أما هو فكان يحسن اختيار الزمن ليبرز كلامه فى قوالبه المعهودة إحسانه اختيار موضوعه . وقد حكى تلميذه المبرّد عنه قال : رأيت الجاحظ يكتب شيئاً فتبسم ، فقلت : ما يضحكك ؟ قال : إذا لم يكن القرطاس صافياً ، والمداد نامياً ، والعلم مواتياً ، والقلب خالياً ، فلا عليك أن تكون غائباً . وهذا الكلام لا يصدر عن غير متفنن ، ومن عيار الجاحظ ، ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية ، تبسم وتغازل وترقص وتغنى .

قال الجاحظ : « وليس فى الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط فى شعره وفى ولده ، إلا أن الناس فى ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل فى استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ، ومن إعادة النظر والتهمة ، إلى أضعاف ما يحتاج إليه فى سائر ذلك » .

وانظر إليه بعد هذا يصور لك كاتباً « خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من صناعته » ويقول : إن « صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أن الصواب فى الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة ، فزاد فى غضبه ، فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يبتدئ الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين ويكتب عشرة » .

بهذا تمت مزية الجاحظ من الصنعة مقرونة إلى موهبة الفطرة المفطور عليها : لا يطيل كلامه ولا يختزله ، ولا يرسله حالا ، يسيل سيلا ، بل ينظر فيه إذا خلا بنفسه ، فيحذف فضوله ، وإذا أضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعانى الصريحة ، كان فى ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة . انظره مثلاً فى كلامه على الخصاء فى الإنسان كيف يعبر فى جملة قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة ، ويقول فى سهولة وتهكم : « وكل خصاء فى الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم ، ومن العجيب أنهم نَصارى ، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد ، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف » فبهذا الإيجاز واللفظ المنتقى ، صوّر المعنى الذى يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة ، وقال إنهم المنفردون بين الأُمم فى ارتكاب هذه الكبيرة .

وشرح هذه العادة فى الرد على الروم بقوله : ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم ، أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المُثلة ، وأعظم ما ركبه الإنسان ، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم ، ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة ، وهم فى

غيرهما قليل وأقل قليل ، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم ، ولا كان سبب فى ذلك غيرهم ...

لا جرم أن فن الجاحظ بحسن تصويره ، لا يترك مجالا لأن يدعى عليه القارئ أقل قصور ، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة ، وقد يبسطها أو يقبضها ، ويصوّر بالإشارة ، وبالشاهد والواقع ، حتى لا تخرج من كلامه إلا وقد وعيت أموراً تخيل إليك أنك سُحرت ، لما عمُر به صدرك وقلبك بما أملى عليك . ومن أهم ما فى الجاحظ من صنعة أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات ، لا يأْخذ منها إلا بقدر معلوم عند الحاجة ، لأن صفاء ديباجته ، ونصاعة معانيه ، لا يحوجانه إلى الاستعانة بما يبرقش به جمله . والقوىّ فى امتلاك ناصية الكلام فى غُنْية عن هذه التهاويل والزخرف[1] . والطلاء ينْصُل ، وإن حَسُن فى العين للنظرة الأولى ، والعبرة بما تحته من التقاطيع والقسامة . وليس معنى هذا أنه أسقط الكناية والاستعارة والمجاز والتمثيل جملة ، فإنها الأقطاب التى تدور البلاغة عليها كما قال عبد القاهر ، وهى التى نوه بذكرها البلغاء ، ورفع من أقدارها العلماء ، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم مفرداً خصوصًا الاستعارة والمجاز . وخَصلة أخرى وهى أن الجاحظ ليس من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق ، هو خليق أن يعدّ فى جماعة المحسوسات أرباب الفلسفة الحسية ، ولذلك كان تبريزه فى النثر . أما شعره فلا يتعدى حدَّ الحكاية ، وتصوير حال وحَدَث ، وطالما تناشده وتذوقه .

للجاحظ فصول كثيرة تحله المحل الأرفع من الإبداع فى تصويره ، ومقامه

(١) الزخرف بالضم : الذهب وكمال حسن الشىء ومن القول حسنه بترقيش الكذب ومن الأرض ألوان نباتها ، والتهاويل الألوان المختلفة ، وزينة التصاوير والنقوش والحلى .

فهو وصفه لا يقلّ عن مقامه في الحكاية والرواية . انظر إلى حكاياته ورواياته في كتاب البخلاء ، وأمعن النظر فقط في أقوال الكندى ، وحِيَل من يستأجرون الدور وأخلاقهم وتلاعبهم ، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة في شؤون الحياة . وانظره في رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه ، يدلى إليك بحججه في المدح ، وحججه في الذم ، ثم يحكى لك ولا يبالى أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة ، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن ، ويشدُّوا من مَتْنهم بالشراب الذى إذا وقع فى الجوف حرّك الدم ، وإذا حرّك الدم حرك طباع السرور ، ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم ، زائداً في الحركة المولّدة للسرور قال : « هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم ، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه » . تأمل قوله جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه ، فإن فيه صنعة ، وينطوى على معان كثيرة .

كتب رسالة النبيذ إلى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال في مدح النبيذ انه « إذا تمشى في عظامك ، والتبس بأجزائك ، ودب في جنانك ، مَنَحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخى البال ، خليّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهمّ ، حسن الظن ، ثم سد عليك أبواب التهم ، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، وألم الشفقة ، وخوف الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطلب ، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، وأخل بالنعمة ، وهو الذى يرد الشيوخ في طبائع الشبان ، ويرد الشبان في نشاط الصبيان ، وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ، ومجاوزة الأشر إلى البطر ، ولو لم يكن من أياديه ومننه ، ومن جميل آلائه ونعمه . إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك ، وتزاوج بينه وبين

دمك ، فقد أعفاك من الجد ونصبه ، وحبب إليك المزاح والفكاهة ، وبغّض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد الحشمة ، وكد المروءة ، وصار يومه جَماماً لأيام الفكرة ، وتسهيلاً لمعاودة الروية ، لكان فى ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر » ، وبالفن الذى حواه هذا الكلام حبب تعاطى النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه !

وأنت إذا نظرت إلى رسالته فى القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن تكاد تبصره بعينك ، وإذا عرّض للقبيح ينفرك منه أى نفور . ألا تعجب منه إذا تلوت فيه أسطراً قليلة فى وصف حال المغنية فى عصره إذ يقول : « وكيف تسلم القَيْنة من الفتنة . أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشإ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها ، بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخابيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلة جِدّ ، ولا يَرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة . العشق والصبوة ، والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها . منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[1] ، وإنشادهم مراودة ، وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها ، لأنها إن جفتها تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ،

(١) التجميش كالجمش : المغازلة والملاعبة والمطارحون من يعلمون الغناء يقال طرحت عليه المسألة وطارحته العلم والغناء وتطارحناه .

وإن لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نقصان أقرب ، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها ، فهى لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها . وإن ثبتت حجة أبى الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن ُبلى بمجالستها عليه وعليها » .

ألست تلمس فى مفردات هـذا الكلام ومركباته فن الجاحظ ، تأمل قوله : « إن جفتهـا تفلتت وإن أهملتها نقصت » وقوله : « تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة » وقوله : « وكل واقف فإلى نقصان أقرب » ، ونحن إذا أكثرنا من إيراد الشواهد من أقوال أبى عثمان ، فذلك لنخرج منها بدليل حسى نسقط به حجة خصومه فى دعواهم أنه كان يقول الشىء ونقيضه ، على أن هذا أيضاً ضرب من البلاغة ، وأسلوب من أساليب الصنعة ، ولا يتيسر مثله لغير أفراد فى البلغاء ، فقد يوفى الكاتب موضوعه عند نفسـه ، ويلوّنه للوصول إلى تعريفه ألواناً مُغْرية ، ولـكنه قد لا يرضى غيره ولا يبلغ حاجته لأمور تنقصه .

استمع للجاحظ قطعة أخرى ينفض إليك فيهـا جمـلة حال النساك ويصنف لك طبقاتهم ، ويصف لك الدواعى التى أهابت بهم إلى التنسك المصنع ، فتركوا الكدح فى الحياة ، ورضوا أن يكونوا حلمة طفيلية تمتص رزق غيرها قال : « وجدنا لجميع أهل النقص ، ولأهل كل صنف منهم نسكا يعتمدون عليه فى الأعمال ، ويحتسبون به فى الطاعة وطلب المثوبة ، ويفزعون إليه على قدر فساد الطباع ، وضعف الأصل ، واضطراب الفرع ، مع خبث المنشإ ،

وقلة التثبت والتوقف ، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر ، فنسكُ المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمى الناس بالريبة ، ويتزين بإضافة ما يجد فى نفسه إلى خصمه ، خوفاً من أن يكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداء برمى الناس به ، ونسكُ الخارجى الذى يتحلى به ويتزيا بجماله ، إظهار استعظام المعاصى ، ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار ، وإلى ظلم العباد ، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين ، وأن فى الحق ما وسع الجميع ، ونسكُ الخراسانى أن يحج وينام على قفاه ، ويفقد الرياسة ويتهيأ للشهادة ، ويبسط لسانه بالحسبة . وقد قالوا إذا نَسَكَ الشريف تواضع ، وإذا نسك الوضيع تكبر ، وتفسيره قريب واضح . ونسك الكوفى والجندى طرح الديوان وزيارة السلطان ، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ، ونسكُ الحمى لزوم طرسوس ، وإظهار مجاهدة الروم ، ونسك الرافضى ترك النبيذ ، ونسك البستانى ترك سرقة الثمر ، ونسك المغنى الصلاة فى الجماعة ، وكثرة التسبيح والصلاة على النبى ، ونسكُ اليهودى التشدد فى السبت وإقامته ، والصوفى إظهار النسك بين المسلمين إذا كان فَسْلا[1] ببعض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً ، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له . وإذا كان النصرانى فسلاً نذلاً مبغضاً للعمل ترهّب ولبس الصوف ، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيا بذلك الزيّ وتحلى بذلك اللباس ، وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بأن رَبِح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة . وإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حوّل ريبته إلى خصمه ، وحوّل براءة خصمه إليه ؟ وإذا صار كل واحد من هـذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد

---

(١) الفسل : الرذل الذى لا مروءة له كالمفسول ج أفسل وفسول .

بلغ الأمنية ووقف على النهاية ، فاحذر أن تكون منهم » .

وزاد فى مكان آخر ذاكراً الدواعى التى دعت الخصيان إلى التنسك ، فقال : « إن نسك الخصى غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه ، وقال إن نسكَ المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصى ، وأن يرمى الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة ، يريد أن يوهم أموراً منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه ، ومنها أن يقال لو كان نَطِفاً[1] أو مرتاباً أو مجتنحاً[2] على بلية ، لما رمى الناس ولرضى منهم بالسلامة ، وما كان ليرميهم إلا للعز الذى فى قلبه ، ولو كان هناك من ذل الريبة شىء لقطعه ذلك عن التعرض لهم ، أو التنبيه على ما عسى أن حركهم له أن يتحركوا ، ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر » .

أرأيتم أبا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله « فاحذر أن تكون منهم » يأتى بها بعد أن وصف النساك ووصف سخفهم ومضرتهم ، وبعد أن ثلبهم وأسقطهم حذر منهم . أسمعتموه يقول « ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر » والمتكلمون هنا رجال الدين ؛ ولِمَ لا يكره النساكَ ويدعو الناس إلى كراهتهم وهو الذى لا يقول بغير العمل فى المجتمع البشرى ؟ ومن مذهبه أن البارئ تعالى منح عبده عقلاً وعرفه طرق الخير والشر وهو مسؤول عن عمله ؛ ولعلك أدركت أيضاً أن خطاب الجاحظ فى النسك كان موجهاً لكل من يقرأ كلامه عربيًا كان أم أعجميًا ، مسلماً كان أم كتابيًا ، موافقاً كان أم مخالفاً . لأن الكاتب كاره للنساك على هذا الوجه مهما كانت صورتهم

---

(١) النطف المتهم بريبة والفاسد .

(٢) يجتنح عليه يعتمد .

ونحلتهم ، يعتقد المضارّ التى يجلبونها على المجتمع الإنسانى عامة ؛ وكلام الجاحظ فيهم يبقى فى نفسك أثراً إذا تدبرته ، وهذا من صنعته وفنه ، ويد صَنَاع كيده لا تجرى فى غير إبداع ، فقد عقد فصلاً فى الشعر يكثر ويقل فى القبيل الواحد لدواع وبواعث ، لا لمكان الخصب من أرضهم ، ولا لأنهم أهل مدر أو كالو تمر ، وقد يكون غذاء بعضهم رديئاً ويأتى فيهم الشاعر « وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها » ، وقد ختم كلامه بقوله : « وما أعلم فى الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً » .

وكذلك تأمل صنعته فى إبانته عن رأيه فى عدم تغليظ حجاب النساء : « ثم لم يزل الملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ... ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنّ وأشدّ ما يتزيّن به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب ... والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهى شابة لم يحلّ إذا غنت ، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حدّ الغَيْرة ، إلى سوء الخلق وضيق العطَن[1] ، فصار عندهم كالحق الواجب » تدبر قوله ولكنه أفرط فيه الخ ، فإن فيه صنعة ؛ وكذلك قوله فى كتاب النساء : ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، أن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا أناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام ، إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ،

(١) يعنى : فلان واسع العطن إذا كان رحب الذراع .

فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجَلد وقوة المُنَّة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لامَتِه وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخَوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب . قال : ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة فى جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغى لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم . انظر أيضاً هذه الجملة بل مجموع العبارة ألا ترى فيه جنساً من الكلام لا يحسنه كل إنسان .

دع هذا واستمع إلى أبى عثمان يكتب فى رسالته التبصر بالتجارة : « كل ثوب من اللباس والفرش ، إذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع ، وكل عِلق من الجواهر والأحجار ، إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس ، وكل حيوان من الوحشية والأهلية ، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر ، وكل إنسان من الشريف والوضيع ، إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل ، وكل امرأة حرّة أو أمة ، إذا كانت أكثر سكوناً ، وأجمل حالا ، وأنزر طمعاً ، وأشكر للناس فهى أصون ، وكل طير من السهلية والجبلية ، إذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد ، إذا كان أزكى وأجلّ فهو أهنأ ، وكل عدو صغير أو كبير ، إذا كان حمياً فهو أعدى وأشد حسداً ، ومن لم يعرف مأواه فمحذور قربه » تأمل هذه القوانين التى لا تتخلف ، وأنعم النظر فى قوله : « من لم يعرف مأواه فمحذور قربه » . أما هو من شريف القول الذى يستسيغه كل أحد ويذهب فى تأويله مذاهب ؟ ثم تراه فى هـذا الفصل يعود فيقول : والدول تنتقل ، والأرزاق مقسومة ، فأجملوا فى الطلب ، وارحموا المسكين ، واعطفوا على الضعيف ، تجازوا به وتثابوا ،

والقضاء جالب يجلب الأمور ، وخير النوم ما يذهب الإعياء والكسل . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس ، جودة الشيء بالنظر أن يكون حسناً رائقاً ، و بالخيشوم إذا كان طيباً أرِجا ، و بالمذاق إذا كان حلواً عذباً ، و بالسمع أن يكون صافى الوقع والصوت ، و باللمس أن يكون ليناً ناعماً . وكانت العجم تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان . . . وزعم سابور الملك أنه ليس ينبغى للعاقل أن يعتد بقول سبعة من الناس : بقول السكران والدّلال والمضحك والعليل والعرّاف والنمام والنساء .

الجاحظ متعة النفس فى صنعته ، كيف قلّب يراعته فكتب ، وريحانة الأنس إذا جد وهزل ، تتجلى صنعته فى وصفه و روايته وحكايته ، وفى جدله وتقريره ، وفى تحقيقه ونقله ، وتطلُّ الأنفس على روحه من كل باب ، وحيث تقلبتَ فى رياض كلامه تشرف على ألوان الإحسان ، ويأسر عقلك إذا طالت عشرتك له فتستسلم إليه مؤمناً ، و إن كنت من ضعاف الإيمان فيما يحاول سوقك إليه ، واستتباعك فيه .

ونختم هذا بفصل صغير رسم فيه الجاحظ صورة أخرى من صُوَر صنعته ، فى موضوع جدّ ألبسه صورة الهزل وهو فى وصف الذباب ينال من قاضى البصرة ، ووصفه فى الحق « نهاية الفصاحة والاتساع » . قال : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار . لم ير الناس حاكما زميتاً [1] ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ ،

(١) الزميت : الوقور وكالسكيت أوقر منه .

فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يَحلُّ حبوته ، ولا يُحلُّ[1] رجلا على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقى عليه شىء من قراءة العهود والشروط[2] والوثائق ، ثم يصلى العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعانى الكثيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم (فى مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين[3] يديه . سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضّن وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن

(١) فى رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) فى رواية من قراءة السجلات .

(٣) فى رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم .

جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان ، كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، وألحّ فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره و بلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبّ عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، قال : واستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أنى ، عند نفسى وعند الناس ، من أرزن الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ، ولا فى تعريض أصحابه المنالة » .

ولا ينقص هذه الصورة البديعة إلا أن يمسك الجاحظ بريشة المصور ، و يعمد إلى أصباغه وليقته ، ليصور القاضى بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه ولحيته وسَبَلاته و يديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أو دنيته وجبته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه ، ليضيف إلى صورته صورة أخرى . صوّر قاضى البصرة صورة لا يصل إليها المصور المبدع ، صور لنا معنوياته ساعة سطا عليه

الثياب ، وصور ما يدر منه ، وما انطوى عليه من وقار فى جميع حالاته ، ثم أثنى على حسن سيرته وقلة فضوله ، فى جد كان الهزل فى معانيه و إشاراته ، لا فى ألفاظه ورصفها .

تقرينا جمال فن الجاحظ واستجليناه يتناول كل موضوع من عامة أطرافه ، لا يبقى حاجة فى نفس سامع وتالٍ ، شهدناه مهما تعنت متعنت من جهابذة النقد يستحيل عليه أن يقول إنه قال كذا ، وكان الأولى أن يقول كذا ، وهذا من بعد مرماه فى الصنعة .

علم وبحث :

تقدم أن الجاحظ لم تقف معارفه عند حد المنقول ، وأنه تعداها إلى الأخذ من كل معقول ، وأن العلوم التى اتجهت إليها همته ، أحذقته فأخرجت منه عالماً فوق العلماء ، ولم يكن صَحَفيا يأخذ من الكتب ما اتفق ، بل كان نظاراً محققاً يدرس الأشياء ، و يقتلها بحثاً وتنقيباً . كان منهاجه فى العلم مطولا واسعاً ، وهو فى كل ما خاض عبابه إخصائى وأعظم من كل إخصائى . يتناول كل ما يقع عليه الحس ، وتنظره العين ، وتتشوف إليه النفس . وليس نظره فى كل ما عانى النظر المجرد ، بل نظر « الفلسفة والغرائب التى صححتها التجربة ، وأبرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان . » لا تراه وهو يفكر فيجيد التفكير ، و يبحث فيكشف عن الحقائق ، إلا داعياً إلى استعمال العقل ، وتجويد التفكير ، لأن « مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة » وفى التفكير « مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوى الغفلة ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح فى الصدور ، وعزاء فى النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذو العقل » .

قال : « إن كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصمّ » .

قال : « والذى صير الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً) ليس هو الصورة ، وأنه خلقه من نطفة ، وأن أباه خُلق من تراب ، وأنه يمشى على رجليه ، و يتناول حوائجه بيديه ، لأن هذه الخصال كلها مجموعة فى البله والمجانين ، والأطفال والمنقوصين ، والفرق الذى هو الفرق ، إنما هو الاستطاعة ، والتمكن من وجوه الاستطاعة ، وجودة العقل والمعرفة ، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه ؟ فلم أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر ؟ ولِمَ أعطاه المعرفة إلا ليؤثر الحق على هواه ؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة ؟ » .

وحذر المرء من الاغترار بما ألف وبما يعرض لقلبه بادئ الرأى . ورأى « أن الناس يحتاجون إلى طبيعة ، ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف ، وأول ما يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ، أن لا يعطى نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما ، أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب » . وقال : « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور

حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة » .

« ولعمرى إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس » .

دعا إلى التفكر ودعا إلى الملاحظة ، قائلا « لا تشفيني إلا الملاحظة » ودعا إلى الشك ؛ ومن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة كما قال الغزالى . أما هو فيقول : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذلك إلا تعرّف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف » . وقبله قال شيخه النظام : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

ومع اعتقاده بما يكشفه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه ، قال : « ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً على المعانى ، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك » . وقال : « والإنسان وإن أُضيف إلى الكمال ، وعرف بالبلاغة ، وفاتش العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل بحاث واعٍ ، وكل نقّاب فى البلاد ودراسة للكتب ، وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء . وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ،

وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق فى بلوغه أعجز » . قال لو كان الأمر « على ما يشتهيه الغرير[1] ، والجاهل بعواقب الأمور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » .

أهاب بالنفوس أن لا تغتر بما ألفت وسمعت ، وأن لا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها ، وحبب التكشيف والتنقيب ، ودعا إلى العقل فى النطاق الذى يتأتى الخوض فيه قائلاً : « وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه ، وتقفوا عنده ، وهو ما يضع الخبر السابق إلى السمع ، ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيئاً ، وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى إزالته » . وقال : « إن الناس قد استغنوا عن التدبر ، وكفوا مؤونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فصله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العزّ ، ولا سرور الظفر ، ولا رَوْح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن » .

كان إذا رأى أن « ليس إلى رد الخبر سبيل لمواترته ومرادفته ، ولأن العيان قد حققه ، والتجربة قد ضمت إليه » زاد اعتقاداً فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره . ويريد الناس أبداً أن يجربوا بأنفسهم فقد ذكر عند

(١) الغرير المخدوع أو الشاب لا تجربة له .

كلامه على أقوال العلماء أن عرق الخال أنزع من عرق العم ، وأن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر ، وأنها على الشبه أغلب — أن أكثر ما تلد الأمهات الأناث ، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال : فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر رجالهم أو نساؤهم .

ونبّه أرباب العقول إلى من يعبث بها ، فقال : « وقد ابتلينا بضربين من الناس ، ودعواها كبيرة ، أحدهما أن يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف ، لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث فى السمين ، والممكن فى الممتنع ، ويتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم ، إلا من خَاف التقذر[1] من الكذب » . وقال فى التحذير من صنف من هذه الأصناف المضرة : « وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ، ويتهمون الكتب ، وتضرهم كثرة أتباعهم ، ممن تجده مُسْتَهْتَراً بسماع الغريب ، ومغرماً بالطرائف والبدائع ، ولو أعطوا بدلاً من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت ، وحظاً من التوقى ، لسلمت الكتب من كثير من الفساد » .

ويحذركَ جهرة من تخريف المخرفين من العوام ، والمصلاين ممن كان بسبياهم من الخواص ، لأن فى الخواص دجالين أيضاً ، وإن كانوا مؤلفين ومشهورين ، قال إنهم « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة ، ومن الدليل على نذالة طبعهم ، والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم

(١) التقذر : الاجتناب من قذر الشىء كرهه واجتنبه .

بالعلم لمن لا يعرفونه » . وهو يرى بعض الخواص أضرّ على سير العقل من العوام ، ولطالما حزّت بلاهة الخواص فى قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، و يبين مناشئ المضعوف من رواياتهم ويعلم « أن الناس موكلون بحكاية كل غريب ، وميسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم إليه » ، « وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة[1] جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس إلاّ لا أو نعم . إلا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزل الحق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » .

وعال التخريف فى الناس ، وفشو الجهل فيهم بقوله : « الناس لم يؤتوا فى اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس تأس وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء ، و يعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق إلى القلوب ، و يستثقلون التحصيل ، و يهملون النظر ، حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه ، نظروا بأبصار كليلة ، وأذهان مدخولة[2] ، مع سوء عادة ، والنفس لا تجيب إذا كانت مستكرهة ، وكان يقال الطبع إذا كره عمَى ، ومتى عمى الطبع جسا[3] وغلظ وأهمل ، حتى يألف الجهل ، ولم يكن يفهم ما عليه وله » . فهو من هذا النظر يربأ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم ، ويريده أبداً على أن ينظر بعقله ، و يستثبت الأخبار ، ولا يستمع لنقلة

---

(١) الحكومة : القضاء .

(٢) المدخول : المهزول ومن فى عقله دخل ، ونخلة مدخولة عفنة .

(٣) جسا كدعا جسواً صلب وجاسأه عاداه .

الغرائب منها ، وأن يستند أبداً على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع عللها و برهاناتها ، يريده على أن يلاحظ ويتدبر و يحس ، ويكون فى حسه صادقاً حازماً ، لا يمتهن شيئاً فى عالم الكون والفساد ، يهتم للذرة كما يهتم للدُّرة ويقول : « أوصيك أيها القارئ المتفهم ، وأيها المستمع المنصت المتصفح ، أن لا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه ، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله » .

فكأن الفيلسوف ديكارت فى القرن السابع عشر — وكان يقول بعدم التسليم بشىء إلا بعد فحصه بنور العقل وتحقق وجوده ، و برفض كل ما قام على الظن والتخمين ، وما ألفته العادة وأتى من العُرف — كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته فى هذا الشأن ، ونغمتهما فى هذا المعنى متشابهة ، كأن الواحدة متممة للأخرى ، أو الأخرى أخذت عن الأولى .

وكأن الجاحظ وهو يدعوك إلى الاستنباط لا إلى الحفظ والاستظهار يقول برأى أحدث علماء التربية من أهل الحضارة اليوم ، وعبارته : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، و إغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا الحفظ عذق الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود ، أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ » .

الجاحظ يردم المنافذ التى تتسرب منها الجهالات ، وينحى على من يضال الناس ، و يبيع منهم سلعاً فاسدة . وقد بلغ من حريته فى البحث ، وغيرته على

العلم ، و بعد نظره فى المسائل ، أن ردّ على شيخه النظام وقال إن عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض ، والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه . وقال مرة فى شيخه الآخر أبى عبيدة : « ولولا أن أكون عياباً ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من أبى عبيـدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة » . ويلوم من ينقلون الأخبار بدون نقد ، وممن لامهم على ذلك ، أبو زيد الأنصارى ، وثقه من جهة وأنكر عليه من أخرى تساهله فى التعليق على الروايات المدخولة . فهو يرى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار ، ولا كبير عنده أمام النقد ، وفى ميدان الجدال و إحقاق الحق ، قال فى رجل نظر بعض النظر تصويب العلمـاء لبعض الشكاك حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب إنه « مات ولم يخلف عقباً ، ولا واحداً يدين بدينه ، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت ، ولـكنى على حال أكره التنويه بذكر من تحرم بحرمة الـكلام ، وشارك المتكلمين فى أسماء الصناعة ، ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة » .

وقال مرة : « ورأينا أقواماً يدعون فى كتبهم الغرائب الـكثيرة والأمور البديعة ، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم ، و يعرضون بأقدارهم ، و يسلطون السفهاء على أعراضهم ، ويجرون سوء الظن إلى أخبارهم ، ويحكمون حساد النعم فى كتبهم ، ويمكنون لهم من مقاليدهم ، وبعضهم ينظر على حسن الظن بهم ، أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم ، وأحسنهم حالاً من يحب أن يتفضل عليه ببسط العذرله ، ويتكلف الاحتجاج عنه ، ولا ينافى أن يمنّ بذلك على عقبه ،

أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه » .

وناقش غير مرة أرسطو فى كتاب الحيوان ورد عليه فى بعض استقراءاته وقال فيه : « وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثوراً سَفِد وألقح من ساعته بعد أن خُصى » قال : « فإذا أفرط المادح فى المدح ، وخرج من المقدار ، وأفرط المتعجب فى التعجب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذى لم يكذب مثله ، و إلا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا بدل حركتهم خبراً وحكاية ، وتبرأوا عن عينه ما ضرّهم ذلك ، ولكان أصون لأقدارهم وأتم لمروآت كتبهم » . ورد عليه دعواه فى أن إناث العصافير أطول أعماراً ، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة . ورد عليه زعمه أن فى بلدة طبقون[1] حية صغيرة شديدة اللذع ، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، فقال لم أفهم هذا ولم كان ؟ وردّ عليه زعمه أن الطير الكبير الذى يسمى باليونانية اعيتوليس يجلب الدارصينى[2] من موضعه فيفرش به عشه فقال : « لست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر الدارصينى ، و إن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائراً ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس أو بالين فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصينى وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الأوابد ، و إن كان من القواطع[3] ، فكيف يقطع

---

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التى فيها الايوان على ثلاثة فراسخ من بغداد وطيسفون أيضاً قرية بمرو أما طيمون أو طيقون فلم نجد لها ذكراً .

(٢) الدارصينى : شجر هندى يكون بتخوم الصين كالرمان معرب دارچينى أى شجرة الصين .

(٣) قال أبو زيد الأنصارى : إذا كان الشتاء قطعت إلينا الطير والغربان (أى جاءت) من بلادها فهى قواطع وإذا كان الصيف رجعت فيه فهى رواجع ، والطير التى تقيم بأرضنا صيفاً وشتاء أوابد .

الصحصحان[1] الأملس و بطون الأودية وهضاب[2] الجبال ، بالتدويم فى الجواء والمضىّ على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه ، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل ، وليس بالوطىء الوثير ، ولا هو له بطعام . فأنا و إن كنت لا أعرف العلة ، فاست أنكر الأمور من هذه الجهة فأنكر هذا » . والجاحظ ينظر إلى الحيوان فى تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها و إطعامها من لبن أو لعاب أو نبات أو غير ذلك ، و يعرف تأثره بالحر والبرد وبالشمس والظل ، وحَذَره من الآدميين إلى غير ذلك ، فكيف يجوز له عقله أن يقطع ذاك الطير ألوفاً من الأميال ليبنى عشه بمادة ليست له طعاماً ولا هى مما يستلينه ، ما دام عقله رائده الذى لا يكذب ، وخليله بحثه ونظره .

وقال فى رأى أرسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج منْ بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه فى بطنها : « وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ، ولهم أسنان نابتة كالذى رووا فى شأن مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله الأهتم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مُدح بذلك وهجى ، وليس ذلك بالمستنكر ، و إن كنت لم أر قط قابلة تقرُّ بشىء من هذا الباب ، وكذلك الأطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً فى القدرة ولا فى الطبيعة ، وأرى جوازه موهوباً

(١) الصحصح والصحصاح والصحصحان ما استوى من الأرض .

(٢) الهضبة : الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة ج هضب وهضاب وأهاضيب .

غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقبله . وليس فى كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ، ولا يقصر فى شىء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست أبت بإنكاره ، وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر ، والخبر المتظاهر » أى أنه فى هذه المسألة سأل القابلات والأطباء فما صححوا له هـذا الخبر ، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه ، والطبيعة لا تنكره ، والشريعة لا ترده ، وإن كان من الأمور التى لا تعرف بالقياس بل بالعيان .

مثال آخر من نقده العلمى : هزأ ببعض المفسرين فى دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خُلق من عطسة الفيل عند ما زعموا « أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم [1] شكوا ذلك إلى نوح ، فشكى إلى الله تبارك وتعالى ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير ، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو » قال : « وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القصاص » .

مثال غيره : وقد قال الناس فى قوله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصـل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ما عنى إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم ، فقال

---

(١) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، والسلاح كغراب النجو ، وسلح كمنع وأسلح .

أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل لشيء لم نره فنتوهمه ؟ ولا وصف لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف ، صادق اللسان ، بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ... « وكل قول يكذبه العيان ، فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

وبعد فإنك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه فى كتاب الحيوان ، يزيف الخرافات والترهات ، فى عصره وقبل عصره ، ويورد عليك نقداته ومباحثاته ، فيقع فى نفسك أنه لو جاء كثير مثله فى عقلاء العلماء لخات كتب الأقدمين من الإسرائيليات والسخافات ، مما تخيله من دخلوا فى الإسلام حقائق أو رقائق ، وأنه لا يضر الدين إذا جعل على هامشه ، فوسعوا بما وضعوا دائرة الخيالات ، وبهرجوا ديناً ساذجاً ، وما كان ما أدخلوه فيه من أصله ولا من متنه .

ثم تأمل قوله : « رووا عن واثلة إياس بن معاوية ، أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا فى طول ما أكلوا الشبابيط فى جوفها بَيْضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ، ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً ... » ، ومثله قوله فى رد قول العوام فى السكركدن وضربهم المثل به فى الشدة والقوة . قال : وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذى فى وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ولا يحس حتى يتقطع

على الأيام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول فى ولد الكركدن ، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً إلا وهو متطوق بأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلا أنها لا تقتل » ، قال : « ولو كنت أجسر فى كتبى على تكذيب العلماء ، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر » .

ومما قال : « وفى السمندل لآية غريبة ، وصفة عجيبة ، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب ، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشة » . وقال فى مكان آخر : « خبرت عن فأرة البيش[1] واغتذائها السموم ، وعن الطائر الذى يدعى السمندل وطيرانه فى جاحم الأتون ، فلا السم المجهز يضر بتلك الفأرة ، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبه » . وقال : هذا الطائر فى طباعه وفى طباع ريشه مزاج من طلاء التفاطين ، وأظن هذا الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغْرَة . وقد كنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصرانى فى عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التى كان المسيح صُلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكتسب بذلك ، حتى فطن له وعورض بهذا العود . وزعم ثمامة أن الإنسان إن أخذ من هذا الطّحلب الذى يكون على وجه الماء فى مناقع المياه فجففه فى الظل وأحرقه فإنه لا يحترق .

ومما قال : « ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التى لا يجسر عليها إلا كل وَقَاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ليقرأها

(١) البيش بالكسر : نبات كالزنجبيل رطباً ويابساً ، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فأرة البيش ، وهى فأرة تتغذى به والسمانى تتغذى به أيضا ولا تموت ، ودواء المسك يقاومه (القاموس)

الناس ، ويدارس أهل البصرة ويحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . . . . »

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ، ألف فى المعادن والأصباغ كما ألف فى التجارة ، ونقل عن حُنين بن إسحق وبُختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره . وكان يعرف النقص فى كتب الأطباء والعلوم حتى قال : « وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء . فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد فى الأصول التى يبنون عليها من الخلل ما نجد » . وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات توفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات ، ليصدر إذا كتب عن خبرة . وقد ألف فى الأشجار كتاباً قالوا إنه بإمتاعه ككتاب الحيوان . وكان شعاره : « إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة ، فمن أضرّ ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً ، قال : فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

من أجل هذا توسع الجاحظ فى بحثه ، وكان على علمه الفياض يسأل جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد أن يتفهمه ، فيصف الماديات والمحسوسات ، ويسترشد حتى بآراء الحراس ، ويتحدث حتى إلى الحُواة والجزارين وأرباب الصناعات ، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة ، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قبلها عقله ، أو يردها ولا يقرها إذا كانت حديث خرافة . ويتحدث

إلى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » وقد روى أشياء كثيرة عن الأعراب فى البادية وعن العامة فى المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها .

قال فى رسالة « الحنين إلى الأوطان » : رأيت عبداً أسود حبشياً لبنى أسد قدم من شق اليمامة فصار ناطوراً ، وكان وحشاً مجنوناً لطول الغربة مع الإبل ، وكان لا يلقى إلا أكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رآنى سكن إلىّ وسمعته يقول: لعن الله أرضاً ليس بها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حر الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان إن هذا العريب فى جميع الناس كمقدار القرحة فى جلد الفرس ، فلولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم فى حشاة لطمست هذه العجم آثارهم اه . فالجاحظ لم يحتقر هذا الحديث الذى بدر عن لسان عبد مستوحش وأورده مثالاً على موضوعه فى الوحشة التى تعترى النازح عن وطنه . ونحن بهذا الحديث القصير أيضاً أدركنا أن العراق لم يكن تعرّب كله فى طرفى المائة الثانية والثالثة ، وأن أكرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم ، وأن العرب كانوا إلى قلة على كل حال .

ولم نر أبا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الأبحاث مسّ الموضوعات التاريخية بالمعنى الذى بدأ المؤرخون فى عصره يخوضون فيه ، على طريقة الرواية وتصحيح السند . وربما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك فى عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم ، ولا حديث أعدائهم وفتن بلادهم ومشاغبهم ومتاعبهم ومؤامراتهم ودسائسهم ، ولا طبقات الرجال فى موالدهم ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم وأعمارهم وخافوه من مآثرهم . بل كان التاريخ الذى شغل

قلمه وقلبه وصفَ الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف . فهو المؤرخ الاجتماعى فى عصره ، يورد لك من مشاهداته ومروياته ما يوسع أفق نظرك ، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات فى عامة من تألف منهم مجتمعه .

رأى التاريخ السياسى وتاريخ الرجال ضيق المضطَرب ، وقد تسربت إليه أخطاء لا يقرها ، فأرّخ للأمة ، والكلام فيها واسع المجال ، وكما كان فى التاريخ هو فى الفلسفة . قرأ ما كُتب وتُرجم فى عصره ، فما نقل آراء أرسطو مستحسناً لها كلها ، ولا شغف بأفلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان ، بل طبق العلوم المادية وعلوم الحياة والأحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفى . فأخذ من الفلسفة روحها ، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، وبعبارة ثانية أنه كان من أصحاب النظر العملى ، وما تعدى فى الإلٰهيات حيّز المنطق الصحيح ، والمصادر السليمة التى تدعمها الحجة ولا ينكرها إلا مكابر .

يقول لك حيناً : إن « غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كَلِفاً بتعرافها وكان له فى العلم أصل ، وكان بينه وبين التبيين نصيب ، وأكثر الناس لا تجدهم إلا فى حالتين : إعراض عن التبيين ، وإهمال النفس ، وإما فى حالة تكذيب وإنكار ، وتسرع إلى أصحاب الاعتبار ، وتتبع الغرائب ، والرغبة فى الفوائد . ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فوائد ، وأن ذلك من باب التوقى ، وجنس من استعظام الكذب ، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاز الرغبة فى الصدق ، أو تبين الشىء معاندة للإقرار وقهراً بالحق » .

ومن استقرائه العلمى فى الذباب قوله : « وعندنا بالبصرة فى الذباب أعجوبة ، لو كانت بالشامات[1] أو بمصر لأدخلوها فى باب الطِّلسم . وذلك أن التمر يكون

(١) الشامات : بلاد الشام .

مصبوباً فى بيادر التمر فى شق البساتين ، فلا ترى على شىء منها ذبابة ، لا فى الليل ولا فى النهار ، ولا فى البرد ولا فى أنصاف النهار . نعم وقد تكون المعاصر ، ولأصحاب المعاصر ظلال ، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل ، و إنما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ، ثم لا تكاد ترى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، وفى وقت طلب الذبان الكنَّ ، إلا دون ما تراه فى المنزل الموصوف بقلة الذبان . وهـذا شىء يكون موجوداً فى جميع الشق الذى فيـه البساتين . فإن تحول شىء من تلك البادية إلى جميع ما يقابلها فى نواحى البصرة غشيه من الذبان ما عسى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه . وليس بين جزيرة دُبَيْس و بين موضع الذبان إلا فيض البصرة ، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب و بين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان ، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئاً أو أنقص شيئاً .

وأعجو بة أخرى ، وهى عندى أعجب من كل شىء صدَّرنا به جملة القول فى الذباب . فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط ، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور ، والآخر لا يزال ينتقل فى زوايا بيته ، ولا يأْخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار ما يشبه بالليف ، فنعشه ثم فتل منه حبلا ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتخذ عشه فيه ، و يأوى إليه مخافة على نفسه » .

* * *

كأن الجاحظ كان كالطائر يتنقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حديقة إلى حديقة ، يلتقط الزهرة والحبة ، ومن كان يظن أن الرجل الذى يؤلف فى علوم الدين والجدل والرد على المخالفين ، وهو فى أصله إمام دينى وصاحب مذهب وعَلَم من أعلام الشريعة — من كان يظن أنه يؤلف فى الحيوان وفى الزرع وفى الشجر والنخل ، وفى كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية — من كان يظن أن للجاحظ كتاباً فى الأمصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه ، رآه المسعودى ووصفه بأنه فى نهاية الحسن ، قال : « وإن كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ولا تقرا[1] الممالك والأمصار . » ثم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودى ، واقتصر على الرحلة فى أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم وبلاد العرب فقط ، وليس من الميسور لكل إنسان فى دهره أن يطوف الأرض ، فإن هذا ما كان يتيسر إلا للفرد بعد الفرد ، وفى العصر بعد العصر .

وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيرها فى الطباع والأجسام ، ووصف تأثير الهواء فى الإنسان والحيوان فى حرّة بنى سُلَيْم ، فقال بتأثير البيئة فى الكائنات الحية . فإن كان وصفه الأمصار فى جغرافيته كوصفه أهل الأهواز ، وهو ما نعتقده ، فإنه من أحسن ما كتب فى الجغرافية الإنسانية والطبيعية والوصفية . قال فى الأهواز : « إنها قلبت كل من نزلها من بنى هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم ، ولابد للهاشمى قبيح الوجه كان أو حسناً ، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش

---

(١) يقال قرى الأمر وتقراه تتبعه وقروت البلاد قروا تتبعتها أرضا أرضا وسرت فيها كاقتريتها واستقريتها وتقريتها . وقال اللحيانى قروت الأرض سرت فيها ، وهو أن تمر بالمكان ثم تجوزه إلى غيره ثم إلى موضع آخر . وقال الأصمعى : قروت الأرض إذا تتبعت ناسا بعد ناس .

وجميع العرب . فلقد كانت البلدة تنقل ذلك فتبدله . ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه ، وتبين أثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها فى سائر الأجناس ، ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، والمال مَنْبَهَة كما تعلمون ؛ وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى للسانه بمثل الذى كان يرضاه قبل ذلك . وليس فى الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود لهم فى شىء منه نصيب وإن حَسُن . ولم أر بها وجنة حمراء لصبى ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك ، وهى قتالة للغرباء ، على أن حُمّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب ، ووباها وحماها فى وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان ، وكل محموم فى الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه ، وفى بدنه منها بقية . فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط ، وأن يجمع فى جوفه الفساد ، وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يؤتون من قِبَل النَّهم ، ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة » . وقال أيضاً : رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحته كقصبة الأهواز .

وقال فى حَرَّة بنى سُلَيْم فى عالية نجد : « إنهم ليتخذون المماليك للرعى والسقى والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تقلبهم الحَرَّة إلى ألوان بنى سُلَيم . ولقد بلغ من أمر هذه الحَرَّة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود ، قال والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة . ومن قبل

قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقبيح ، على أن حَرَّة بنى سُلَيم تجرى مجرى بلاد الترك ، فإنك إذا رأيت الترك ، ورأيت إبلهم ودوابهم ، وكل شىء لهم حسبته شيئاً واحداً ، وكل شىء لهم تركى المنظر » .

وبهذا رأيناه يقول بتطور الأحياء بحسب البيئة وتعاقب الأيام ، ويعلل ذلك تعليلاً مقبولاً كما يعلل أشياء أخر مثل عذوبة المطر والثلج ، وملوحة مياه البحر . وكل ما وصفه من أنواع الحيوان وصفه وصفاً دقيقاً ، كأنه رآه المرة بعد المرة وأجرى تجاربه عليه ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله ، فما وافق الحس والعقل من أقوالهم قبله ، وما لم يوافق عليه ردَّه مع إيراد الأسباب الداعية له إلى رده .

ومما قال : بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست فى غيرها من البلدان ، منها أن عدد المد والجزر فى جميع الدهر شىء واحد ، فيقبل عند حاجتهم إليه ، ويرتد عند استغنائهم عنه . ثم لا يبطئ عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وجَمامها واستراحتها ، لا يَقتلها عطشاً ولا غرقاً ، ولا يُغبها ظمأ ولا عطشاً ، يجىء على حساب معلوم ، وتدبير منظوم ، وحدود ثابتة ، وعادة قديمة ، يزيدها القمر فى امتلائه ، كما يزيدها فى نقصانه ، فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ، ومتى يذهبون ويرجعون ، بعد أن يعرفوا موضع القمر ، وكم مضى من الشهر ، فهى آية وأعجوبة ، ومفخرة وأحدوثة ، لا يخافون المحل ، ولا يخشون الحَطْمة[1] » .

وقال أيضاً : « من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم فى أيام الإسلام ، كما هدم عثمان صومعة

(١) حطمة وحطم والحاطوم سنة الشدة .

غُمْدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان » .

يكلمك الجاحظ تارة في رغبات الناس في العلوم ، ويذكّرك بأنه لم تظهر له العلة فيها ، إلا أنه يعجب من الوسط في صناعته ، ومن كانت فطرته غير مؤاتية ، فيقول : « صار طلب الحساب أخفّ على بعضهم ، وطلب الطب أحبّ إلى بعضهم ، وكذلك النزاع إلى الهندسة ، وشغف أهل النجوم بالنجوم ، فتجد واحداً يلهج بطلب الغناء واللحون ، وآخر يلهج بشهوة القتال ، حتى يكتتب مع الجند ، وآخر يختار ورّاقاً ، وآخر يختار طلب الملك ، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ، ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر ، إلا بجملة من القول ، ولا تجد المختار لبعض هـذه الصناعات على بعض ، يعلم لما اختار ذلك في جملة ولا تفصيل ، إذ كان لم يجرِ منه على عِرق[1] ، ولا اختاره على إرث ؛ وليس العجيب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ، ويحركه في بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت مغنياً ، وهو لا طمع له في معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن ، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة ، أن يكون مطرباً ومغني عامة . . . » .

واحتج للإماء : « قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات[2] ، أن الرجل قبل أن يملك الأَمَةَ قد تأمل كل شيء منها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ؛ والرجال بالنساء أبصر ، وإنما

(١) عرق أصل كل شيء . (٢) المهيرة الحرة الغالية المهر .

تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك ؛ وقد تحسن المرأة تقول كأن أنفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها إبريق فضة ، وكأن ساقها جُمَّارة ، وكأن شعرها العناقيد ، وكأن أطرافها المدارى ، وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض » .

وقال فى رسالته فى النساء : « ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة[1] ، وإنما يريدون بقولهم مجدولة[2] ، جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانة وشفانة[3] ، وكأنها جان ، وكأنها جَدْل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة فى المجدولة أعم ، وهى بهذا تحبب على السمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما يحسب هذه الأصناف على المجدولات ، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور ، فقالوا : أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب » . ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا أن ندعى أن الجاحظ كان يعرف كل شىء .

ومما قاله : « قلَّ معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه

---

(١) القضافة والقضف محركة وكسحاب النحافة وهو قضيف ج قضفان .

(٢) المجدول اللطيف القصب المحكم الفتل .

(٣) رجل خمصان بالضم والتحريك . وخميص الحشى ضامر البطن . وهى خمصانة وخميص من خمائص . وشفانة [illegible] .

فى كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه فى أشعار العرب ، وفى معرفة أهل لغتنا وملتنا » .

ولذلك رأيناه يقرّب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفائها ؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل فى دائرة الحس والعقل ، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله فى إنكار أحاديث الجن وما روى من الشعر فى رؤيتهم ، فقال إن للناس فى هذا ضروباً من الدعاوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ؛ ومن استقراءاته قوله : « إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة ، دون نخل المدينة ، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ، ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها ، والأهواز وما بها ، أيامَ المعتصم ، وإذا ثلثمائة وستون ضرباً من مُغَلّ معروف ، وخارجى موصوف ، وبديع غريب ، مع طيب عجيب » .

وقال فى كتابه الأمصار : أكثر الدور غلة ثلاث : دار البطيخ بسرّ من رأى ودار الزبير بالبصرة ، ودار القطن ببغداد . ومما قاله فى وصف البصرة إنه لا يعرف مصرا جاهلى ولا إسلامى أفضل من البصرة وإنها قاب الدنيا وواسطة الأرض وفرضة البحر .

ومن ملاحظاته : واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين فى الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء ، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم

ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه ، أو سوء حِذْق أو خرقاً قال له يا حجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك ، ولذلك لم يُجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ؟ ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيًا وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم ، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر ، لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش ، فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها ، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت لو حولت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهول إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبهم الهمُّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع .

ومما استقراه قوله لما تولى خالد بن الوليد كسر الأصنام التى كانت قريش تعبدها ، ورمى عُزّى بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه : « وما أشك فى أنه قد كانت

السدنة[1] حيل وكمين ؛ ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشأوا فيهم » ، قال : « وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها ، حتى أن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير نار في بعض ليالي أعيادهم ، وبمثل ذلك احتال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال : ياعزى كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك » ، قال : « وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إلى العُزّى تصيح : ياعُزى خَبّليه ، ياعزّى عزّريه ، وليس ينثني من تهاويلهم ، وعلاها بالسيف حتى كسرها » .

وقال في الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبي قبله : « المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً كان أعرابيًّا وَبَرِيًّا ، ولم يبعث الله قط نبياً من الأعراب ولا من أهل الوبر ، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الجزر ، والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وذكر الشياطين في بعض كتبه ومما قال : « إنا وإن كنا لم نر شيطاناً قط ، ولا صوّره لنا صادق ، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل من لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان ، وهو دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا في طبائعهم غاية الثبات » ؛ وقال : « ليس من الناس من رأى شيطاناً قط على صورته ، لكن لما كان الله جعل

---

(١) سدن سدناً وسدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة ، فهو سادن ج سدنة .

فى طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته ، وأجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير و بالإضافة والتفريع إلى ما جعله فى طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء ... »

وأنكر انشقاق القمر كما هو رأى كثير من أهل الذكر ، فقال إنه لم يتواتر الخبر به ، وإنه لو انشق حتى صار بعضه فى جبل أبى قبيس لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره فى كل يوم وليلة ، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير ، فأما قوله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر ، فإن معناه سينشق .

ومن ملاحظاته : « لا تليق ثلاثة أسماء بأعيانها إلا فى الملوك والسادة ، ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام فى ملوك العجم ، والحارث بن الحارث بن الحارث فى ملوك غسان ، والحسن بن الحسن بن الحسن فى سادة الإسلام » . وقال : « ثلاثة بنو أعمام فى زمن واحد ، يسمى كل واحد منهم علياً ، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وعلى ابن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب وعلى بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ثم بنوهم ثلاثة بنو أعمام و يسمى كل واحد منهم محمداً ، وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . ومحمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ، ومحمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو من أغرب ما يتهيأ فى العالم . و يتفق فى الأزمنة ، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها أحد » . نقول وهذا من معرفته بالأنساب أيضاً فاهتدى من الغرائب فيها إلى ما لم يهتد إليه غيره ولا وقع فى خاطره .

ومن استدلالاته أيضاً : « قد علمنا أن داعى استفاضة النجدة فى جميع

أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة ، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستانى وهو عجمى ، واليمامى والنجرانى والجزرى وهم عرب ، ونجدُ تاهرت وهى بلاد عجم ، كلهم فى القتال والنجدة سواء ، وفى ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين ، فاستوت حالاتهم فى النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، أفما فى هذا دليل على أن الذى سوّى بينهم هو التدين بالقتال ؟ » وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نعرفه لأحد ممن كتب فى عصره فى فلسفة الديانيين والأديان .

وقال فى نار المجوس : « ما زال الناس كافة ، والأمم قاطبة ، حتى جاء الله بالحق ، مولعين بتعظيم النار ، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها . ويزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال : لا تطفئوا النار من بيوتى ، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبداً ليلا ونهاراً . فأما المجوس فإنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران ، وأقامت دلها السدنة ، ووقفت عليها الغلات الكثيرة ، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة ، وإيجاب الشكر على النعمة ، وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قوماً فلم يرعوا حق صحبته لهم وخدمته إياهم فقال :

عمرى لقد جربتكم   فوجدتكم نار المجوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها ، وبين من يبرق فيها ويبول عليها ، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها » .

وقال : « الأمم كلها تضرب مثلا بالعنقاء فى الشىء الذى يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس :

وما خبره إلا كعَنْقَاء مُغْرِب   يُصَوَّر فى بسط الملوك لها مثلُ

يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما إن تمر ولا تحلو

وما أكثر من ينكر أن يكون فى الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقاء مغرب ، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصورة فى بسط الملوك وحيطان تصورهم ، واسمها عندهم مسموع » ومن غريب تحقيقه فى النمل قوله : « والنمل ربما أجلى أمة من الأمم عن بلادهم » ومن تحقيقاته : « ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا فى ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيباً وأعضاء وجوارح ، ولم يروا أقرب منه خلقة وصورة وأدنى إليــه شبهاً ومشاكلة من القرد ، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا قط إنسياً ، ولم يشرّحوا آدمياً ، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر الكامنة بمــا فصلوا من أجسام القرود ، وبعض من وجد من القتلى على ندرة فى بعض معارك الملوك » ، وقال فى عجائب البحر : « وليس ذلك بأعجب من شيء عاينه جميع من يركب البحر وذلكَ أن الطائر من طَيْره يطير فى الهواء ، فيبعث به طائر صغير ، فإذا أحرجه ذلك ذرق ، فتلقاه الطائر فابتلعه ، فلا هو يخطىء بذلك الذرق حلق الطائر الصغير ، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه ، وما يعيّشه من ذلك الطائر الكبير ، والدُّخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك ، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به ، والغريق يذهب معه ، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به حتى ينجيه ، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه » .

وقال فى علة فشو الفاحشة فى بعض الناس : ولو كانت هذه الشهوة شائعة فى الأعراب لتعشقوا الغلمان ، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب من النسيب ، ولتهاجوا به وتفاخروا ، وانتافسوا فى الغلمان ، ولجرى فى ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت فيه أشعار وأخبار ، والذى يدل على سلامتهم من ذلك

عدم هذه المعانى ، وإن كان هناك شىء من هـذا فليس هو إلا فى بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق ، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلا الجوهرية ، فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسـية فهم على خلاف ذلك كله . . .

كان يقال أربعة لم يُلحقوا ولم يسـبقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى أدبه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره ؛ وحقيق على من تصفح تآليف الجاحظ واتساعه فيها ، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه أن يعذر الناس فى كل عصر لإعجابهم بما كتب ، ولا يستنكرنّ من الاستنباط بأن العالم كانوا يرقبون صدور كتبه كما يتوقع المدنون اليوم صدور صحف الأخبار ، وورود الإذاعات فى الأيام العصيبة ؛ وكان هو يعرف لنفسه هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس . قال بعضهم للجاحظ : مثلك فى علمك ومقدارك من الأدب ينشد قوله :

منطق صائب وتلحن أحيا   نًا وخير الحديث ما كان لحنا

ويفسره على أنه أراد اللحن فى الإعراب ، وإنما وصفها بالظرف والفطنة ، وأنها تورّى فى لفظها عن أشياء قال : قد فطنت لذلك بعدُ ، ولما أشار عليه ناقده أن يغيّر تفسيره قال : كيف لى بما سارت به الركبان ؟

ومن البراهين على اتساع شهرته فى حياته ما قيل لأبى هفان وقد طال ذكر الجاحظ : لِمَ لاتهجو الجاحظ وقد ثلبك وأخذ بمخنّقك ، فقال : أمثلى يُخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت فى ألف سنة .

كتبه ورسائله :

ليس فى وسع الباحث تعيين حد لعلم الجاحظ ، ينتهى منه إلى معرفة ما غاب عليه ؛ وما أشبه تآليفه بمَعْلَمة من معلمات العلم فى عصره تبحث فى جميع المطالب بحثاً ممتعاً ، فلا ترى فى مقالاتها خللاً ، ولا فى وضعها وتصنيفها غثاثة ؛ ولقد رأينا معلمات زماننا بلغات العلم الحديث يؤازر فيها عشرات وربما مئات من العلماء والباحثين ، حتى تكتب لها الإجادة ، وتقع من نفوس أرباب المدارك موقع الاستحسان ، ومعلمة الجاحظ كتبها بنفسه ، لم يشاركه مشارك فى إعداد موادها ، ولا فى وضع أبوابها ، وابتكار فصولها ، وكلها ابنة درسه وبحثه ، يصدرها فى اتساق متقن ، وتحقيق بالغ ؛ وربما كان من أبحاثها ما اقترح عليه الخوض فيه ، فكتب ما أراد وما أُريد منه ؛ وكأنه المفتى الحجة يُستفتى فى علوم الدنيا والآخرة ، فلا يلحق غباره أحد ، وهو أبداً الفارس المجلّى فى كل حلبة ، لم يلحقه أحد فى طريقته ، وحاول تقليده غير واحد فى العصور التالية .

الإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة فى الجاحظ ، ألف خمسين وثلاثمائة مؤلَّف ، بين رسالة فى بضع صفحات وكتاب فى بضعة مجلدات ، رآها كلها سبط ابن الجوزى فى أول القرن السابع فى مشهد أبى حنيفة ببغداد . ألّف كل هذا وجوّده ، وطريقته كما قال عن نفسه أن لا يحلى الصدق بالكذب ، ولا يدخل الباطل فى تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق ، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة ، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها ، ويستدعى إلى تفضيلها والإشادة

بذكرها ، بالأشعار المولّدة ، والأحاديث الموضوعة ، والأسانيد المدخولة ، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله ، ولا مصدق له إلا من لا يوثق بمعرفته . وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب ومدارسة العلم ، أن لا يقفوا على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له شيء من استكراه ، ويقول لمن هذا حاله : « لو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم ، تنقله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالأدب المرضى ، والخيم[1] الصالح ، وأشد مشاكلة للحكمة ، وأبعد من سلطان الطيش ، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين ، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة فى كتبه ، والدفاع عن حجته ، يوم مناضلة خصومه ، ومقارعة أعدائه » .

وتعوذ بالله فى كل موطن « من فتنة القول وخطله ، ومن الإسهاب وتقحم خطته » وأكد « أن فتنة اللسان والقلم ، أشد من فتنة النساء ، والحرص على المال » ، واستعاذ من التكلف لما لا يحسن ، كما استعاذ بالله من العُجب بما يحسن ، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده ، ورجا أن يكون من المحسنين ، وتعوذ من رسالة ظاهرها زهد و باطنها رغبة وقال : « إن أسقط الكلام وأوغده ، وأبعده من السعادة وأنكده ، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص ، وتحلى للعيون بعين القناعة واستشنع ذلة الافتقار ، وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفى وهو ظاهر ، وتأويله بعيد الغور ، وهو قريب القعر » .

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية ، إلى طور جمع فيه إلى الرواية الدراية ، ودعا إلى جميل الصدق ، و برد اليقين ، مستمداً من العقل ، داعياً

---

(١) الخيم : بكسر الخاء الطبيعة .

إلى التفكير الصحيح ، قائلاً : « إن من شكرِ النعمة فى معرفة مغاوى الناس ومراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، ألا يحتمل ثقل مؤنتهم فى تقويمهم ، وأن يتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم ، فلن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره » ؛ « ويعرف أن الحق مرّ والجد صعب ، ولا يصبر على مطالعة الكتب الطويلة إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عزّه ، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ والكثرة من السآمة ، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة » .

وترى أبا عثمان فى كتبه ينقل عن أرق الطبقات وأدْناها ، ومن العلماء من نقل عنهم فستر أسماءهم ، وأشار إلى أنهم كانوا عظماء فقط ليعرّف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة ، قال مرة : « حدثنى بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه فى أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفاً بحب التبيين ، معترضاً للأمور يحب أن يُفضى إلى حقائقها ، وتثبيت أعيانها بعللها ، وتمييز أجناسها ، وتعرّف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها ، كان يعرف للعلم قدره ، وللبيان فضله » ، وروى عن إبراهيم بن السندى كثيراً ، ونوّه به ، وقال فيــه : « إنه كان مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرّسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أردّ[2] على هذا المُلك من عشرة آلاف سيف شهير

---

(١) الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب وسجره شده به كسوجره .

(٢) يقال هذا أرد : أنفع ، ولا رادة فيه : لا فائدة فيه كلا مردة .

وسنان طرير[1] لكان ذلك قولاً ومذهباً » ، ووصفه فى البيان والتبيين بقوله : « كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى، وكان كاتب القلم ، كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، و يعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة و برجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر » . انظر إليه كيف يكرر فعل « كان » مرات فى بضعة أسطر ! يا ما أُحَيْلاه فى مكرراته وفى موجزاته . . وروى عن ثمامة بن أشرس أحد شيوخه فى الحديث فقال : « إن الصفات التى وصف بها ثمامة بن أشرس جعفرَ بن يحيى كأَن ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان فى زمانه قرَوى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه » .

والظاهرة المتجلية فى كتب أبى عثمان أنه بينا ينقل إليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء ، يروى لك : « نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرّة من الموسوسين ، ومن كلام أهل الغفلة من النوْكى ، وأصحاب التكلف من الحمقى » يجعل بعضها فى باب الهزل والفكاهة و يقول : « ولكل جنس من هـذا موضع يصلح له ، ولا بد لمن استكده الجدّ من الاستراحة إلى بعض الهزل » و « إن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، و إن البطالة وقار ورزانة ، إذا تكلفت لتلك العاقبة » . فهو يكره النغمة الواحدة يرددها ، فيختار من الأصوات ما يفعل

---

(١) السنان الطرير هو الرمح المحدد ، والسيف الشهير المضى المرفوع على الناس .

فى النفوس ، فيسليها و يطربهـا وهو يعلمها ، و يلعب بالألباب ، فى كل رسالة له وكتاب . تتجلى فى أقواله ورواياته واستنباطاته وفرة المـادة ، ووفرة البحث ، وكثرة ما تعلّم ، وهضم ما تعلم ، فكتبه أعيانٌ متحركة غير جامدة جمود حروفها ، تأخذ من كل وجوه الإجادة بأوفر نصيب ، وتدور على « حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف » .

ما كتب الجاحظ وألّف إلا عن باعث ، وكان فى الأكثر يتقدم فيعرض ما حمله على التأليف ؛ قال فى وصف كتاب الحيوان : « وهـذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه و إن كان عربيًّا أعرابيًّا ، و إسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، و بين وجدان الحاسة ، و إحساس الغريزة . و يشتهيه الفتيان ، كما يشتهيه الشيوخ ، و يشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، و يشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم ، و يشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الأريب ، و يشتهيه الغبىّ ، كما يشتهيه الفطن » ؛ ثم ذكر مزاعم الناس فى تزييف الكتب ، والسبب الذى يدعوهم إلى إسقاطها ، فقال : « وليس هذا الكتاب يرحمكَ الله فى إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليـه المرجىٔ ، ولا فى تفضيل علىّ فينتصب له العثمانى ، ولا هو فى تصويب الحـكمين فيتسخطه الخارجى ، ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ، ولا هو فى تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ، ولا هو فى تفضـيل البصرة على الكوفة ، ومكة على المدينة ، والشام على الجزيرة ، ولا فى تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمرو على واصل ، فيرد بذلك الهذلى على النظامى ، ولا هو فى تفضيل مالك على أبى حنيفة ، ولا هو فى تفضيل

امرئ القيس على النابغة ، وعامر بن الطفيل على عمرو بن مَعدى كَرِب ، وَعبَّاد ابن الحصين على عبيدالله بن الحُرّ ، ولا فى تفضيل ابن سُرَيْج على الغَريض ، ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ، ولا فى تفضيل الجعفرى على العَقيلى ، ولا فى تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية ، وتفضيل قَتادة على الزُّهرى ، فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة ، ولكل رجل من هؤلاء جنــداً وعدداً من مخاصميهم وسفهائهم ، والمتسرعون منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، و إنصاف علمائهم أقل » .

قال : « وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، الثانيــة قلة الأعوان ، الثالثة طول الكتاب ، والرابعة أنى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العَرَض والجوهر ، والصفرة والتوليد ، والمداخلة والغرائز والنحاس[1] ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً ، لأنى كنت لا أفزع فيــه إلى تلقط الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال . فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه ، فلا تُنكر بعد أن صوّرت عندكَ حالى التى ابتدأت عليهـا كتابى . ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه ، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته ، لمـا تعرضت لهذا المكروه ؛ فإن نظرت فى هذا الكتاب ، فانظر فيــه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب المتعنت[2] ، ومذهب من إذا رأى خيراً كتمه ، و إذا رأى شراً أذاعه » .

---

(١) النحاس مثلثة الطبيعة . (٢) المتعنت طالب الزلة .

ومما قال فيه : « وما عندى لك من الحيلة إلا أن أصوره لكَ فى أحسن صورة ، وأقلبكَ منه فى الفنون المختلفة » ؛ « فإن وجدت الكتاب الذى كتبته لك يخالف ما وصفت ، فأنقصنى من نشاطكَ له على قدر ما نقصتكَ مما ينشطكَ إليه لقراءته ؛ وإن وجدتنى ، إذا صح عقلكَ و إنصافكَ ، قد وفيتكَ ما ضمنت لك ، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً ، وحدّكَ مفلولاً ، فاعلم أنا لم نؤت إلا من فسولتك وفساد طبعك ، ومن إيثاركَ لما أضرّ بكَ » .

وقال فى مقصده الذى يرمى إليه بطريقته فى تأليفه هذا : « فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يملّ ، ويعتدّ علىّ فيه بالإطالة ، لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حدة ، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جماما[1] لبعض ؛ ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ، ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل ، والملال إليه أسرع ، حتى يُفضى به إلى مزح وفكاهة ، وإلى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً ، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى[2] والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد فى الكلام ، فأصوب

---

(١) الجمام بفتح أوله : الراحة

(٢) الوحى : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته إلى غيرك .

العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة » .
وقوله هذا فى نسق تأليف القرآن من أبدع ما اهتدت إليه قوة مفكرة .

قال أبو على الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل . وزعم بعض علماء الإفرنج أن كتاب الحيوان أقرب إلى أن يوسم بكتاب أدب منه إلى أن يعد كتاباً فى طبائع الحيوان ، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى أن ما حققه الجاحظ فى صنوف الحيوان قبل غيره من العرب والعجم كافٍ بأن يعد السابق المبرز فى هذا الفن ، والشعر الكثير الذى نقله لايُزرى بما كتب ، وهو يملى على الناس روح عصره . كتب الجاحظ كتابه أوائل القرن الثالث من الهجرة ، والعلم كما قال ريشه لم يتجاوز عمره من فرنكلين إلى أنشتين أكثر من مائة وخمسين سنة . وفى كتابه خلاصة من الشعر الجيد ، وأجمل الحكايات والنوادر ، ومنها ما كان من نوع الأدب الواقع ، وهناك أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية ، وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان . وما كتب ما كتب فيه إلا عن تجربة وعيان ، وفيه كلام على الناس وبلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم إلى غير ذلك مما لا يظفر به باحث فى كتاب واحد . فإتيان الغرائب والطرائف « ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب ، أو من أكثر من قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى الغياض ، ومشى فى بطون الأودية » — الإتيان بالغرائب باعث على عموم فائدته .

وأما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأساً وبدأه بقوله

« اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن . ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العيّ والحصر ، وقديماً تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما » . يقول صاحب الصناعتين إن البيان والتبيين كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . . . »

الجاحظ فى البيان والتبيين يكثر من الشواهد ، ويقلل من القواعد ، ويضمنه هزلاً وجداً ، وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق ، وكان الأمثل به أن يضع كل شىء فى مكانه فاعتذر مرة بقوله : « وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التدبير » . ومما قال فى مناسبة أخرى : « وهذا الباب يقع فى كتاب الإنسان من كتاب الحيوان ، وفى فضل ما بين الذكر والأنثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ؛ ولكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد فى نشاطه » .

أراد الجاحظ فى البين والتبيين أن يعلم طالب البلاغة بالعمل كما تعلم هو البلاغة ، وكان البيان فى عهده يُعَلّم على هذه الصورة ، وبعده قام العلماء بوضع

قواعد قلما أفادت الكاتب والشاعر ، اللهم إلا الوقوف على ما عللوا له ، واستشهدوا به ، وسنوا له من القوانين . وكان معظم من كتبت لهم الإجادة فى كل زمن فى فنى المنثور والمنظوم ممن لا يعبأون كثيراً بما قاله علماء البيان . فالبيان يُعَلَّم بالذوق والعمل ، لا بالقواعد والقوانين . والجاحظ كان فى كتابه هذا عملياً شأنه فى كل ما كتب . وكذلك هو فى النحو فقد قال فى فصل رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب كتبه ، وشعرٍ إن أنشده ، وشىء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردّ عليه منه ، من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » .

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم ينظر فيه الجاحظ نظرة أخيرة ، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن خُرْشب فى قتال عبس وذبيان مرتين ، ونسبها فى المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادى . وهى القصيدة التى أنشدها الجاحظ لسهل بن هرون فقال : والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم .

وقال فى السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه « الدلائل والاعتبار » وفيه مباحث من شواهد آثار الصانع فى صنعته ، وتنبيه على أسرار قد أودعها ما يشاهده المرء من فطرته ، تضطره إلى معرفته وتشهد بوحدانيته ، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته ، قال : إنه ألف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما وضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل منه ، فمنهم جبرائيل بن نوح الأنبارى ، وقبله ألف فى معناه تودرقوس أسقف طرسوس وسمى كتابه المتدبر ، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية ، فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة ، ومنها كتاب

نظمه ثاوريطوس أسقف قورس كتبه باليونانية ، ونقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية ، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات ، ومنها كتاب ألف فى أيام بنى أمية ، نظمه يسوعنجت مطران فارس ، وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقاً اه . وجمع الجاحظ محاسن ما وجده فى هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقة ، وشرح ما نقل من غيره ، وبين القول فيما زاده ، ورتبه ترتيباً يونق السمع ، ويسر القلب ، ويبسط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف .

وقال فى مقدمة كتابه حجج النبوة : والذى دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها ، وجمع وجوهها وتدوينها ، أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها وعلى اللفظ المؤثر عنها ، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطالبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها ؛ ولعل بعضهم ، وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها ، فلم يعرفها من أسهل طرقها ، وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسى ، أو تهاون بها فعمى ، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة متخيرة مستقصاة مفصلة أنها ستزيد فى بصيرة العالم ، ويجمع الكل لمن كان لا يعرف إلا البعض ، ويذكّر الناسى ويكون عدة على الطاعن . ولعل بعض من ألحد فى دينه ، وعمى عن رشده ، وأخطأ موضع حظه ، أن يدعوه العجب بنفسه ، والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها ، ليتقدم فى نقضها وإفسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبه من رقدته ، وأفاق من سكرته ، لعز الحق وذل الباطل . ولإشراف الحجة على الشبهة ، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجاراه ، لأن الإنسان لا يباهى نفسه ، والحق بعد قاهر له ، ومع التلاقى يحدث التباهى ، وفى المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع اه .

وقال فى مقدمة رسالته التبصر بالتجارة : « سألت ، أكرمك الله ، عن أوصاف ما يستظرف فى البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب » . وقال فى مقدمة رسالة « الحنين إلى الأوطان » : « إن لكل شىء من العلم ، ونوع من الحكمة ، وصنف من الأدب ، سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً ، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة ، تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله ، بطلت الحكمة وضاع العلم ، وأميت الأدب ، ودرس مشهور كل نادرة ، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الأوائل فى الصخر ، لبطل أول العلم وضاع آخره . ولذلك قيل : لا يزال الناس بخير ما بقى الأول يتعلم من الآخر . »

وهكذا تراه يتفنن فى مقدمات كتبه ورسائله تفننه فى تأليفها ووضعها ، فقد قال فى مقدمة كتابه البخلاء : « ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سُرّاق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى أن لا يبلغه كيد ، ولا يحوزه مكر ، وذلك أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب ، وقلت اذكر لى نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً ، والراحة جماماً ، فإن للجد كداً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته » .

وبدأ كتابه المحاسن والأضداد بقوله : « كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان

والمدن والحصون ، مثـل بناء أردشير و بناء إصطخر ، وبناء المدائن والسَّدير ، ثم إن العرب شاركت العجم فى البنيان ، وتفردت بالـكتب والأخبار والشـعر والآثار ، فلها من البنيان غمدان . وكعبة نجران ، وقصر مأْرب وقصر مارد ، وقصر شَعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان . وتصنيف الـكتب أشـد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان ، لأن البناء لا محالة يدرس ، وتعفى رسومه ، والـكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ، ومن أمة إلى أمة . فهو أبداً جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو أبلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير .

« وكانت العجم تجعل الـكتاب فى الصخور ، ونقشاً فى الحجارة ، وخِلقة مركبة فى البنيان ، فربمـا كان الـكتاب هو الناتئ ، وربمـا كان هو المحفور ، إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقنـد ، وعلى عمود مأْرب ، وعلى ركن المشقَّر ، وعلى الأبلق الفرد ، وعلى باب الرُّها . يعمدون إلى المواضع المشهورة ، والأماكن المذكورة ، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدر أن يراه من مرَّ به ، ولا يُنسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة ، والـكتب المدونة ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار . ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع . ولولا ما رسمت لنا الأوائل فى كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم ، لقد بَخَس حظنا منه . وأهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل ،

وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب الملاهى ، وكتب أعوان الصلحاء ، وكتب أصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهليـة . ومنهم من يفرّط فى العلم أيام خموله ، وترك ذكره وحداثة سنه » . انظر إلى هذه الرشاقة مع الجزالة ، و إلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال فى هذا المجال . وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الـكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره .

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلى بها « إلف تفـكير وتنقير ، ودَرّاسة كتب ، وحلف تبيين » لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يخلق بالتدوين ، ويرد بها على من شهدهم « أملياء بالخرافات ، أقوياء على رد الصحيح ، وتصحيح السقيم » . قال فى سبب تأليفه « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » : « إن ذهبنا ، حفظك الله ، بعقب هذه الاحتجاجات ، وعند منقطع هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم ، وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلـكنا فى هذا الـكتاب سبيل أصحاب الخصومات فى كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء فى الاختلاف الذى بينهم ، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم ، إن كانت مختلفـة ، ولنزيد فى الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب ، فلا يغيّر بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم . والعدو ذا الـكيد العظيم ، قد يصور لمن دونه الباطل فى صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم » ؛ « وأنا أقول إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك ، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ،

والإضراب عن هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجميل ، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب ، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب ، وإنما تتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوى . فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف » .

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدى نجواه ، الدواعى والبواعث إلى التأليف ، خصوصاً وبعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما تستغرب الكتابة فيه ، مثل رسالته فى فخر السودان على البيضان ، وقوله فى المقدمة إنه كتب فى ذلك ما حضره من مفاخر السودان . ومثل رسالته فى أخلاق الكتاب ، جواباً على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعيانهم ، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مشفوعة بالحجة « إذ كان فى ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم » ؛ وقال فى غرض تأليف رسالته فى القيان : « فوضعنا فى كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الإخوان ، وتقم علينا إظهار النعم والحديث بها ، ورحونا النصر إذ قد بُدينا ، والبادى أظلم ، وكاتب الحق فصيح (ويروى : ولسان الحق فصيح) . ونفس المحروج لا يقام له ، وصولة الحليم المتأنى لا بقاء بعدها . فبين الحجة فى اطراح الغيرة فى غير محرم ولا ريبة » .

وذكر فى رسالته تفضيل النطق على الصمت أنه وجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام « كلام امرئ قد أعجب برأيه ، وارتطم فى هواه ، وظن أنه قد نسج فيها كلاماً ، وألف ألفاظاً ، ونسج له معانى على نحو مأخذه

ومقصده ، أنه كان مَثَله فى ذلك مثل من تخلص إلى الحاكم وحده ففاج بحجته ، وإنى سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع ، وبيان ساطع ، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر ، ومن الحق ما يقهر ، بقدر ما أتت عليــه معرفتى ، وبلغته قوتى ، وملــكته طاقتى ، بما لا يستطيع أحد رده ، ولا يمكنه إنكاره وجحده » . وفى رسالته فى « مدح التجار وذم عمل السلطان » : « وهذا الــكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان ، فأما عليّتهم ومصاصهم[1] وذوو البصائر والتمييز منهم ... فيعلمون أنهم (أى التجار) أروح الناس أبداناً وأهنؤهم عيشاً ، وآمنهم سِرباً ، لأنهم فى أفنيتهم ، كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضَّرَع لعاملاتهم ، وليس هكذا مَن لابس السلطان بنفسه ، وقار به بخدمتــه ؛ فإن أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خَوَل مملوءة ، قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج ، فهم مع هذا فى تــكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغير الدول ، وافتراض حلول المحن ، فإن هى حلت بهم ، وكثيراً ما تحل ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء » .

ومما قال فى رسالته فى الوكلاء : « وأخلق بمن كان فى صفتك ، وأحر بمن جرى عن دربتك ، أن لا يكون سبب تسرعه ، وعلة تشحنه ، إلا من ضيق الصدر ، وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر ، فقد صحّ الآن أن سعة الصدر أصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع . وقد رأيتك حفظك الله تعالى خوّنت جميع الوكلاء وفجرتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وحمت

(١) المصاص مصاصهم : خالص كل شىء .

جميع الملهين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة » .

وكانت رسالته فى « الرد على النصارى » جواب كتاب جاءه من أحدهم ، يذكر فيه من مسائل النصارى قِبَله ، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم من اللبس ، وما خاف على جواباتهم من العجز ، وسأله إقرارهم بالمسائل ، وحسن معونتهم بالجواب قال : « وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية » ؛ وقال فى الإبانة عن رسالته فى البخلاء : « ولكَ فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضَحِك منه إذا شئت ، وفى لهو إذا ملت الجد » .

وكتب فى كتابه طبقات المغنين ما دعاه إلى تأليفه فقال : « إنه خُص زمانه بفتية أشراف انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملنى الكلف بهم ، والمودة لهم ، والسرور بتخليد فخرهم ، وتشييد ذكرهم ، والحرص على تقويم أود ذوى الأود منهم ، حتى يلحق بأهل الكمال فى صناعته ، والفضل فى معرفته . وعلى تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التى نسبوا إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها . وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تعريفاً بتعريض . ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءاً ، ولا تعمدنا نقداً ، ولا تجاوزنا حداً . ولو استعملت غير الصدق لفضلت قوماً ، وحابينا آخرين ، ولم نفعل ذلك تجنباً للحيف ، بل قصداً للإنصاف ... ولم نقصد فى وصف من وصفنا من الطبقات التى صنفت منهم إلا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام ...

وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين . . . وقد تركنا فى كل باب من الأبواب التى صنفناها فى كتابنا فرجاً لزيادة إن زادت ، أو لاحقة إن لحقت ، أو نابتة إن نبتت ، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته إلى ما هو أعلى منها ، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها إلى مكانه الذى إليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها ، ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزُب عنا ذكره ، وأنسينا اسمه ، ولم يحط علمنا به ، فنصيره فى موضعه ونلحقه بأصحابه ، وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأصناف إلا بعلتها ، ولا يستبد بأمر فيه دوننا . ويورد ذلك علينا فيمتحنه ، ويعرفه بما عنده ويصير إلى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقها ، والطبقة التى يحتملها ، فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك ، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين ، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم ، وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أماكنه ، التى عليها رسمنا ، وأن يقول كل امرئ منهم فى ذلك على حاله ، وبقدر هواه ورأيه ، وموافقته ومخالفته ، والميل فى ذلك إلى بعض ، والذم لطبقة والحمد لأخرى ، فيهجنوا كتابنا ، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا . وأحببنا أن نأخذ فى ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا ، ونبادر إلى تفريق نسخة منها وتصييرها فى أيدى الثقات والمستبصرين الذين كانوا فى هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبى صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد ، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخة باقية فى أيديهم ، ووثقنا بهم أمناء ومستودعين ، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين ، وعلمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا ، وحفظ ما عليه ائتمنوا ، إذا شيب به شوب يخالفه ، وأضيف إليه ما لا يلائمه اه » .

وبدأ كتابه صناعة القواد بقوله : « أرشدكَ الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عن الأدب ، كما يعرف زوائد الغنى ، قال أبو عثمان : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعزّد ترد به الأحزان ، وخاصة تزهى بالصنيعة ، وملهى يونق الأسماع » .

وقال فى مقدمة كتابه الحجاب : « أطال الله بقاءكَ ، وحماني من كل سوء فداكَ ، وأسعدكَ بطاعته ، وتولاكَ بكرامته ، ووالى إليك مزيده ؛ اعلم أنه يقال « أكرمك الله » أن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمته تجاربه ؛ وقد قيل كفاكَ أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك ، وقيل كفاك من سوء الفعل سمعه ، وقيل إن من يقظة الفهم للواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى ، وكانت الملوك إذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرّض لها بالحديث » .

وبهذا الوصف عرفنا بعض طريقته فى التأليف .

ومما كتب فى صدر رسالة النساء راداً على من حاول الطعن على كتبه وسخف الرأى الذى دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره : « إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر . كما أنها لا تنفك من ذى سلامة مستسلم ، ومن عالم متعلم ، ومن دقيق الخطر ، حسن المحضر ، شديد المحاماة على حقوق الأدباء ، قليل التسرع إلى أعراض العلماء » .

والحاصل أن أبا عثمان أبدع فى رسائله وكتبه وفى مقدماتها ، وقد طلب إليه أحد أصدقائه أن يكتب له صفات الشارب والمشروب ، وما فيهما من المدح والعيوب ، وأن يميز له بين الأنبذة والخمر ، وأن يقفه على حد السكر وأن يعرفه السبب الذى يرغب فى شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الأوعية — طلب منه هذا فكتبه ، فكأنه عاش حياته بين البواطى والجرار والقدور والخمارين والسكيرين والمخمورين ؛ وهذا آية إبداعه وعنوان تناهيه فى أدبه يحسّ كل شىء ويحسن وصف كل شىء .

وقال فى صدر كتابه فى المعلمين : أعانكَ الله على سورة الغضب ، وعصمكَ من ثورة الهوى ، وصرف ما أعاركَ من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد استعملت فى المعلمين نَوْكَ السفهاء ، وخطل الجهلاء ، ومفاحشة الأدنياء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وتهكم المقتدرين ، وأمن المفترين ، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفيت .

كتب أبو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه ، ومنهم من ذكرت فيها أسماؤهم ومنهم من لم تعرف كما وقع له فى كتاب حجج النبوة أن قال : قد أعجبنى حفظك الله استهداؤكَ العلم وفهمك له ، وشغفك بالإنصاف وميلكَ إليه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد ، وزرايتك عليه ، ومواترة كتبك على بعد دارك ، وتقطع أسبابك ، وصبرت إلى أوان الإمكان ، واتساعك عند تضايق العذر ، وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما حثثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحدب فى الدين والنصيحة لجميع المسلمين ، وقلت اكتب إلىّ كتاباً تقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى إصلاح القلوب ، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات ، دون الذى عليه أكثر المتكلمين

من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب ، وقلت كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذي يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد الخ .

***

أظننا الآن جلينا بعض ما خاض الجاحظ غماره ، وجلّى في مضاميره من الأبحاث ، وما أشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن ، وحزب الدولة ، وحزب الدين ، ويدل الناس على مراشدهم ، ويكشف عن عورات الفاسدين ، ويعلمهم الفضائل ، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم لاستصلاح جماعاتهم ، يعرفهم بالإسلام من طريق العقل والنقل ، يأتيهم بما يقنعهم ، ويزيد إيمانهم وثوقاً ، ككتبه في إثبات النبوة ونظم القرآن وفصل ما بين النبي والمتنبي .

قال ابن الخيط : ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة ، وكتبه في الأخبار وإثبت النبوة ، وكتابه في نظم القرآن علم أن له في الإسلام غَناءً عظيماً ، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له . ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ ؛ وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة اهـ .

فالجاحظ معلم الأول يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء إلا إذا صح في نظام العقل ، ويريدهم على أن تدق ملاحظتهم ، ويرهف حسهم ، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : إن الدين لا يصلح بغير الدنيا ، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى ، فتراه يكتب دفاتر مشبعة في ذم الزنى وفي الشارب والمشروب وذم المسكر ، وفي شرائع المروءة ، وفي العشق والنساء وفصل ما بين الرجال والنساء . وفي الجواري والمعلمين والطفيليين والمغنين وفي العرجان والبرصان

والقرعان ، وفى الأسماء والكنى والألقاب والأنباز ، وفى الأصنام ، وفى الانس والسلوة ، وفى حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار ، ويكتب فى المعادن والتجارة وفى الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، وقلما ترى له تخليطاً يذكر إلى جانب تخليط غيره من المؤلفين .

ذكر الجاحظ بنى مروان وبنى أمية فى رسالة ما لهم وما عليهم ، مع أنه لا يتولاهم ؛ يقول المسعودى وقوله يؤخذ أبداً بتحفظ : إن الجاحظ ألف كتاباً بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً ؛ وقد صنف كتاباً استقصى فيه الحجج ترجمه بكتاب العثمانية ، يحيل فيه عند نفسه فضائل على ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانيــة وأقوال شيعتهم . قال رأيته مترجماً بكتاب إمارة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فى الانتصار له من على بن أبى طالب وشيعته الرافضة يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم ، ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين على ومن تبعه اهـ . وهذه الكتب لم تصلنا فى جملة عشرات من كتبه فقدت ، فما استوثقنا بما ادعاه عليه المسعودى .

وإليك ما قاله فيما عيب عليه من كتبه ، وكأنه جواب لمحالفيه ، والمسعودى داخل فى زمرتهم : « وعبتنى بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخر السودان والحمران ، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة . وعبتنى بكتاب الزرع والنخل

والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفى أى موضع يغلبن ويفضلن ، وفى أى موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما فى الولد أوفر ، وفى أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صناعة هن فيها أبلغ . وعبتنى بكتاب القحطانية والعدنانية ، وفى الرد على القحطانية ، وزعمت أنى جاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية ، وأنى لم أصل إلى تفضيل العدنانيـة إلا بتنقص القحطانية . وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم . وعبتنى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب . ونسبتنى إلى التكرار والترداد وإلى التكثر والجهل بما فى المعاد من الخطل ، وحمل الناس المؤن . وعبتنى بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف اختلفا فى جهة العلة ، مع اتفاقهما على جملة الديانة . وكيف صار عباد البددة ، والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة ، أشد الديانين إلفاً لما دانوا به وشغفاً بما تعبدوا له . وأظهرهم جدًّا . وأشدهم على من خالفهم ضغناً .

وقلت : وعبتنى بكتاب المعادن والقول فى جواهر الأرض وفى اختلاف أجناس الفلز والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول فى الإكسير والتلطيف . وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول فى

استيلاء العفريت على سليمان وفى الهدهد ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما الذى هو ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان .

« وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات ، وكيف تجرد التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ؛ وبكل ما كتبت إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقياً ، ومديح لا يزال أثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكى . وعبتنى برسائلى الهاشميات واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها وتصويرى لها فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتم حلية . وزعمت أنى قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال فى التشيع والاقتصاد فيه ، إلى حد السرف والإفراط فيه ؛ وزعمت أن مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضة ، وأن مقاله الرافضة خطيئة مقالة الغالية . وزعمت أن فى أصل القضية والذى جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير ، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل . . . »

وأنت ترى أن ذاك العائب لأبى عثمان لم يبق له كتاباً لم يعبه بتأليفه ، وإن كان بلغ من إحكامه شوطاً بعيداً ، ثم عاد فقال : « وعبت كتابى فى خلق القرآن ، كما عبت كتابى فى الرد على المشبهة ، وعبت القول فى أصول الفتيا والأحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، وعبت معارضتى للزيدية ، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصرانى واليهودى ، ثم عبت جملة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت

(١) الميسم المكواة .

من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها ، فعبت كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل ، وكتاب أصحاب الإلهام ، وكتاب الحجة فى تثبيت النبوة ، وكتاب الأخبار ، ثم عبت إنكارى بصيرة غنام المرتد ، و بصيرة كل جاحد وملحد ، وتفريقى بين اعتراض الغمر ، و بين استبصار الملحد ، وعبت كتاب الرد على الجهمية فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهات ، وكتاب فرق ما بين النبى والمتنبى ، والفرق ما بين الحيل والمخارق ، و بين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة ، ثم قصدت إلى كتابى هذا بالتصغير ... »

لقى الجاحظ الألاقى من خصومه الشاغبين والمعارضين ، ولكن ذهبت أقوالهم فى الريح ، وذهب هو بالإحسان ، ثبتت مصنفاته وانتشرت و بقى الأنسب ، وانقرض الثرثارون وما ثرثروا به ، وأى عصر ، وأى مذهب ، وأى جنس خلا من أمثالهم ؟

سياسته ودهاؤه :

الجاحظ رجل سياسة أيضاً كما هو معن مفن[1] ، عرف سياسة الوقت معرفته سياسة العلم . ومع اعتياده عادة العلماء كما قال ابن خلدون « النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها فى الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم . لا بخصوص مادة ولا شخص ، ولا جيل ولا أمة . ولا صنف من الناس » مع اعتياده هذا اشترك فى الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر وُكْدَه على الأمور الكبرى ، وما دخل فى تفاصيل السياسة العباسية . ولو شرك فيها لكثر غلطه عند إرادته إفراغ السياسة فى قالب أنظاره ، ونوع

(١) رجل مفن كمنبر يأتى بالعجائب والمعن الخطيب . ورجل معن مفن ذو فنون من الكلام .

استدلالاته ، من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض .

وأقل نظرة فى كتبه تنبئك بأنه آزر فى خدمة دولته ، وأسفاره فى الفرق ما بين « هاشم وعبد شمس » و « الرسائل الهاشميات » و « العباسية » و « العرب والموالى » و « العرب والعجم » و « وجوب الإمامة » و « الدلالة على أن الإمامة فرض » و « مناقب الترك » كلها شاهدة أنه ساهم السياسيين إلى الحد الذى استجازه لنفسه . وإنا إذا نظرنا إلى اتصاله بوزراء الدولة ، وإلى حرص كل واحد منهم على أن يختص به دون غيره ، ندرك أن من شغفوا بصحبته للانتفاع بفضله وعلمه والاستمتاع بحديثه ، لابد أن يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مشاكلهم ، علماً منهم بتأثير كلامه فى الأفكار ؛ ومنهم من كان يعمل لدولته فى حاضرها ، ويهتم لمستقبلها ، أمثال ابن خاقان وابن أبى دواد وابن الزيات .

ومن يؤلف كتاب الفرق ما بين هاشم وبنى عبد شمس ، لا يُعقل إلا أن يسير إلى جنب بنى هاشم ، وهم أصحاب الدولة القائمة ، والجاحظ خصوصاً بحكم مذهبه لا يتولى بنى أمية . ومن يؤلف « الهاشميات » و « كتاب العباسية » لا يتوخى غير خدمة العباسيين ، ولا يكتب إلا ما ينفع الهاشميين . وشىء آخر وهو أن أبا عثمان لو لم يتخذ هذه الخطة السياسية ، يراعى الخلفاء ، وأبناء الدعوة ووزراءهم ، لاستضعفه أعداؤه ، وكان له أعداء فى مذهبه ، وأعداء فى علمه وفكره ، وحسد غلاظ شداد من طبقة العلماء ، وطواغيت أغبياء ، يكرهون برداءة فِطَرهم كل من ينبغ ويشتهر . هذا وفى أرض المملكة أُلوف من المعجبين به ، وأكثرهم من الخواص ، والعوام متسلطون عليهم فى أغلب الأزمان والبلدان : فلولا السياسة التى اتبعها الجاحظ ، ولولا ما أدرك المخالف

والموالف ، أن له يداً عند السلطان ، وأنه يرعاه ويبسط عليه جناح رحمته ، لناله شيء من أذى العامة والخاصة ، بإيعاز أنصار السوء ؛ فأبو عثمان اتخذ بالطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يداً عند الخلفاء ورجال الدولة فغدوا له قوة وسنداً .

انظر إلى قوله في جملة طبقات النـاس : « وضرب آخر من الناس همج هامج ورعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم ، أعراب أجلاف ، وأشباه الأعراب ، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا في البلاد ، وإن أجدبوا آثروا العناد ، ثم هم موكلون ببغض القدوة ، وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون النكبة ، ويشمتون بالعثرة ، ويسرون بالجولة ، ويترقبون الدائرة ، وهم كما وصفوا الطغام والسفلة » .

وقال من رسالة في وصف العوام : « قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامة وما هم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة . وليست للخاصة طاقة بالعامة ، ولا للعِلْيَة قوة على السفلة . وقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله تعالى منهم ، فقال علي رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يتماسكوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا . وقال واصل بن عطاء : ما اجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا . قيل له قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطيان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والملاح إلى ملاحته ، وكل إنسان إلى صناعته ، وكل ذلك رفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين . وكان عمر بن عبد العزيز إذا نظر إلى الطغام والحشوة قال : قبح الله هذه الوجوه التي لا تعرف إلا عند الشر ... »

ذلك رأيه في العامة ، وإذا تدبرنا كلاماً له مثلاً ، يعتذر فيه عن السلطان ويعلل سبب نقمة بعضهم عليه ، لا نتحرج من أن نذهب إلى أن هذا الفصل

ما كتبه إلا ليقلل من شأن الناقمين على السياسة يومئذ ، وجوابه المقـدر أصح جواب يقوله سياسى ، وهذا هو :

« السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحـكم زارٍ ، ومن متعطل متصفح[1] ، ومن معجب برأيه ، ذى خطل ببيانه ، مولع بتهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملـكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجازُ العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله ، ومن محروم قد اضطغنه[2] الحرمان ، ومن لئيم قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقـه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب ؛ ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لـكان لذلك أهلاً وله مستحقًّا ، قد عره الإملاء ، وأبطره دوام الـكفاية ، وأفسده طول الفراغ ؛ وصاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفرقة ، نعاق فى الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب[3] ، وأذله الحـكم بالحق ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى

(١) الزارى العائب ، والمتصفح الذى ينظر فى الأمر بإمعان ، وتهجين الأمر تقبيحه ، والطالب والرائد الذى يرسل فى طلب الـكلأ .

(٢) اضطغنه جعله مشتملا على الضغن وهو الحقد .

(٣) الصغو الميل ، والثقاف كسحاب ما يسوى به الرماح أى يقومها ، والنعيق صوت الراعى بغنمه ، والهرج الفتنة والاختلاط .

الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارص لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوّى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب[1] قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين ، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام ، وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله » .

كتب هذا إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى المشكلة التى كان يراها رجال الدولة من أهم ما يُعالج يومئذ ، وهى مسألة اللغط فى الجيش من تسرب الأتراك إليه . ومن يقرأ رسالته فى مدح الأتراك لا يصعب عليه أن يدرك أن الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته ، كان هنا يجمجم ولا يصرح ، هو بحكم دمه وتربيته ومنشئه يحب العرب ، ويعد سائر الأمم دونهم فى المنزلة والجنس ، ويرى أن نساء العرب فى الجملة أعقل من رجال العجم ، ويقول : « فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم » . ويقول : « لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير . كما أنه ليس فى العرب لقريش نظير . وكما أنه ليس فى العرب للناس نظير » . وأكثر أبناء دعوته من الترك فى الجيش : وصرت للأتراك فى الدولة الكلمة المسموعة . فصب إلى أن يوفق بين المصلحتين . مصلحة الدولة فى اقتصاء على تحمس العنصر فى جيشها . وخوف من هؤلاء الأتراك ، وقد بدت طلائع سلطانهم . وتجلى بطشهم وفتكهم ، وكادت تعرف مراميهم . وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب فى كتابه هذا ، وإلى معذرة فيما موّه فيه . فقد نمع نفسه بأن أرضى الأتراك ، ونفع دولته بأن أهدأ الأفكار الثائرة ، وبضع صفحات

(١) رب الأمر إذا ساسه وقام بتدبيره .

من كلام الجاحظ أفعل فى الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم ، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والضن بصداقته .

عالج بما رأى مسألة تكاثر الأتراك فى الجيش ، وربما أحنق لثنائه على الترك نفوس بعض العرب عليه ، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته . وعالج أيضاً مسألة سياسية أخرى ، عنينا مسألة الشعوبية [1] من العجم أعداء العرب ، وقد رأى التناحر بين الفريقين يؤدى إلى انقسام المملكة على نفسها ، إذا فسد تركيب الجيش ، وإذا فسد تركيب الأمة ، فهبَّ بما أوتيه من حكمة يقاتل الشعوبيين ، ويصغر من شأنهم ، ويرفع من قدر العرب ، وما غايته من ذلك إلا خدمة الدعوة العباسية ، ويقول فى الطعن عليهم : « واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نَصَباً ، ولا أقل غُنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة » .

حاربهم فى البيان والتبيين ، وحاربهم فى كتاب الموالى والعرب ، وحاربهم فى رسالة النابتة ، وربما فى مواضع أخرى لم تنته إلينا من أقواله ، وحارب الموالى لكراهته « العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التى لا تبقى ديناً

---

(١) الشعوب هم الأعجم ، وفى العقد أن العرب تسمى العجمى إذا أسلم المسلمانى ، ومنه يقال مسلمة السواد ، والهجين عندهم لذى أبوه عربى وأمه أعجمية ، والمقرف الذى أمه عربية وأبوه أعجمى . والعجمى النصرانى ونحوه وإن كان فصيحاً ، والأعجمى الأخرس اللسان وإن كان مسلماً ، ومنه قيل زياد الأعجم ، وكان فى لسانه لكنة ؛ ودعى الفرس بالموالى فى الاسلام ؛ وكانوا يسمون أبناء الأحرار فى الجاهلية . ومن قبائل العرب كعبد القيس من كانت تفخر بموالبها .

إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب » قال : « وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشر من المفاخرة . . . .
وأى شىء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفاً بعتقك إياه » .

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة فى مداواة هذين الجرحين النغّارين فى جسم المملكة ، ناقش من يتنازعون فى صميم الجيش ، ويتنازعون فى صميم الأمة ، وكال بالكيل الوافى لكل من يدعى هذه الدعوى من الخاصة والعامة ، خلافاً لابن قتيبة الذى ادعى أن الشعوبية الذين عادوا العرب كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكَرَة القرى ؛ فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة ، فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

أى أن هذه العداوة كان العامة يبطنونها ويظهرونها للعرب ، والخاصة من الفرس براء منها . أما الجاحظ فأعقل من أن يغتر بالظواهر ، ويدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر . ويقول إن « الفرس أصحاب تنفج وتزيّد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية » .

ويترصد الجاحظ كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية وبنوه برجالها . فقد ذكر الكبر والمتكبرين فى العرب ، وانتهى به الكلام إلى مدح هاشم فى هذا الشأن ، على أسلوب تعتقد صحة كل ما روى لك ، تأمل كلامه فى هذا المعنى ، ونعلك تشاطرنا الرأى فى أن الجاحظ بالغ بالحط من خصوم العباسيين ، ليخرج من ذلك إلى مدح من يريد تجميل صورتهم قال :

« والمذكورون من الناس بالكبر ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ، ومن

العرب بنو جعفر بن كلاب و بنو زُرارة بن عُدَس خاصة ، فأما الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً ، وأنفسهم إلا أرباباً ، ولسنا نخبر إلا عن دهماء الناس وجمهورهم ، وكيف كانوا من ملوك وسوقة ، والكبر فى الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ؛ والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ، ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان ذمياً وأحس بما له فى صدور الناس تزيد فى ذلك ؛ واستظهرت[1] به طبيعته ، بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة ، فتفقَّدْ ما أقول لك فإنك ستجده فاشياً . وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر . وشىء قتلته علماً ، وهو أنى لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ، فأما بنو مخزوم و بنو أمية وجعفر بن كلاب و بنو زرارة بن عدس فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولو كان فى قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعى الحمية فيهم ، لكانوا كبنى هاشم فى تواضعهم وفى إنصافهم لمن دونهم » . وذكر فى مكان آخر أن بنى مخزوم ضرب بهم المثل ، ووصفوا فى كل غاية ، فقيل أتيه من مخزومى ، قال وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش لحظوة نسائها عند الرجال ، وكانت الجارية تولد لأحد آل الحرث بن هشام (المخزومى) فتتباشر النساء بها ، و يرى أهلها أنهم أغنياء لرغمة الخطاب فيها . ولذلك قال ابن هَرمة من قصيدة :

ومن لم يرد مدحى فإن قصائدى توافق عند الأكرمين سُوامى[2]

(١) استظهر به : استعان . (٢) السوم فى المبايعة كالسوام .

وتنفق عند المشترى الحمد بالندى نفاق بنات الحارث بن هشام

ونقل الثعالبى أن الجاحظ لم يترك مزيداً فى وصف قريش ومدحه إياهم وتخصيصه بنى هاشم ، فإنه رحمه الله ألقى جُمَّة فصاحته واستنزف بحر بلاغته فى فصل له وهو قوله : العرب كالبدن ، وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، ومناهل الظامئ إلى الحلم ، والسيف الحسام فى العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والإغضاء عن العثرة ، والعفو عند المقدرة ، وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكوم[(١)] ، والعز المشمخر ، والصيابة[(٢)] والسر ، وكالماء الذى لا ينجسه شىء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن ، ومنهم العمران ، والطيبان ، والسبطان والشهيدان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادى ، وساقى الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرّق بين الحق والباطل منهم ، والحوارىّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو نصف إليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، وسيد المرسلين وخاتم النبيين ... »

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو فى مدح بنى هاشم وهو قوله كانت الطواعين

---

(١) الأكوم المرتفع .

(٢) الصيب والصيابة بضمهما ويخففان الخالص والصميم والأصل والخيار من الشىء ، والصيابة السيد . وشمخر طال والمشمخر الجبل العالى .

تقع كثيراً فتصير تواريخ كطاعون عمواس ، وطاعون العذارى ؛ وطاعون الأشراف وغيرها ؛ ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بنى آدم ، فإنها كانت تحصـد فيهم حصداً . وفى ذلك يقول العمانى للرشيد :

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجنى

يريد ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال ، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد قد ذهب . وكلامه هـذا منقوض بوثائق التاريخ ، فإن الأمويين كانوا أرحم فى باب الجباية من العباسيين ، وفى رسالة الخراج التى كتبها أبو يوسف للرشيد وصف كثير لما كان يعذب به الناس فى الخراج فى دهر العباسيين ، على ما لم يعهد بعضه فى زمن الأمويين .

و بعد فإنك لا ترى فى كل ما سلم من كتابات الجاحظ إلا تناسياً منه لما يرتكب من المآثم فى المجتمع ، والسلطان فى العادة والعرف هو مسؤول عنه فى الدرجة الأولى . فوجهة نظره فى سياسته استصلاح أهل المجتمع ليصلح القائمون عليه بالضرورة ، ومن لطيف مأتاه أن لا ينبه الأذهان إلى عيوب الدولة لأنه يحاذر عليها أعداءها ، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها . ولعل الجاحظ كان يعرف من عيوب الخلفاء من بنى هاشم ومن عيوب رجالهم وعمالهم مالا يعرفه كثير من كبراء الدولة فى عصره ، وقصاراه الإغضاء اضطراراً لا اختياراً ، فهو يوجه نقده إلى الـكثرة الغامرة من الأمة ، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة . ولا يؤخذ من هذا أن الجاحظ صانع رجال الدولة ، ولو كان يحاول ذلك ، ولا يحس مقدار قبح هذه الصفة لاعتذر عنهم فى أكثر ما تم على أيديهم ، وأيدى أتباعهم من الشرور والمظالم ، ولأقام لهم الأعذار ، وهو لا يعدم حجة ، ولا يقصر فى بلاغة ،

بيد أنه رأى الإغضاء وإسدال الستر على ما هنالك ، وانطلق يضرب فيمن ينالون من السلطان بما اختار لقيام أمره من أجناس غير عربية أغضبت العرب ، ومن يكيدون من الشعوبيين أعداء العرب ، وهواه أبداً مع بنى هاشم ، زينهم فى عينه كونهم أصحاب السلطان . وهو القائل : « وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم » . ثم إن قصوره قليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لأنه يعد الكذب كبيرة ، ويكره التزيد فى كل شىء . فإذا موّه موّه بعقل ، وإذا أحب قد يترك مجالاً خفض خط الرجعة كما يقول المعاصرون ، لا يعمى عما ظهر من السيئات ، وإن اضطرته الدواعى إلى إغماض الطرف عن تردادها .

تهكمه ونوادره :

قلّ فى العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذى تذوقه الجاحظ . جدّ جداً لم يبلغه غير أفراد فى الآباد ، وهزل هزلاً قوى به على معاودة الجد ، فروّح عن نفسه وعمن حفّ به وعاشره وقرأ كتبه . أدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض حلاوة غير المداعبة والإحماض . ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلطف من شرة الدنيا وشقائها بتعمد ، وهو العليم بأن الضحك والإضحاك خلق مع البشر كالبكاء والإبكاء ، أن يهذب الناس فى هذه الناحية . والمرء يتعلم بالضحك أكثر مما يتعلم بالعبوس . وهو يريد أن لا يكون المرء جامداً ولا سائلاً بل فى حالة بين بين .

قال فى تعليل استعمال الهزل وفى منافعه ومضاره وفى حكمته وغايته :

« إن الكلام قد يكون فى لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعقّدوا فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمرى ما يذمّ ، وإن حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينهى حتى يكون كالغدر فلا . لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً » .

« والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرّق له مطرّق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه . ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطإ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء » .

هذا قوله فى رسالته التربيع والتدوير ، وهى الرسالة التى عبث فيها بأحمد ابن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء إبداعه ، وعاد بعد حين فقال : « وقد ذهب الناس فى المزاح إلى معان متصادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان . فأما المحامى على الهزل

والمفضّل للمزح ، فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى ، وأن الجدّ غضب ، والمزح جَمام ، والجدّ مَبْغضة ، والمزح محبة . وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم ، وربما عَرّضك لأشدّ منه ، والمزح ملذّ ، وربما عَرّضك لألذّ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجَدُّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزّوا ، وكدّوا ليستريحوا ، وإن كان المزح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً ، لأن صاحبه لا يكون إلا معرّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعية إلى الإفراط ، كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر ، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين ، فقد ساواه المزاح فيما هوله وباينه فيما ليس له ، وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزح ما صَيّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لأن الذى يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً ، لأن الذى بعده المزح ، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشيء قبيحاً أقبح من الشيء ، كما أن ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء » .

« وأما الذى عدل بينهما ، فإنه زعم أن المزح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه » . قال : « ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخيرة على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة ، كما أمر بالمداجاة ، وجوّز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوّغ

فى المباح ، كما شدد فى المفروض ، وجعل المباح جَماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال ، فصار الإطلاق كالحظر ، والصبر كالشكر ، وليس للإنسان من الخيرة فى الذكر شىء إلا وله فى النسيان مثله ، ولا فى الفطنة شىء إلا وله فى الغفلة مثله ، ولا فى السراء شىء إلا وله فى الضرّاء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمرّ الحق صفحاً ، لهلكَ العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الإنسان كل ما أنسيه لَشَقى ، ولو جدّ فى كل شىء لانتكث ، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً ، كما يكون النسيان للسلامة سبباً . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم » .

أبان أبو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه فى الهزل والجد ، وفى مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره فى ذلك ، وما ندرى إن كانت حقيقة آراءهم أم هو تصور أنها آراؤهم فأوردها بهذه الصيغة ، ونسجها هذا النسج . اعتاد الإنسان المزاح والتنادر والمرح ، ولكن إدخال ذلك فى هذا القالب العلمى وتدوينه بالتأليف مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد ، إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شؤونها ، ومطرز نصوصها ومتونها .

قال إن « أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية ، لأنهم لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولائمة الأدباء » .

فهو إذاً يتعمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد ، لأن « الأذن مجاجة وللنفس حمضة » كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن « المزاح إذا كان حقًا أو مقاربًا ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلا ، ليس من القبيح ولا المنكر ، ولا من الكبائر ولا من الصغائر ، ورغبات الناس متفاوتة » و إنما الكتاب « مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين » . ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة ، أن الأذن لاتعى كل ما تسمعه ، وهى مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام . هكذا شرحها الجاحظ وقال إنها كلمة للقدماء .

وقال فى كتابه النساء : وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعانى الصعبة التى تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولابد للكتاب ، من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، وينفى النعاس عن المستمع .

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر ، وما ينفعهم وما يضرهم ، وما يحملهم وما يحمسهم فقال : « وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع ، وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضاً غير منشرح ، وأن يرى لونه إلى الحمرة والسواد من غير مرض ، وأن يكون طائش القلب ، وأن يكون للدعابة والمزح كارهاً ومنه عائباً ، وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة . ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلاً طلقاً ، ذا منظر بهى ، وكلام شهى ، سبط الجبين غير منقبض ، ولا نزق غلق[1] قلق ، وغير كاره للدعابة والمزاح ، يذكر من يذكر بخير ، بين المحاورة

(١) غلق ضيق خلق عسر رضا ، ونزق سريع غضب .

متواضعاً » . « ورجال الجد غير رجال الهزل ، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ ، ولولا التحصيل والموازنة ، والإبقاء على الأدب والديانة ، لشدة المحاسبة ، لما قالوا لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال » .

***

ربما لم ننس أن الجاحظ كان دميم الوجه ، قبيح التقاطيع ، مختل القَسِمات ، وكان الأخفش أحد مشايخه — والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرها — أجلعَ أيضاً — والأجلع الذى لا تنضم شفتاه على أسنانه — ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا إذا اجتمعا ، والجاحظ ناتئ العينين ، تألفت منهما صورتان غريبتان . ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا أن يفارق شيخه بعد أن أخذ ما عنده ، وآثر أن يبقيا صديقين لبعض المشاكلة فى الصورة والخَلق ؛ ولعل الجاحظ ما تعفف كثيراً عن العبث بأستاذه ، وهو ابن النكتة الحارة لا الباردة ، وعنده أن « النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ، ويأخذ بالأنفاس ، النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن فى الحارة جداً أو الباردة جداً » . ولذا تراه كان يحكى نوادر العوام بألفاظ العوام ، حتى لا تفقد النكتة حليتها الأولى ومؤثراتها الخاصة . وقال عن نفسه إنه وصف للخليفة المتوكل لتأديب أحد أولاده ، فلما رأى صورته استبشعها فصرفه . وقال عن نفسه إنه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها .

ومن نكاته قوله : ومن البخلاء المذكورين أبو الهُذَيل ، أهدى مرة إلى يونس بن عمران دجاجة ، وكانت دون ما يُتخذ ليونس ، إلا أنه لكرمه وحسن

خلقه ، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، فقال له : كيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجباً من العجاب ، قال : أو تدرى ما حسنها ، وتدرى ما سمنها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالسمن والحسن ، وتدرى بأى شيء كنا نسمنها ، وفى أى مكان كنا نعلفها ؟ ولا يزال فى هذا ، ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل ؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ، وإن ذكروا بطة أو عَناقاً أو جزوراً أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ، وإن استسمنوا شيئاً من الطير أو البهائم أو الدجاج قال : لا والله ، ولا تلك الدجاجة ؛ وإن ذكروا عذوبة الشحم قال : عذوبة الشحم تُصاب فى البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال : كان ذلك قبل أن أهدى إليك تلك الدجاجة بشهر ، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلا يوم ، وكانت مثلاً فى كل شيء ، وتاريخاً لكل شيء » . ويونس بن عمران من أرباب البيوتات فى البصرة كان ، وهو الذى رضخ للجاحظ بدنانير ابتاع بها ما يقتات به ، وأخرج أبا عثمان من تهكم أمه به وبدفاتره ، لأول أمره ، على ما مر بنا فى الفصل الذى عقدناه لوصف نشأته ونعمته . وعلينا أن نتأمل فى هذه القصة قوله : « ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل » .

فالجاحظ كما رأيت يسلى نفسه بهذه المداعبات ، ويبسم ابتسام العظمة ؛ وإذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوئ الدهر فقال جاداً : « يصف استحالة الزمن ، وفساد الأيام ، ودولة الأنذال » :

« وقدماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، ونبذ للمشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه العاقبة ، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل ، دليلاً على سخافة الرأى » . وبعد أن قال فيمن وجد فيه الفسولة الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، إنه إن زل قيل حَكَم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى فى كلامه وهو يقظان ، قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة . قال : فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفصل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه ، كما كانت الدائرة على ضده . ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يَحْظى به خدينه ، ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الأيام حيث يقول :

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولاقِهم بالجهل فعلَ أخِى الجهل
وخلّط إذا لاقيت يوماً مخلطاً ... يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقـله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال : « فوالله ما عُذِّبت أمّة برجفة ولا ريح ولا سخطة ، عذاب عينى برؤية المغايظة المدمنة ، والأخبار المهلكة ، كأن الزمان يوكل بعذابى ، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق ، ولا يصطبح فى أول نهاره إلا برؤية من يكرهه ويَغُمُّه . »

وهذه هى الناحية العابسة من نفس الجاحظ المرحة ، رأيته هنا يذكر ما يحيط به من المكدرات والمضنيات حتى ليسىء ظنه بالصلاح ، ويفضل عليه الطلاح ، شأن المتشائين والسوداويين . ونفس عُمِّرَت كثيراً ، واختلفت عليها الأحوال

قبضاً و بسطاً ، وخفضاً ورفعاً ، من مثل نفس الجاحظ لا تكون على حالة واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر : رأى من الخلفاء أشكالاً ، ومن الأمراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات ، ومن أبناء المجتمع من لا يحصيهم غير خالقهم ، ومن ضروب الأخلاق ما لا تتسع لذكره الأوراق ، وليس من شأن الدهر أن يثبت على حالة واحدة حتى يفسح للجاحظ أن يعيش قرناً على وتيرة واحدة ؛ وهو القائل لما مسخ الإنسان قرداً أنزل فيه مشابه من الإنسان ، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان . وأنشد :

وكان لنـــا أصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خـــلدوا

تساقوا جميعاً كؤوس المنو ن فمات الصديق ومات العدو

ولقد غلبت الدعابة على الجاحظ وتجلت خفة روحه وتهكمه حتى فى بعض ما يكتب من أمور الجد ، وقد يفهم تهكمه من أسلوب الأداء فى عبارته . أليس فى قول الجاحظ لما تكلم على الخنزير فقال : « لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير ، وكان ذلك بعض الأسباب التى مسخ بها الإنسان خنزيراً ، فإن القرد قبيح الوجه قبيح فى كل شىء ، وكفاك به جرى المثل المضروب به ، ولكنه من وجه آخر مليح ، فملحه يعرض على قبحه فيمازجه ويصلح منه ، والخنزير أقبح منه لا أن قبحه مصمت بهيم فصار أسمج منه كثيراً » . أليس فى قوله هذا شىء من التهكم وأسلوب من أساليب الهزل فى الجد ؟

وقال فى وصف الإنسان وما أخذه من طبائع الحيوان : « أو ما علمت أن الإنسان الذى خلق له ما فى السموات والأرض وما بينهما كما قال تعالى : وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً — حتى سموه العالم الصغير سليل [illegible]

الـكبير حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما فى العالم الـكبير ، « ووجدوا له الحواس الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة ، ووجدوا له صولة الجمل ، ووثوب الأسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصِّفْرِدِ . وجمع الذَّرة ، وصنعة الزَّرافة ، وجود الديك ، وإلف الـكلاب ، واهتداء الحمام ، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثاً . ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصوله وحقده ، وصبره على حمل الثقل . ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واسترواحه ، وتوحشه وشـدة قلبه ، كما أن الرجل يصيب الرأى الغامض ، المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له داهية وذو مكر وصـاحب خدعة ، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه فى المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له غبي وأبله ومنقوص » وعلى ما فى هذا الـكلام من بحث نفسى لا نخليه من معانى التهكم والهزل ، وعنده « أن الـكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .

ومن نوادره أنه سُمع يقول : رأيت جارية فى سوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، فدنوت منها وجعلت أقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ : قالت : مكة . قلت : الله أكبر قد قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسـود . قالت : إليك عنى ، ألم تسمع الله يقول : لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؟

ومنها : سمع أبو بكر محمد بن إسحق يقول : قال لى إبراهيم بن محمود ونحن ببغـداد : ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله . قال : إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه . ثم لم

يزل بي حتى دخلت عليه يوماً ، فقدم إلينا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك ، فرمقني الجاحظ ، فقال لي : دعه يا فتى ، فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني ، فقدمت إليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمي بثلاثمائة رطبة .

وحدث الجاحظ قال : وقفت أنا وأبو حرب على قاصّ ، فأردت الولع به . فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح ، لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا ، فقال لي : حسيبك الله ! إذا لم ير الصياد طيراً كيف يمد شبكته ؟

وروى أن رجلاً من أهل السواد يتشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له : بلغني أنك تبغض علياً ، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . فقال : والحوض في يده يوم القيامة ؟ فقال : نعم . فقال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ فقال : والله لا تركت النادرة ، ولو قتلني في الدنيا ، وأدخلني النار في الآخرة .

ومنها : حكى بعض أبناء البرامكة قال : تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار فصغتها عشرة آلاف إهليلجة[1] ، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة . فَخُبِّرت أن الجاحظ بها ، وأنه عليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ؛ فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلى خادمة صفرى فقلت : رجل غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ . فبلّغته ، فسمعته يقول : قولي له ما تصنع بشق مائل

(١) الإهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ، ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيج ومنه كابلي ينفع في الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع . (القاموس)

ولعاب سائل ، ولون حائل . فقلت للجارية : لابد من النظر إليه . فقال : هذ رجل ورد البصرة ، وسمع بى و يريد أن يقول رأيت الجاحظ ، فأذن لى فدخلت وسلمت ، فرد رداً جميلاً وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت له : أنشدنى شيئاً ، فقال :

لئن قُدّمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدَّما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فتُبرمُ منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت ، فلما قربت من الباب قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج ؟ قلت لا . قال : الإهليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلىّ منه . فقلت نعم ، وعجبت من وقوعه على خبرى مع كتمى له ، و بعثت له منه شيئاً .

قال الحصرى بعد إيراد هذه القصة : وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره ، إذ كان وهو فى هذه السن العالية ، والفالج الشديد ، تنشر عنده الأخبار ، ولا تطوى عنه الأسرار ، فكيف كان قبل هذا ؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال .

قال أبو عثمان ما أخجلنى أحد مثل امرأتين رأيت إحداها فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة وأريد أن تمشى معى ، فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلىّ بفصّ وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ،

فقلت : يا ستى ما رأيت الشيطان ، فأتت بك وقالت ما سمعت .

لما جيء به مقيداً من البصرة إلى بغداد عقبى مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، أمر أحمد بن أبى دواد أن يفك قيده ، فجيء بالحداد ، فقال الجاحظ : لتفكوا عنى أو لتزيدونى ؟ فقيل له : بل ليفك عنك ، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال له : إعمل عمل سنة فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دواد وأهل المجلس منه .

صنف كتاباً من كتبه وبوّبه وبثه فى الناس ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إن المصنف كالمصور ، وإنى قد صورت فى تصنيفى صورة كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك . حتى عد أعضاء الصورة .

وسأله شخص كتاباً إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها : « كتابى إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حقه لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك » . ورجع إليه الرجل ، فقال الجاحظ : كأنك فضضت الورقة ؟ قال : نعم . قال : لا يضرك ما فيها فإنه علامة لى إذا أردت العناية بشخص ، فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك . فقال : ما هـــذا ؟ قال : علامة لى إذا أردت أن أشكر شخصاً .

وحكى أن أبا طاهر قال : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسن

واعتلّ فى آخر عمره وهو فى منظرة له وعنده ابن خاقان جاره . فقرعنا الباب فلم يفتح لنا ، وأشرف من المنظرة فقال : ألا إنى قد حوقلت وحملت رميح أبى سعد وسقت الغنم[1] ، فما تصنعون بى ؟ سلموا سلام الوداع . فسلمنا وانصرفنا .

دخل أحدهم على الجاحظ فسأله عن حاله ، فقال له الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلىّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على اللين الطرى ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج . فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلىّ ، فهذا هو الفرج .

وقال : إن تهيأ لك فى الشاعر أن تبرّه وترضيه وإلا فاقتله .

حكى الجاحظ أنه ألف كتابا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال : دخلت يوما مدينة فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ، ورحب بى فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب . قال فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتّاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل مات له ميت ، فحزن

---

(١) قوله حوقلت أكثرت من قولى لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض ، وقوله رميح أبى سعد هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من شاخ أخذ رميح أبى سعد ، وقوله سقت الغنم هو عند العرب كناية عن الهرم ، لأن سائق الغنم يطامن رأسه .

عليه وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ماتريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله ، فدخلت إليه و إذا به جالس فقلت : عظم الله أجرك لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هـذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها . فقال أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : وهـذه منحسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : إعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول :

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمة ردى علىّ فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب وجلست فى الدار . فقلت : يا هذا إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين . وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى .

وكان الجماز البصرى شاعراً ماجناً خبيث اللسان . وكان له مع الجاحظ ملاحاة ومهاجاة قد يكون فيها إقذاع وإفحش . وكان الجاحظ يعبث أيضاً

بأبى هفّان الشاعر وغيرهما من الشعراء والكتاب والمؤلفين والقصاصين وكل ذلك من غير تبذّل وإسفاف .

ومعانى الجاحظ فى هذا الباب مذكورة فى كلام له ، قال : ولم تر العيون ، ولا سمعت الآذان ، ولا توهمت العقول عملاً اجتباه ذو عقل ، أو اختاره ذو علم ، بأوبأ ولا أفسد لعرض ، ولا أوجب لسخط الله ، ولا أدعى إلى مقت الناس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا أظهر نفوراً عن التوبة ، ولا أقل إدراكا عند الحقيقة ، ولا أنقص للطبيعة ، ولا أمنع من العلم ، ولا أشد خلافاً على الحلم ، من التكبر فى غير موضعه ، والتنبل فى غير كنهه . وما ظنك بشىء العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والتنفج أليفه ، والصلف قعيده . والبذّاخ متزيد ، والنفاج كذاب ، والمتكبر ظالم ، والمعجب صغير النفس ، وإذا اجتمعت هذه الخلال ، وانتظمت هذه الخصال فى قلب طال خرابه ، واستغلق بابه ، وشر العيوب ما كان مضمناً بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب .

نماذج من رقاعه وكلماته :

(١) كتب إلى ابن أبى دواد يستعطفه : « ليس عندى ، أعزك الله ، سبب ، ولا أقدر على شفيع ، إلا ما طبعكَ الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن ، وإثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين فتكون خير معتب ، وأكون أفضل شاكر ، ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبيلاً للانقطاع إليكم ، والكَوْن تحت أجنحتكم ، فيكون لا أعظم بركة ، ولا أنمى بقية ، من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك ، جعلت فداك ، عاد الذنب وسيلة ، والسيئة حسنة ،

ومثلك من انقلب به الشر خيراً والغُرم غُنماً ، ومن عاقب أخذ حظه ، وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذكر في الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر[1] ، وأرجو ألا أُضيعَ وأهْلِكَ فيما بين عقلك وكرمك ؛ وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء ، العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، وإن كان العفو العظيم مستَطْرَفاً من غيركم ، فهو تلاد فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ، حين كان لا يمر بملإ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم كلما أسمعوكَ شراً أسمعتهم خيراً ، فقال : كل امرئ ينفق مما عنده ، وليس عندكم إلا الخير ، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناء بالذي فيه ينضح .

(٢) وكتب إلى محمد بن عبد الملك : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمكَ من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبكَ إيثار الأناة ، فقد خفت ، أيدكَ الله ، أن أكون عندكَ من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ؛ وبعد فقد قال عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت :

وإن امرأً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليكَ ، أصلحكَ الله ، فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك

---

(١) مرزئة سيئة مؤلمة .

قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عُمَرُ كان خيرًا لى منكَ ، رهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى ، أيدك الله ، لخدمة فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، و إلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، و إلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، و إلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جملك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصرّ ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم أيدكَ الله ، أن شين غضبك علىّ كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم والسلام » .

(٣) وكتب إلى أبى حاتم السجستانى و بلغه عنه أنه نال منه : « أما بعد فلو كففت عنا من غَربك ، لكنا أهلاً لذلك منك » ؛ فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح .

(٤) وله فصل فى استنجاز وعد : « أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا ، أبقاك الله ، من ضيقها ، وشديد غمها ، بنَعَم منك مثمرة أو مريحة ، أما بعد فإن شجر مواعيدكَ قد أورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل ، أما بعد ، فإن سحاب وعدك قد برقت ، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال » .

(٥) وله فصل فى عتاب : « أما بعد فإن المكافأة بالإحسان فريضة ، والتفضل على ذوى الإحسان نافلة ، أما بعد فلها (؟) السكوت على لسانك ، إن كانت العافية من شانك ، أما بعد فلا تزهد فيما رغب إليك ، فتكون لحظك معانداً ،

والنعمة جاحداً ، أما بعد فإن العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت فى حزبه ، أما بعد فإن الأشخاص كالأشجار ، والحركات كالأغصان ، والألفاظ كالثمار ، أما بعد فإن القلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما فى الوعاء ينفد ، إذا لم يمده المعدن ، أما بعد فكفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً ، أما بعد فإن احتمال الصبر على لذع الغضب ، أهون من إطفائه بالشتم والقذع ، أما بعد فإن أهل النظر فى العواقب ، أولو الاستعداد للنوائب ، وما عظمت نعمة امرئ إلا استغرقت الدنيا همته ، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله ، جعل الأيام مطايا عمله ، والآخرة مَقيل مرتحله ، أما بعـد فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد فى الرزق والأجل ، والاستغناء غير ناقص المقادير ، أما بعد فإنه ليس كل من علم أمسك ، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران ، أما بعد فإن أحببت أن تتم لك المِقَة[1] فى قلوب إخوانك فاستقلّ كثيراً مما توليهم ، أما بعد فإن أنظر الناس فى العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز ، واستلّ حقده بالرفق والتحبب » .

(٦) وكتب إلى ابن الزيات : « نحن ، أعزك الله ، نسحر بالبيان ، ونموّه بالقول ، والناس ينظرون إلى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثّر فى أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فإن المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب » .

(٧) وله فى وَصاة : « أما بعد فإن أحق من أسعفته فى حاجته ، وأجبته إلى طلبته ، من توسل إليك بالأمل ، ونزع نحوك بالرجاء ، أما بعد فما أقبح الأحدوثة ، من مستمنح حرَمْته . وطالب حاجة رددته ، ومثابر حجبته ،

(١) مقة : حب .

ومنبسط إليك قبضته ، ومقبل إليك بعنانه لويت عنه ، فتثبت فى ذلك ولا تطع كل حَلاَّف[1] مهين همّاز مشاء[2] بنميم ، أما بعد فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا يلزمنا ذمامه ، وبلوغ موافقته من أياديك عندنا ، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته ، فأَوْلنا فيــه ما نعرف موقعنا من حسن رأيك ، وتكون مكافأة لحقه علينا ، أما بعد فقد أتانا كتاب فى فلان ، وله لدينا من الدمام ما يلزمنا مكافأته ، ورعاية حقه ، ونحن من المعتبة بأمره ، على ما كان فى حرمته ، و يؤدى شكره » .

(٨) وله فى الاعتذار : أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، أما بعد فإن أحق ما عطفت عليــه بحلمك ، من لم يتشفع إليك بغيرك ؛ أما بعد فإنه لا عوض من إخائك ، ولا خلف من حسن رأيك ، وقد انتقمت منى فى زلتى بجفائك ، فأطلق أسير تشوقى إلى لقائك ؛ أما بعد فإننى بمعرفتى ببلوغ حلمك ، وغاية عفوك ، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ؛ أما بعد فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك ، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه ؛ أما بعد فقد مسنى من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك ، مع حبسك الاعتذار من هفوتك ، ولـكن ذنبك تغتفره مودتك ، فامنن علينا بصلتك ، تكن بدلاً من مساءتك ، وعوضاً من هفوتك ؛ أما بعد فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدركَ عنده ، ولم يتسع لهنات الإخوان ؛ أما بعد فإن أولى الناس عندى بالصفح من أسلمه إلى ملـكك التماس رضاك ، من غير قدرة منك عليه ؛ أما بعد فإن كنت ذممتنى على الإساءة فلم رضيت لنفسك المكافأة اهـ .

وتكرير « أما بعد » والعادة ذكرها مرة فى أول الخطبة ، ومعناها « بعد

(١) المهين : الضعيف الحقير .

(٢) الهماز والهمزة الذى يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم أى الذى يهمز أخاه فى قفاه ومن خلفه ، والمشاء الذى يمشى بين الناس بالنميمة .

دعائى لك » من أجمل مكرراته ؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب فى مثل هذا التكرار يبتدع أسلوباً أوأن ذلك من جملة مبتدعاته فى الكتابة .

(٩) وله فى التعازى : أما بعد فإن الماضى قبلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . أما بعد فإن فى الله العزاء عن كل هالك . والخلف من كل مصاب ، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة . أما بعد فإن الصبر يعقبه الأجر ، والجزع يعقبه الهلع ، فتمسك بحظك من الصبر ، تنل به الذى تطلب ، وتدرك به الذى تأمل ، أما بعد فقد كفى بكتاب الله واعظاً ، ولذوى الألباب زاجراً ، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله أهل المعصية .

(١٠) ومن كلامه : زينك الله بالتقوى ، وكفاكَ ما أهمك من الآخرة والأولى . من عاقب أبقاك الله على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة عقوبة الإصرار ، فقد تناهى فى الظلم . ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالى ، والأدانى والأقاصى ، فقد قصر والله . لقد كنت أكره سرف الرضا ، مخافة أن يؤدى إلى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ ، وغلبة الغضب ، من طياش عجول نحاش ، ومعه من الخُرْق مقدار قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء ، وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك ، إلا أن التأثر فى الرقق أسرع ، وضده فى الغلاظ الجعدة أكمل . ولذلك اشتد جزعى عليك من سلطان الغيظ وغلبته ، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك . من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى علته ، وفى سبب إخراجه إلى معدنه الذى منه نجم ، وعشه لدى منه درج ، وإلى جهة صاحبه فى التسرع والتبت ، وإلى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة ، وكل ذلك ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الغيض

فى المقادير ، أو من طريق الأنفة ، وغلبة طباع الحمية من جهة الجفوة ، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به فى حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه غير ممتنع منه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حكيماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك ، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض ، والنفار الغالب ، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، وصوّب رأيك عالم الأشراف . والأناة أقرب من الحمد ، وأبعد من الذم ، وأنأى من خوف العجلة ، وقد قال الأول : عليك بالأناة ، فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شىء إلا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره ، وإنما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استبطنته بالتوراة ، وأوجرته بالإنجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته . وان يسكن غضب العبد ، إلا ذكره غضب الرب . فلا تقف ، حفظك الله ، بعد مضيك فى عتابى التماساً للعفو عنى ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويمسك إمساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا يبرئ الهوى من الخطأ ، ولا تفكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو . فقد زل آدم (ص) وقد خلقه بيده . ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ،

وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة . والله يعلم وكفى به علياً .
لقد أردت أن أفديك بنفسى فى مكاتباتى ، وكنت عند نفسى فى عداد الموتى وفى حيز الهلكى ، فرأيت من الخيانة لك ، ومن اللؤم فى معاملتك ، أن أفديك بنفس ميتة ، وأن أريك أنى قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم .
وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خير من مودة الأخ الطارف ، وإن ظهرت مساعيه وراقت جدته . سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك .

(١١) ومما كتب إلى ابن الزيات من كتاب : لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى ما دام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك ، وإن تطاولت به الأيام . فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته ، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال ، ومهما كان من ذلك فإن أجمع بين الإساءة والإنكار ، وإن كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فإنى من شاكرى أهل هذا الزمان ، وحَسَن الحال متوسط المذهب ، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين ، فوق مرتبتى فى الشاكرين . وقد كانت على بك نعمة أذاقتنى طعم العز ، وعودتنى رَوْح الكفاية .

ومن كلماته ما قاله فى كتاب الأدب : اعلم أن تثمير المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، وتأليف للإخوان ، وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه

والرهبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به ، فاجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا .

ومما قال للسدرى مرة : إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة . فقال السدرى وكيف ؟ قال : لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت . فقال له السدرى : فكيف عقل العجوز ؟ قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلاً .

ومن كلماته : يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القِحَة ، قوّالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العىّ ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافذاً لا يبلغ الطيش .

ومن كلماته فى الطيب : فأما الطيب فإنى لم أشم رائحة قط أحيا للنفس ، ولا أعصم للروح ، ولا أفتق ولا أغنج ، ولا أطيب خمرة من ريح عروس ، إذا أحكمت تلك الأخلاط ، وكان عرف رأسها وبدنها سليماً ، وإن كانت بمدينة الرسول ، فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة .

وقال فى نفسية الأغنياء : وبعد فلا يخلو صاحب الثروة ، والصامت الكثير ، الخامل الذكر ، من أن يكون ممن يرغب فى المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجارية الحسنة ، والدار الجيدة ، والمطعم الطيب ، أو يكون ممن لا يرغب فى شىء من ذلك ، فإن كان لا يرغب فى هذا النوع كله ، ولا يعمل فى ماله للدار الآخرة ، ولا يعجب بالأحدوثة الحسنة ، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت ، فإن هذا حمار ، وأفسد طبعاً من الحمار ، وأجهل من الحمار ، وقد رضى أن يكون فى حالة أسوأ حالاً من الوكيل . . .

وقال : إن الذى تشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التى تضاف إلى ابن الكلبى والشَرْقى بن القُطامى وابن أبى اليقظان وأبى عبيدة النحوى ، بل إلى دَغْفل بن حنظلة وابن لسان الحُمَّرة ، بل إلى صُحار العبدى وإلى أبى النطاح اللخمى ، بل إلى المختار العدوى وصبيح الطائى ، بل إلى منجور بن غيلان الضبى وإلى سطيح الديلى ، بل إلى ابن شَرْيَة الجُرْهُمى وإلى زيد بن الكيس النمرى ، وإلى كل نسّابة راوية وكل متفنن علامة . ووصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام فقال : والله لهو أنسب من سعيد بن المسيِّب وقَتادة بن دِعامة للناس ، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى الله عنه . . .

وقال فى نفسية المجتمع النصرانى فى عهده : ووقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز كلام ، فقال له الفتى : ما ينبغى أن يكون فى الأرض رجل واحد أجهل منك . وكان ابن فهريز فى نفسه أكثر الناس علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثلقة ، فقال للفتى : وكيف حلت عندك هذا المحل ؟ قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الحَلق ، وأنت دقيق الصوت ردىء الحَلق ، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها ، وأنت خفيف اللحية صغيرها ، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً فى الرياسة ، وأنت أشد الناس عليها كلَباً ، وأظهرهم لها طلباً . فكيف لا تكون أجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة . وأنت قد شغفت فى طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك .

وقال : رأيت أربعة أشياء لم أر مثلهن : رأيت سائلاً يسأل فى حمام ، ويأخذ مواعيد مَنْ فيه إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلماً يعلم الصبيان القرآن والصبى الغناء ، ورأيت حجاماً يحجم بنسيئة إلى لرحمة ، ورأيت حمالين يحملون جنازة ،

فمكثا أعيوا وضعوا عن رءوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر .

وقال : تسعة موجودة فى تسعة : الخفة فى الصم ، والهوَج فى الطوال ، والعجب فى القصار ، والنبل فى الربعة ، والملاحة فى الحول ، والذكاء فى الخرس ، والحفظ فى العميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العرج .

ومن كلامه : أجمع الناس على أربع : أنه ليس فى الدنيا أثقل من أعمى ، ولا أبغض من أعور ، ولا أخف روحاً من أحول ، ولا أَقود من أحدب .

خلوده ومجده :

ويسأل القارئ بعد أن رأى صورة الجاحظ فى كثير من مظاهره ، ولمست يداه موضع العجب من نبوغه وافتنانه فى علمه وأدبه ، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود ؟ وإلى أى مدى بلغت تأثيراته فى ديار الإسلام ؟ ولا بدَّ قبل بحث خلوده أن نتعرف معنى الخلود ، ثم ننظر إذا استحق الجاحظ هذه الصفة .

يقول اميرسون الفيلسوف الأميركى : « إن الكِتاب الصالح كالمجتمع الصالح ، وإنك إذا أدخلت رجلاً منحطًّا فى حلقة جماعة راقين لا ترفعه لأنه ليس منهم ، ولن يصبح مساوياً لهم ؛ هكذا حال كل مجتمع يحمى نفسه ، وأهله واثقون أن هذا الدخيل فيهم ، والواغل عليهم ، وإن كاثرهم بجسمه ، فلن يشركهم بمكانتهم .

« يُقاس تأثير الكلام فى الجماعات بما انطوى عليه من دقة فى الفكر . وإن كتاباً ينبه ذهنك ويرهف حسك ، ويسمو بك بصوت فصاحته العالى ، ليكتب له فى أفكار الناس أعظم الأثر ، وليس تأثيره بالسريع ، إلا أنه مستديم ثابت . وأنت إذا لم تستفد شيئاً من صفحات هذا الكتاب ، ثق أنه سيفنى كما يفنى الذباب من ساعته . الكاتب هو الذى لا يتقيد بذوق العصر فقط ، وإنما يملى

ما على ورائده الإخلاص . والحجة التى لا تفعل فى نفسى فعلاً عملياً قد لا تفعل فيك أيضاً » .

يقول سدنى : « أنظر فى قلبك واكتب — ومن يكتب لنفسه يكتب لجمهور يبقى . فعليك إن أنشأت شيئاً أن تُرضى هواك أولاً ، وليعلم الكاتب الذى اهتدى إلى موضوعه بعينيه وأذنيه ، لا بقلبه ونفسه ، أنه ما استفاد ولا أفاد . ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدّر له من الرواج ، ولو أجمع نصف الناس على استحسانه ، فهو يفنى إذا خلا من حرارة ، والحرارة وحدها تهب الحياة . ونحن إذا انتفخنا حتى تمزقنا ، لا نتسامى إلى أكثر مما حصلناه من قدر .

« لا دخل للحظ فى الشهرة الأدبية ، ولا يتوقف صدور الحكم النهائى على كتاب بما يقوله فيه أصحاب الأهواء من القراء، المكثرين من الضجة حوله أول نشره ، وتحكم على مبلغه من الإجادة محكمة ، لك أن تقول إنها مؤلفة من ملائكة ، أو من جمهرة لا تحابيك برشوة ، ولا تخافك لبأسك وسلطانك ، وهى تقضى وتمنح جِلاء[1] المجد وعلاقيته لمن هو خليق بهما . وأمثال هذه الأسفار فقط يحق لها أن تحيا . أما المذهَبَة المُغلفة المعمولة بالرُّقوق المزينة بالنقوش ، وإن وزعها صانعها على الورّاقين بأسرهم ، فإنها تبيد ، ولا تُصيب من الرواج أكثر مما لها الحق فيه .

« ليس فى الأرض أزيد من اثنى عشر شخصاً ، فى آن واحد ، يقرأون كتاب أفلاطون ويفهمونه . ويتعذر عليك أن تجمع من مجموع قرائه من النقود ما يصح الاعتماد عليه لإعادة طبع كتابه . ومع هذا ترى مُصَنِّفه يصل إلى كل

---

(١) الجلاء : ما خاطب به من الألقاب الحسنة ويمكن إطلاقها على ارتب فى عهد الحديث ، والعلاقية والجمع العلاق : الأغب .

جيل لينتفع به هؤلاء الأشخاص القلائل ، كأن الله أرسله إليهم مباشرة . »

يقول بنتلي : « ما من كتاب سقط و باد إلا بما حوته دَفَّتاه — ولا يحدد بقاء الكتاب بما نال من حب أو بغض ، ولا يخلد إلا بما فيه من قيمة ذاتية ، و بما يحمل من حاجات العقل على الدهر .

« لا يعرف الرجل العظيم أنه على شيء من العظمة ، والعظمة لا يحرزها إلا إذا أتى عليه قرن أو قرنان ، لتُكشف للملإ حقيقته . هذا وهو يعمل لأن من واجبه أن يعمل ، والدواعي والبواعث حاكمة عليه ، و يومئذ تراه يعظم في العيون ، وكل ما انبعث منه يغدو رمزاً عاماً ، ومثالاً يقتدى به ، حتى ما كان من حركة إصبعه الصغرى ، وما تناوله من طعام و إدام ، فيمسي بذلك صاحب السلطان الأكبر على العقول ، والدهماء تُعْجب بطريقته .

« قالوا إن الصورة لا تكذب ، والمرء إذا نطق بالحق ، بفكر حق ، كانت عينه أصفى من السماء ، ومتى خالف ذلك وأورد الزور والبهتان ، اختلجت عينه ور بما أُصيبت بالحَوَل .

« وأنَّى لك بمحام لم يقتنع ببراءة موكله أن يُقنع المحكمة لتقضي له بالبراءة ؟ هذا القانون يسري على أفكارنا ، فنحكم على كل أثر بالفكر الذي عرض للمؤلف ، يوم أنشأ ما أنشأ من بنات أفكاره . وهيهات أن نقول قولاً صحيحاً أبداً في الحكم على كل شيء ، ولو استظهرناه وتدارسناه ، ولن يتطاول المرء إلى مكانة لا يستحقها ، و باطل أن نحاول معرفة ما يقول الناس فينا ، و باطل كل الباطل تخوفنا من أن لا نُعرف . ومتى أيقن المرء أنه يحسن شيئاً ، وأنه يبذ فيه غيره في باب الإحسان ، فليثق أن جميله معترَف به ، و إحسانه مقدور قدره ، في كل زمان ومكان . العالم ملئ بالأحكام ، و إلى أي مجلس اختلف المرء ، وفي

كل عمل حاوله ، لا يُكال إلا بقدره ، ولا يُعلَّم إلا بِمِيسَمه .

« قد تقوم للدعوى قائمة ، وهى تعجز عن الوفاء بعمل عظيم ، وما كانت الدعوى يوماً خليقة بإتمام أمر يُلابس عظمة حقيقية . فبالدعوى لم تكتب الإلياذة ، وبالدعوى لم يُكسر كسرى ، وبالدعوى لم يستجب الناس لرسالة المسيح ، وبالدعوى لم يُبلغ الرقيق . الفضائل تقدر بأثرها ، وعلى قدر الصلاح تكون الحرمة ، والناس سواء فى احترام الفضيلة . وأساتذة الإنسانية هم أصحاب طبقة الكرماء المخلصين ، وأرباب الأفكار العالية ، يفرضون عليها ما يريدون بثه ، ويحاولون الدعوة إليه . وما ضاعت كلمة طيبة قط ، وما سقط مجد ولا كرم ، من دون أن يلتقطهما قلب ما كان له أن يتوقعهما ، فيبارك عليهما ويقدسهما . وقيمة المرء ما يحسن ، وما يحسنه منقوش على سيماه وينمّ عليه ظاهره ، وما رُزق من سعادة ، ولن يفيده التوارى ، كما لا ينفعه التبجح والتنفّج [1] » .

هل انطبقت هذه الصفحة فى شروط الخلود على الجاحظ ؟ وهل له بعد هذا أن يعد فى الخالدين بما ألّف وصنف ؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره يوم بدا للأبصار نبوغه ، وكَمُلت له العظمة قبل أن يأتى عليه قرن أو قرنان . وهذا مستغرب فى عصر ليس فيه مطابع ولا جرائد ولا مجلات ، ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات ، ولا برق ولا هاتف ولا مذياع .

خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه ، لا بعينيه وأذنيه فقط . فاستفاض صيته ووصل صوته إلى أبعد مدى ، لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأمته ، ووجب عليه معاناته فى دهره ، وتداول قومه مصنفاته وهو فى الكهولة ، وعرفت القاصية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين ، وأدرك ذوو البصائر أن كتبه تحمل

(١) تنفج : تكبر كتنفخ ، والتبجح الافتخار والمباهاة .

علماً كثيراً . ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب ، فأرضى أمته وأخذ بمجامع قلبها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب ، لا سلطان الثرثرة والدعوى .

تضمنت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر ، لأنها ابنة العقل الناضج ، وربيبة الروّية والتفكير الصحيح ، قصد بها التعليم والإرشاد ، لا الفساد والإفساد ، وقدّر له بها من الإعجاب ، ما لم يكتب لملىّ ولا لذمىّ من العلماء مثله ، فنى المليين مئات ، وفى الذميين عشرات ، كانت لهم الحُظوة عند العامة والخاصة ، تحفهم رعاية الأمراء والخلفاء ، فتقدمهم الجاحظ فى السبق ، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة . كان ، والحق يقال ، إنساناً كاملاً أخذ من المادة بقدر ما ضمن له عيشه ، وما أَسفَّ إلى ما يسفُّ له أكثر طبقته من العلماء ؛ ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمتع فى قصور الخلفاء بكل ما تطمع فيه ، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا ؛ كان صاحب فكر ، همّهُ نشره لنفع العالمين ؛ فى دور كان حملة الرأى والرواية من عصرييه بين عالم دين ، يُصِمُّ أذنه عن علوم الدنيا ، أو عالم مادة لا يحسن شيئاً كثيراً من علم الدين ، فجمع الجاحظ بين المطلبين ، حتى كثر المعجبون به من كل صنف ، وما استطاع حساد فضله أن يطفئوا نوره ، ولا أن يُعموا على الناس أمره ، لما أدركَ المنصفون أنه على صفات قلّ أن يدانيه فيها أحد ، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب فى أشد أعصار حماستهم ، وتصلبهم فى آرائهم ، جادلهم فأحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه ، وتفنن ما شاءت له الإجادة فى ضروب من القول ، وما كان يضيره سخف السخفاء ممن تعذرت عليهم مداناته ؛ فوضع صفحته للحق ، وحاورهم قائماً بالواجب عليه نحو دعوته وملته ، فتم له ما أراد لما نفذ قوله إلى أعماق القلوب والعقول ، بما خص به من نَفَس طويل ، وإبداع جزيل ؛ نعم نفذ الجاحظ

بما كتب إلى القلوب والعقول ، لأنه لم يكتب كأفلاطون ألغازاً ومعميات يتعذر حلها ، فبقى كلام الحكيم اليونانى — على ما قال أميرسون — مقصور الفهم على اثنى عشر شخصاً فى كل جيل ، وكَتَبَ الحكيم العربى السهل الممتنع الذى يفهمه كل من يقرأوه ، فأسرع كل ذلك فى خلوده .

الجاحظ موهوب ، رزق القبول من القلوب ، وشاع ما كتب فى كل صقع وكل قرن ، وكلما كرر كلامه حلا ، وهل أعظم فى باب الخلود من بنات أفكار تتناقل خلفاً عن سلف أحد عشر قرناً ، ثم لا نرى الجميع إلا معجبين مستفيدين ، بما أثر عن عَلَم الأعلام وأفضل المخلدين .

وإنا إذا استقرينا ما قاله أولياء الجاحظ وخصماؤه فيه ، لا يتعذر علينا أن نضعه فى الدرجة التى بلغها . قيل لأبى العيناء الراوية الأخبارى : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟ ويقول المسعودى : « لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ ، وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى ، كان يؤدى ما سمع ، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بايغة ، إلى نادرة طريفة ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

وقال ثابت بن قرة الصابى وهو من المعاصرين للجاحظ ومن أكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة فى تأليفاتهم : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث الجاحظ ، وقل

فيه : « إنه خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومِدْره[1] المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان وائل ، و إن ناظر ضارع النظّام فى الجدال ، و إن جد خرج من مَسك[2] عامر بن عبد قَيْس ، و إن هزل زاد على مَزْيَد : حبيب القلوب ، ومَراح الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، و بين الفطنة والعلم ، و بين الرأى والأدب ، و بين النثر والنظم ، و بين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خَلّته ، ووطئ الرجال[3] عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أُوتى الحكمة وفصل الخطاب » .

هذه ثلاث شهادات فى الجاحظ ، الأولى لرجل عاصره وعرفه عن أمم ، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة ، شهادة شيعى فى معتزلى ، والثالثة لصابى النحلة وشهادته شهادة برىء من الغرض ؛ و إذا حدثت نفسك بأن هذه الشهادات قليلة نورد لك غيرها ، الأولى للمرْزُبانى من أئمة الأدب جاء فيها : إن الجاحظ كان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به و بغيره من علوم الدين والدنيا ، و إن له كتباً كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ،

---

(١) المدره : كبر القوم الشريف والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

(٢) المسك : الجلد .

(٣) يقال فلان موطأ العقب أى له سلطان يتبع و يوطأ عقبه . والخلة الخصلة ، والخلة أيضاً الطريق والسبيل وهو أولى هنا .

وفى ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها ، وعرفوا فضلها .
قال : وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها ؛ والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » . والشهادة الثانية لأبى حيان التوحيدى ، وقد ألف فيه كتاباً سماه « تقريظ الجاحظ » ومما قاله فيه : اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلى بن عبيدة [1] وأبو زيد البلخى ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو على بن عبيدة ، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد ؛ قال : قلت لأبى محمد الأندلسى ، وكان من عدد أصحاب السيرافى : قد اختلف أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ ، وأبى حنيفة صاحب النبات ، ووقع الرضى بحكمك فما قولك ؟ فقال : أنا أحقر نفسى عن الحكم لهما أو عليهما ، فقيل : لابد من قول ، قال : أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة [2] بالنفس ، سهلة على السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب ، وأدخل فى أساليب العرب . قال أبو حيان والذى أقوله وأعتقده ، وآخذ به وأستهام عليه ، أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم ، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم . أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة . وبسببه جشمنا هذه الكلفة .

(١) على بن عبيدة الريحانى متكلم صاحب تصانيف قال ياقوت : من الناس من يفضله على الجاحظ فى البلاغة وحسن التصنيف .

(٢) لاط الشىء بقلبى يلوط ويليط لوطاً وليطاً حبب إليه وألصق .

أعنى أبا عثمان عمرو بن بحر والثانى أبو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

والشهادة الثالثة شهادة أمير المؤمنين المأمون ، قالوا لما نظر المأمون فى كتاب الجاحظ فى العباسية ، وكان اليزيدى أدخله عليه ، دعا بالجاحظ فقال : يا عمرو قد كان من يرتضى عقله ، ويصدق خبره ، ألقى إلىّ صفة هذا الكتاب ، فكنت أرى الصفة عياناً ، فلما حضر العيان أربى على الصفة ، ولما فُلى أربى الفلى على العيان ، كإرباء العيان على الصفة . وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب ، ويجل عن الحاجة إلى المحتجين له ، جامع لاستقصاء المعانى واستيفاء الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقى ملوكى ، خاصى عامى . قال الجاحظ : فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب آثر عندى من الكتاب .

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وأنه كان « نسيج وحده فى جميع العلوم » قال الصفدى : من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه ، ورأى فيها الاستطرادات التى استطردها والانتقالات التى ينتقل إليها ، والجهات التى يعرض بها فى غصون كلامه بأدنى ملابسة ، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف .

ولما ذكر الذهبى فى النبلاء تجويد الجاحظ فى كتاب النبوات ترحم عليه ، وقال : فكذلك فليكن المسلم ، مع أنه من خصومه فى المذهب . وقال ابن سنان الخفاجى : « فكأنه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » .

حدث أبو القاسم السيرافى قال : حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبى الفضل ابن العميد فقصر[1] رجل بالجاحظ وأزرى عليه ، وحَلُم الأستاذ عنه . فلما خرج

---

(١) قصر به أزرى به وحقّره .

قلت له : سكت أيها الأستاذ عن هـذا الجاهل فى قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ، فقال : لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته و بينت له ، لنظر فى كتبه وصار إنساناً ؛ يا أبا القاسم « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وكان ابن العميد يقول ثلاثة عـلوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبى حنيفة لأنه دوّن وخلد ما جعل من يتكلم فيــه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ اه . وهذا فى نظرنا داعية خلوده .

أبو حيان التوحيدى

عصره :

القرن الذى أولد التوحيدى ، وشبّ فيه واكتهل وشاب ، هو العصر العباسى الثالث ، فسدت فيه عصبية بنى العباس ، فلم تبق لهم كلمة مسموعة ، ولا رأى جميع[1] ، ولا قوة نافذة ، ولا كيان يُرتجى معه البقاء . تغلغلت الأعاجم فى جسم الدولة ، وتسلطت على الأمور ، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الأمور تلتوى ، ودولة الخلافة تحوّل وتتراجع ، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها ، وعاث سوس الفساد فى ذلك الجسم العظيم ، وتناثر عقد البلاد الإسلامية . وانتقصت من أطرافها ، والأهواء مشتتة ، والنفوس شعاع[2] .

لم يكد ينسلخ[3] الربع الأول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستأثر البريدىّ بالأهواز وأعمالها ، وذهب أبناء بُويْه الديلم بفارس والرّىّ وأصبهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل . وغدت خُراسان وما وراء النهر بيد السامانية ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى أيدى بنى حمدان ، وانتقلت مصر والشام إلى الإخشيدية ، والبحرين واليمامة إلى القرمطى ، والمغرب وإفريقية إلى القائم العلوى ، والأندلس للناصر عبد الرحمن الأموى .

---

(١) الجميع : ضد المتفرق (٢) الشعاع : كسحاب المتفرق ، والرأى المتفرق

(٣) سلخ : (كنصر ومنع) الشهر مضى كانسلخ ، وفلان شهره أمضاه وصار فى آخره .

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته القليلة . وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة ، وهكذا كانت مملكة بني العباس نهبَ أيدي الأتراك والديلم — والأتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال في فارس — وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم ؛ بل حاولوا نزع تراث العباسيين من أيديهم .

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم . فقتل المقتدر ، وبويع للقاهر ثم خلع ، وخلعه الراضي ، واستخلف المتقي . ثم بويع المستكفي وهو كالأكثر من سلفه مغلوب على أمره . وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الإخشيديين . ودولة الفاطميين تستولي على مصر ، ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي . وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك . وأصبح الخليفة في العباس شبه صاحب منصب ديني له القول وغيره العمل . تملك الاسم ، والجسم يتقاسمه مستغلون من متغلبين ومتوثبين . والبلاد تخرب والنفوس تهلك . حتى تمخضت [illegible] عن استيلاء [illegible] عليها ، وأخذوا بتجديدها ورمها لأول مرة . وكانت في القرن الثاني واتسعت أعمالها [illegible] في الأرض . وكان القرامطة[1] خلال ذلك القرن يعيثون في العراق ثم تعدو

(١) القرامطة : نسبة لحمدان قرمط [illegible]
[illegible] .

إلى الشام ، بعد أن عبثوا بمقدسات الأمة فى الحجاز ، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزّاع إلى الفتنة . أما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراوحونها ، ودولة بنى حمدان كفت البلاد عاديتهم ، وغزاهم منصور بن نوح السامانى عام النفير[1] فى ألوف من أهل خراسان وما وراء النهر . وفى خلال هذا القرن انقرضت دول ، ولا سيما السامانية والإخشيدية ، وقام محمود بن سبكتكين رجل ذالك القرن فاستولى على خراسان ، وامتدت فتوحه حتى فتح جزءاً مهماً من بلاد الهند والشرق .

وفى هذه المملكة ، بل الممالك التى كانت تتخبط فى أقدارها ، وتختلط أمورها بأيدى أخيارها وأشرارها ، نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء ، بقوة التسلسل المسعثة من عمل القرن الثالث . وقد تضعف السياسة فى أمة ، وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها ، وعلومها آخذة بالنظام الذى كان لها ، كما قيل « يفنى القميص وفيه ريح المندل[2] » ، ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، ممن أرادوا أن يكون فى جملتهم الأجلاء والفضلاء ، يستأثرون بهم دون جيرانهم ، ويزينون بهم ملكهم ، أو يستخدمونهم ليعينوهم على قيام أمرهم ، أو يختارون طبقة من الأدباء والشعراء ، ينادمونهم ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيعتزون بهم عند القريب والغريب ، والبغيض والحبيب . فكانت فى هذه السبيل تجارى بغداد كل من أصبهان وشيراز ونيسابور وهمذان والرىّ وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة .

---

(١) النفير والنفر : القوم ينفرون معك ويتنافرون فى القتال ، وتنافروا : ذهبوا .

(٢) المندل : العود أو أجوده كالمندلى ، ومندل بلد فى الهند ، ولعل هذا العود نسب إليها .

وتنوعت المذاهب التى غلبت على البلاد ، فكان أهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة ، وبغداد تؤوى جميع النحل وفيها غالية يحبون معاوية . ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، ويهود إقليم الجبال أكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زرادشت ، المعظمون للنار وسائر الأنوار ، بقيت منهم بقية مهمة إلى هذا القرن فى العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الإسلام . ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجد فيه الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة ، ومنها ما كانت شيعته غالية ، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث ، وأكثر إقليم خوزستان معتزلة ، وفى الأقاليم الأخرى شيعة وحنابلة وشوافع . والفتن كثيراً ما تقع بين الحنابلة والشافعية فى بغداد . أو بين السنة والشيعة فى دار السلام ، وبعض أصقاع فارس والجبال وما إليها ، فيفنى بعضهم بعضاً .

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية [1] خشية العامة وجهلة السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة ، وكان التوحيدىّ أحد أساطين تلك الحلقة حقبة من الزمن ، والحركة الدائمة فى الإفادة والاستفادة ، والعقل الكبير والعمل الجبار ، ملئت أيام حياته بغرائب . فكان عجباً فى نفسه ودرسه .

---

(١) التقية : مشتقة من اتقاه أى خافه وهى ضد العلانية ، وكان المسلمون لأول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيدارونه إذا كان قوياً ، من غير أن يستحلوا دماً حراماً أو مالا حراماً أو غير ذلك من المحرمات أو يظهروا الكفار على عورات المسلمين . واختلفت الفرق الاسلامية فى التقية ومنها من تجوزت فيها كثيراً ، وبعضهم حدد لها شروطاً ، ولا سيما عدم خشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباصة . ويقضى الشرع والعقل أن يستعمل فى دار التقية ما لا يستعمل فى دار العلانية .

نشأته وأعماله :

هو على بن محمد بن العباس التوحيدى (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيد ، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبى قوله :

يترشفن من فمى رشفات   هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل إن التوحيدى نسبة للمعتزلة ، لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وهو الأرجح . ذكروا فى أصله أنه شيرازى وقيل نيسابورى وقيل واسطى ، وهو عربى ، وما كان يعرف الفارسية ، ولو ولد فى فارس لكان يتكلم بها ، وكنيته أبو حيان ، ولد على الغالب فى أواخر العقد الثانى من القرن الرابع أو فى أوائل العقد الثالث ، ونشأ فى بغداد وعُمّر لأنه مات على رأس الخمسمائة أو بعدها بقليل ، وقيل مات بشيراز سنة ٤١٤ .

نزل التوحيدى بغداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج فى النحو بأبى سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرُّمَّانى ، وبالفقه الشافعى بأبى حامد المَرْوَرُّوذى وأبى بكر الشافعى ، وحضر فى أوقات مختلفة بين سنتى ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عَدىّ وأبى سليمان المنطقىّ وغيرهما من الفلاسفة مثل أبى الحسن العامرى ، وقد اجتمع به أبو حيان وقال إنه تكلم فى الفقه بألفاظ الفلاسفة ، ومثل أبى النفيس الرياضى الفيلسوف ، فجاء متفنناً فى العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين فى عصره عد حكيماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد تسامحه ، وأصبح يُحكّم عقله فيما يرى ويسمع ، لا يأخذ الأشياء على ظواهرها ، بل يواصل الدرس والنظر ، غير منحيز لفئة ، ولا متعصب لرأى جماعة .

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظياً ، يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنةً ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، حُفَظَةٌ واسع الرواية والدراية . قال : ولم أر واحداً من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا أدمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب . وقال فيه إنه صوفىّ السمت والهيئة ، وإنه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكىّ فى فقهاء الشافعية . وقال إنه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه ، وآخر ما أُخذ عنه بشيراز سنة أربعمائة . وقال النووى فى تهذيب الأسماء إنه من أصحابه المصنفين ، وأن من غرائبه أنه قال فى بعض رسائله لا ربا فى الزعفران ، ووافقه على قوله القاضى أبو حامد المروروذىّ .

ولأبى حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة . وكتاب المقابسات أو المقابسة ، وكتاب الإشارات الإلهية . والرد على ابن جنىّ فى شعر المتنبى . وكتاب الإمتاع والمؤانسة . وكتاب الزلفة . وكتاب رياض العارفين . وكتاب تقريظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين [1] ، وكتاب الحج العقلى إذا

(١) اطلع ياقوت الحموى على بعض كتب التوحيدى أو أكثرها ، ونقل منها كثيراً فى كتابه معجم الأدباء ، ومنها ما اطلع عليه ، ومنها ما كان خط المؤلف مثل كتاب «تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ» و «مثالب الوزيرين» و «الإمتاع والمؤانسة» و «كتاب المحاضرات أو محاضرات العلماء» . وفى إحدى مكاتب الآستانة نسخة من مثالب الوزيرين وأخرى منه من الإمتاع وفى دار الكتب بدمشق الجزء الأول من الإشارات الإلهية وهو مختصر مخطوط فى دار الكتب [illegible] . وفى دار الكتب الأمبروزيانة فى ميلانو جزء من الإمتاع والمؤانسة . ونسخة من كتاب [illegible] ، وفى مكتبة [illegible] فى الآستانة خمس نسخ مخطوطة من [illegible] . وفى دار الكتب فى [illegible] نسخة من [illegible] التوحيدى . وطبع لأبى حيان فى [illegible] رسالة الصديق والصداقة وكتاب المقابسات ورسالة فى العلوم .

ضاق القضاء عن الحجج الشرعى ، ورسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة : الرسالة البغدادية ، الرسالة فى أخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية أيضاً ، الرسالة فى الحنين إلى الأوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر فى عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة . وقد ساق الصفدى فى الوافى بالوفيات ثبتاً طويلا فى مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فتوح البلدان يستدل بها على تضلعه من التاريخ أيضاً . وأثبت فى أكثر من أربع صفحات كلها أسماء كتبه . وكتبُ أبى حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، وتقريع وتقريظ ، ونقد ولمز ، ووعظ وإرشاد ، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه فى العلوم ، وبلوغه درجة عالية فى الفهم ، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين ، صوّر فيها العلم والأدب فى أيامه أحسن صورة . وتنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون حسداً ولؤماً ، وما مثله بالذى يكون نكرة . ذلك لأنه قال الحقّ ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرّى .

كان التوحيدى على ما يظهر من كلامه ، من أهل الباطن أى الصوفية ، ومن أهل الظاهر أى الدينيين الحكماء ، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبى والتُّسْتُرى والجنيد والسَّرىّ السَّقطى وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك أو الصوفية ، وبين مذهب السجستانى والزَّنجانى والمِهرجانى والصَيْمَرى والمقدسى والمجتبى وابن زُرعة وابن سوار وابن رِفاعة فى الحكمة . وقد شهدت له كتبه بأنه متصوف ، وشهدت له بأنه فيلسوف ، وأنه جمع بين العلوم المادية والعلوم المَعادية ، ووفّى كل علم قسطه من النظر وليست له طريقة خاصة فى التصوف ، ولا مذهب معروف فى الفلسفة ، بل إنه أَحاط بجميع الطرق ، وحَنى عليها ، وطالت نفسه بعشرة أهل ثقتها والأخذ عنهم . وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من

المباحثات والمناقشات المدونة بعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الديني أو الفلسفي ، وبدا كل ذلك في مظهر غريب بأسلوب إنشائه . وما غفلة المؤرخين أو تغافلهم عن الترجمة للتوحيدي ، مع هذه البسطة في العلم الواسع ، والبيان الرائع ، إلا بسبب أخلاقه على ما يظهر ، فغمطوه بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستتر بحجاب ، والعقل لا يخفى على ذوي الألباب .

وظهر أن أبا حيان كان مقتراً عليه في الرزق ، وأنه ربما كان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة — وكانت الوراقة في القديم خير معوان لإخراج العلماء والأدباء — ولم يل التوحيدي أمراً من أمور الدولة . ويستحيل على من كان في مثل علمه واستغراقه في دفاتره . أن يتقلد الأعمال ، فإذا لم تكن له إدرارات من السلطان أو الخليفة يعيش بها يبرّح به العوز والإملاق . وهكذا كان شأن بعض عصريّيه مثل أبي بكر القومَسي الفيلسوف الذي وصفه أبو حيان بأنه كان بحراً عجّاجاً ، وسراجاً وهّاجاً ، وكان قرين التوحيدي في الضرّ والفاقة ومقاساة الشدة ، ومن الإضاقة بمنزلة عظيمة ، وهو الذي قال للتوحيدي ذات يوم : ما ظننت أن الدنيا ونكَدَها تبلغ من إنسان ما بلغ مني : إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفر لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس .

التوحيدي لم توظف له وظيفة ولا أُجرى عليه رزق ، فمن أين كان يرتزق ؟ لما ترامى إلى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بويه في الشرق ، وكانا يفضلان على أعلام العلم في مدينة دار السلام ويبرّانهم بهباتهما الحين بعد الآخر ، ووصلت عطاياهما إلى شيخي التوحيدي أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي — سمت نفس أبي حيان إلى أن يقصد ذينك

الوزيرين وانقطع إليهما ، وقدم بين يدى نجواه مدحهما أولا ، إلا إنه لم ينل منهما رغبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين فى دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا أعطاه راحلة ولا زاداً . أخفق فى قصر الصاحبين مع أنهما كانا مع الوزير المهلبى من أكبر حماة الأدب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان فى حلب ، وربما كان التوحيدى استطال عليهما ، وفيهما عزة السلطان وأبهة الفرس ، فازدرياه فشق عليه الأمر ، وهجاهما فى كتاب أسماه « مثالب الوزيرين » أورد فيه حكايات فى ثلبهما ؛ ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم ؛ وذكر وقائعه معهما ، قال إنه فارق باب الصاحب سنة ٣٧٠ وقد نال منه هذا الحرمان الذى قصده به ، وأحفظه عليه ، وجعله من جميع حاشيته فرداً . ومن جملة ما مرّه من الصاحب أن هذا قدم إليه رسالة فى ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له فقال : نسخ مثله يأتى على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد ! فأخذ الصاحب فى نفسه عليه .

وقد عرفنا شيئاً من أخلاق التوحيدى فى هذا الكتاب ، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين . وأحبابهما كثار فى الأمصار ، فأعرض الناس عنه وأوقعوا فيه ، وأسقطوه من دواويهم . وعجيب أن يغضب الناس لهدم حق المهجوّين ، ولا يغتاظون لحق الهاجين ، وقلما يحملون بالسبب الذى يلجئ هؤلاء إلى الهجاء أحياناً . وقيل إن الصاحب بن عباد اتهم التوحيدى بالزندقة ففر منه ، وطلبه الوزير المهلبى ليقتله ففر إلى ديار بكر ، وفى رواية أنه مات فى الاستتار : ولكن التوحيدى إذا فاتته أفضال الوزيرين الصاحبين ، فقد لقى إكراماً من الوزير صمصام الدولة بن سعدان وعبد الله بن عارض الشيرازى ، ولابن سعدان ألف كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وللدُّلَجى بشيراز

ألف كتاب المحاضرات . ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيديّ عن إهداء كتبه كلها إلى بعض عظماء عصره ، وكانت طريقة إهـداء المؤلفين مصنفاتهم لأمير أو عظيم من الشائع المعروف ، وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف بأسماء عظماء عصرهم ، والارتزاق بعطاياهم وهداياهم .

قضت الفاقة على التوحيدي أن يتكفف بعض الأمراء ، وكتابه إلى ابن العميد نموذج من هذا التنزل ، ولـكن العجز عاب لأنه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه . وقال إنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين : رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة[1] وإن سكت سكت عن ضغن وإحنة ، ورجل إن بذل كدّر بامتنانه بذله ، وإن منع حسن بإقباله بخله . ولقد دعا ، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم . وبان له نبوّ الدهر به ، وضياع سعيه ، وخيبة أمله ، في كل ما ارتجاه لملمّ أو مهمّ . أو حادثة أو نائبة . دعا بما دعا به بعض النساك فقال : « اللهم صُنْ وجوهنا باليسار . ولا تبذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك . ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء » .

وإذا أنصفنا أبا حيان فلمناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتهما ، وجسم سيئاتهما ، ثم ساقه إليه خيبة في أمله ، أو ميس في عطيته ، أو اعتداد برأيه ، فلا نذهب مع القائلين بالحكم عليه بالزندقة . أيهم قد وقفوا في حكمهم عليه عند حدود أقواله ، وفيها شاهد على توحيده ، وبعده عن الإلحاد الذي قرف به . على أن معظم من ذكروه ، ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الأدباء ، قالوا إنه كان يتألّه أي يتنسك ويتعبد ، والناس على ثقة من دينه وصحة

---

(١) الدمنة : حقد قديم .

عقيدته . ودعوى ابن الجوزى أن زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى وأبو حيان وأبو العلاء المعرى ، وأنه كان أشدهما ، صرّحا وهو جمجم ، من الكلام الذى يلقى على عواهنه ، أخذه على ما يظهر بدون روية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ، وكذلك ما قيل من أن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدى فى الشريعة وقوله فى التعطيل وما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقتله ففرّ ، كلام فيه نظر أيضاً[1] ، على أن كثيرين من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراوندى والتوحيدى والمعرى ، فلم يُتهموا بشىء ولا قدح الناس فى دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يَمسسهم أحد بسوء ، ولا طعن طاعن فى عقيدتهم . ولطالما وجهت تهمة الزندقة إلى كثير ممن توسعوا فى علم الكلام أو العلم الإلٰهى ، أو علوم الأوائل من الفلسفة والطبيعى والرياضى ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذى اصطنعه رجل مات أو رجال ماتوا ، فوَقَروا فى الصدور ، وعلت منزلتهم بين الناس . والميت أفضل عندهم من الحىّ ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة . والأرجح أنه كان للحسد والجهل مدخل كبير فى الطعن على التوحيدى ، والطاعنون إما حسدة ساقهم لؤم الغريزة إلى النيل من عظيم نَدَّهم وأربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، أو أنهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول أن يسقط مؤلماً مثله ، خاض أصعب المسائل الإلٰهية والاجتماعية .

---

(١) فى معلمة الإسلام ترجمة للتوحيدى بقلم الأستاذ مرجليوث ، جاء فيها أن الوزير المهلبى نفى أبا حيان لما صرح به من الإلحاد فى كتبه التى ضاعت وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال إنه ليس من الثابت أن هذين التأليفين دخلا فى شىء من فهرس كتب التوحيدى التى ذكرها ياقوت .

وقال فيه بعض واصفيه إنه قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شانه ، والثلب دكانه ، يشتكى صرف زمانه ، ويبكى فى تضاعيفه على حرمانه . وقد لامه أستاذه السيرافىّ يوماً وهو ينقل ذم أعرابى بقوله : « تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الأستاذ ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه » وهذا الخلق فى النيل من الناس لا سبيل إلى تبرئة أبى حيان منه ، لأنه مما أجمعت الآراء على أنه كان فيه متأصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بنى آدم . ويوشك صاحب هـذا المشرب أن يعادىَ أكثر أهل زمانه ، هـذا وهم دونه فى صوب العقل وذوب الفضل .

إن الرجل الذى يخوض غمار المباحث التى خاض التوحيدى بحرها ، وخرج منها ناصع الجبين والحجة ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من أفراد الدنيـا بذكائه ونبوغه ، يستحيل أن يتقيد بقيود أفكار غيره : يصدر إذا صدروا ، ويرد إذا وردوا ، يقلدهم فى كل ما قرروا أو قُرّر لهم ، ويتابعهم عموا وضلوا ، أم أبصروا واهتدوا . وفى البشر عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب أبى حيان من الناس والمجتمع ، قضوا أيامهم فى ضيق من معاشهم ، وضيق من عقول أهل جيلهم ، وضيق من عنت المنظرين والمتعالمين . وسيطرة المستبدين والجائرين .

تشاؤم وتفنن :

ترى هل كان التوحيدى يسمع الموسيقى والغناء ، ويجلس إلى أرباب الدعابة والهزل ، ويخلع ثوب الجد والوقار ، ساعة من ليل أو نهـار ؟ وبغداد فى أيامه علقت الطرب ، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات إلى أسمى الرتب ،

وخروج الأدب فيها عن حد الخيال ، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب ، وفؤاد مضطرب ، ووصف واقعة حال . وأكبر الظن أن التوحيدى لم يكن على شيء من هذا ، اللهم إلا إذا كان فى صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، أجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التى انتهت إلينا من شعره وهى فى غزل رقيق ، صدر عمن ابتسم للحياة والأيام ، فأخذ ينظر إليها نظر المتفائل ، على حين كانت أكثر نظرات التوحيدى متشائمة ، هذا إذا لم يؤول له مؤول بأن هذا اللسان كان على لسان أهل الباطن ، كما يفسر بعض المتصوفة كثيراً من الغزل ، فيدعون أنه فى العزة الإلهية أو فى المقامات المطهرة . أما أبيات التوحيدى فهذه :

يا صاحبيَّ دعا الملامة واقصرا   ترك الهوى يا صاحبى خساره
كم لمت قلبى كى يُفيق فقال لى   لجَّت[1] يمين مالها كفاره
أنا لا أُفيق ولا أُفتر لحظـــةً   إن أنت لم تعشق فأنت حجاره
الحب أول ما يكون بنظرةٍ   وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من أُحب ولا أُسمى باسمها   إياك أعنى فاسمعى يا جاره

ولقد أحرق أبو حيان كتبه فى آخر عمره لقلة جدواها . وضناً بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته وكتب إليه القاضى أبو سهل على بن محمد يعذله على صنيعه ، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك . ومما قال له فى الاعتذار : « إن كان ، أيدك الله ، قد أنقب خفك[2] ما سمعت ، فقد أدمى أظَلّى ما فعلت ،

---

(١) لج فى اليمين لم يكفرها مدعياً صدقه فيها .

(٢) أصل المثل إن دمى أظلك فقد نقب خفى . الأظل ماتحت منسم البعير ، والخف واحد الأخفاف وهى قوائمه . يضرب به المشكو إليه للشاكى أى أنا منه فى مثل ماتشكوه (أمثال الميدانى) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين فى مقدمته .

فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً وليالى ، وحتى أوحى إلى فى المنام بما بعث راقد العزم ، وأجدَّ فاتر النية ، وأحيا ميت الرأى ، وحث على تنفيذ ما وقع فى الرُّوع ، وتريع فى الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة فى ذلك إن طالبت ، أو العذر إن استوضحت ، لتثق بى فيما كان منى ، وتعرف صنع الله تعالى فى ثنيه لى . إن العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ؛ فإذا كان العمل قاصراً على العلم ، كان العلم كلاًّ على العالِم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاًّ ، وأورث ذلاًّ ، وصار فى رقبة صاحبه غُلاًّ .

« ثم اعلم ، علّمك الله الخير ، أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المَثالة[1] منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمدِّ الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك فى حسن ما اختاره الله لى ، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى ، وكرهت مع هذا وغيره ، أن تكون حجة علىَّ لا لى .

« ومما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أنى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشقَّ علىَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها ، فإن قلتَ ولِمَ تسِمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابى لك أن عيانى منهم فى الحياة ، هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم

---

(١) [illegible] : يقال هو من ذوى متاتهم .

عشرين سنة فما صحّ لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اضطروت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر[1] فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدّين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صوب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنــه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وإما خوفاً من القال والقيل .

« وبعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أوغد ، فإنى فى عشر التسعين ، وهل لى بعد الكِبْرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ، ألست من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كلّ يوم وليلة   وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تفوقت درّاتِ الصّبا فى ظلاله   إلى أن أتانى بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدى وتمامه يضيق عنه هذا المكان .

« والله يا سيدى لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان ، فى هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تَقَرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرىّ وما والى هــذه

(١) الخضر كـكتف البقلة الخضراء كالخضرة كفرحة وهى بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرها ويرتفع ذراعاً وهى علفٌ لم البعير (التاج) .

(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد أى مشف على الموت .

المواضع ، وتواتر إلىّ نعيهم ، واشتدت الواعية[1] بهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ، وهل لى محيد عن مصيرهم ، أسأل الله تعالى رب العالمين ، أن يجعل اعترافى بما أعرفه ، موصولاً بنزوعى عما أقترفه ، إنه قريب مجيب .

« وبعد فلى فى إحراق هـذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويُعْشَى إلى نارهم ، منهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الأرض فلم يوجد لها أثر ؛ وهـذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله ، زهداً وفقهاً وعبادةً ، ويقال له تاج الأمة ، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها : نعم الدليل كنتِ ، والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول ، عناء وذهول ، وبلاء وخمول ؛ وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسدّ بابه . فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم فى الأول ، ثم كاد يُضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه ؛ وهـذا أبو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها[2] بالنار ثم قال : والله ما أحرقتكِ حتى كدت أحترق بك ؛ وهـذا سفيان الثورى مزّق ألف جزء وطرحها فى الريح وقال : ليت يدى قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً ؛ وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة النار .

« ومن ذا أقول ، وبسمعى يصدق ، إن زماناً أحوج مثلى إلى ما بلغك لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى ، وضنىً وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، إن احتجت إلى العلم فى خاصة

---

(١) صرخ .   (٢) سجره : أوقده .

نفسى فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وإن احتجت إليه للناس ، ففى الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلمَ تُعَنِّى[1] عينى ، أيدك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف فى الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح ، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب ، فى كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرِج[2] ، وهوى بصاحبه إلى الهبوط ، وهل وصل الحكماء والقدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد فى السعى ، وإلا الرضى بالميسور ، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فأين يُذهب بنا ؟ وعلى أى باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرها ؟ هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمضجع مقضٌّ ، والمُقام ممض[3] ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، والله من وراء هذا كله طالب نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها ، ويسهل علينا فى هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته ، بعد أن حصل تحت قدرته » .

وختم كتابه بقوله : « على أنى لو علمت فى أى حال غلب على ما فعلته ، وعند أى مرض ، وعلى أية عسرة وفاقة ، لعرفتَ من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججت لى بأكثر ما نشرته وطويته ، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله جل وعز فى خلقه أحكاماً ، لا يغارُّ عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغ كنهها ،

---

(١) تعنى تتعب وأعناه وعناه .

(٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشى أو الجوهر .

(٣) مضه السيء مضاً ومصيضاً بلغ من قلبه الحزن كأمضه

ولا ينال غيهبها[1] ولا يعرف قَلْبها[2] ، ولا يقرع بابها ، وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام » .

كتب هذا الكتاب فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، وكشف به الغطاء عن محيا حقائق عصره ، وألمّ فيه أى إلمام بما حداه على تعفية أثره ، لما لقى من الإنكار ، وناله من أهل جيله ، فهجّن[3] بما هُجِّن ، وأزعج بما أزعج ، ولولا أن السويداء غلبت عليه بإقراره ، واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه ، وزين له إتيان ما أتى — وبنات الأفكار ، أغلى من كل عقار ونضار — لما أقيمت له معذرة ، ولا أسبل على ذنبه ستر المغفرة ؛ وبالسويداء قد يهلك المرء أعزّ حبيب على قلبه ، حتى إذا ثاب إليه عقله ندم على فعلته ، وبالمِرّة الصفراء قد يقتل نفسه ، والنفس أعزُّ الأعلاق على الإطلاق . والتوحيدى مع هذا لم يأت بدعاً فرياً[4] ، ولعمله أشباه ونظائر ، بيد أن الزمن الذى قلبه كل مقلب ، وغيره فى أعطاف النعم يتقلب ، وأخرجه من جلده ، ونبا به عن طوره ، بما رآه من خمث وخَنَث ، وعَنَت وعَبَث ، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ، يستمتع بذَرْوٍ[5] من درره أهل الأجيال المقبلة ، على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة . فقضى له من قبل المأتم الذى عقده لإحراق كتبه ، أن يتداول الوراقون والطالبون أسفاره . ويتنافسوا فى نسخها واقتنائها . فبقيت حاوية هذه البقية الصالحة من أفكاره التى حفظت ذكراه على كرور الأعصار ، وطارت كل مطار فى الأقطار والأمصار .

---

(١) ظلمتها . (٢) محض كل شىء . (٣) استهجن : التقبيح .
(٤) فرى كغنى : الأمر المختلق المصنوع أو العظيم . (٥) يسير .

وإن أعظم ما ينتقد عليه فى هذه الرسالة قوله إنه جمع أكثر كتبه للناس، ولطلاب الفضل منهم، وعقد الرياسة بينهم ونشدان الجاه عندهم. وقوله هذا ينافى هَدْى العلماء، فإن العلم يراد لذاته، وتأليف الكتب يُقصد به نفع الناس، ونشر فكر وبث حقيقة، وقد يتوقع منها مآْرب آخر، هذا إذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها، فإن هذا التصريح مما يعاب عليه، وما نرى هذه الأفكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف. على أننا رأينا أبا حيان فى بعض أحواله ومواقفه يقول غير هذا، رأيناه يقول وقد رأى فى جامع الرصافة المعافا بن زكريا ينام مستدبر الشمس فى يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضر أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور، ومعرفته بصنوف العلم، سيما علم الأثر والأخبار وسير العرب وأيامها فقال له: مهلا أيها الشيخ وصبراً. فإنك بعين الله ومرأى منه ومسمع، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعزّ المال فقال: مالابد منه من الدنيا فليس منه بد، ثم قال:

يا محنة الدهر كفى	إن لم تكفى فخفى
قد آن أن ترحمينا	من طول هذا التشفى
طلبت حداً لنفسى	فقيل لى قد توفى
فلا علومى تجدى	ولا صناعة كفى
ثور ينال الثريا	وعالم متخفى

نموذجات من كتبه:

نقلت كتب أبى حيان أفكاراً منوعة، وفلسفة أناس كانت تنسى أخبارهم، لو لم يتصد لتدوينها، وفى اقتباس صفحات قليلة منها تتجلى ألوان أدبه

وسهولة بيانه . قال فى كتاب المحاضرات :

ذكرت للوزير مناظرة جرت فى مجلس الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات ، بين أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى واختصرتها فقال لى : اكتب هذه المناظرة على التمام ، فإن شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيه ، وبين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ، ينبغى أن يغتنم سماعه ، وتوعى فوائده ، ولا يتهاون بشىء منه . وكان فى جملة من حضر ذاك المجلس الذى انعقد سنة عشرين وثلاثمائة : الخالدى وابن الإخشيد والكندى وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب وقدامة بن جعفر والزهرى وعلى بن عيسى بن الجراح وأبو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوى ورسول ابن طُغج من مصر والمرزبانى صاحب بنى سامان . قال التوحيدى فقال لى الوزير : أين أبو سعيد من أبى على ، وأين على بن عيسى منهما ، وأين ابن المراغى أيضاً من الجماعة ، وكذلك المرزبانى وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه ؟ فكان منى الجواب : أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل فى كل باب ، وأخرج عن كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وأروى للحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفين ، وأظهر أثراً فى المقتبسة .

ومما جاء فى هذه المناظرة فى اللغات والترجمة : إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك . . . فمن أين يجب أن نثق بشىء ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية أحوج

منك إلى تعرف المعانى اليونانية ، على أن المعانى لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية . . . ومن فِقَرِها قال أبو سعيد : فأنت (أى متّى) إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفى بها وقد عَفَت منذ زمان طويل ، وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول فى معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية ؟ قال متّى : يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض ، وأدت المعانى ، وأخلصت الحقائق . قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقوّمت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنها ما التاثت ، ولا حافت[1] ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العام ، وإن كان هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ، ولا فى مقادير المعانى ؛ فكأنك تقول بعد هذا لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه . قال متّى : لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه ؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، ونشأ ما نشأ ، من أنواع العلم وأصناف الصناعة ، ولم نجد هذا لغيرهم . قال أبو سعيد : أخطأت وتعصبت ، وملت مع الهوى ، فإن العلم مبثوث فى العالم . ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث   ونحوَه العاقل محثوث

(١) حاف يحاف حيفاً جار وظلم ، والتاث اختلط .

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض ، ولهذا غلب علم فى مكان دون مكان ، وكثرت صناعة فى بقعة دون صناعة ، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة . ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفطرة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا ، ولو قصـدوا أن يكذبوا ما استطاعوا ، وأن السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل ممن يظنه بهم ، وعناد ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشـياء ، ويخطئون فى أشياء ، ويصدقون فى أمور ، ويكذبون فى أمور ، ويحسنون فى أحوال ، ويسيئون فى أحوال . . . .

قال أبو حيان : هذا آخر ما كتبت عن على بن عيسى الشيخ الصالح بإملائه ، وكان أبو سعيد روى لمعاً من هذه القصة ، وكان يقول لم أحفظ على نفسى كل ما قلت ، ولـكن كتب ذلك القوم الذين حضروا فى ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً ، وقد اختل كثير منه . قال على بن عيسى : وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبى سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده المتتابعة . وقال له الوزير ابن الفرات : عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكباداً ، وأقررت عيوناً ، وبيضت وجوهاً ، وحكت طرازاً لا تبليه الأيام . ولا يتطرقه الحدثان ، قال قلت لعلى بن عيسى : وكم كانت سن أبى سعيد يومئذ ، قال مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[1] .

* * *

(١) لهازم جمع لهزمة وهما عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين .

نقل القفطى أن السبب فى تأليف التوحيدى كتاب الإمتاع والمؤانسة أن أبا سليمان المنطقى أستاذ التوحيدى فى الفلسفة — وكان منزله فى دار السلام مقيل[١] أصحاب العلوم القديمة — كان لانقطاعه عن الناس ، ولزومه مجلسه ، يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة ، وعلم ما يحدث فيها ، بمكان من يغشاه من الأجلاء ، ينقل إليه بعض أخبارها ، وكان أبو حيان من بعض المتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء و يطلع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤاسة ، نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى الوزارة . قال : وهو كتاب ممتع على التحقيق ، لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة . قال القِفطى : وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتـدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلا ملحفاً اه . وفى الكلام الأخير صورة صغيرة مما كان يعاب على أخلاق أبى حيان ، وقد لا يجد المدافع معذرة يعتذر بها عنه . ومنزع التوحيدى واحد وهو ما قاله فى آخر كتاب أخلاق الوزيرين « ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السعيد المأمول فاقرة[٢] ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة [٣] ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب » . ومن الإنصاف أن نقول إن التوحيدى أجاد كل الإجادة فى التعريف بالرجال ، ووقفنا على نفسياتهم ونزائعهم ، وليس هذا بالأمر السهل .

ومن كتاب الإمتاع : « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدى

---

(١) المقيل : الموضع . (٢) الفاقرة : الداهية .

(٣) الجائحة الشدة والنازلة .

فى حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفاء بقوله : إنى لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبنى ، ومذهباً لا عهد لى به ، وكناية عما لا أحققه ، وإشارة إلى ما لا يتوضح شىء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة ، والألف لم تعجم إلا لغرض وأشباه هذا ؛ وأشهد منه فى عرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته[1] ؟ فقد بلغنى يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه ، وتكثر عنده ؛ ولك معه نوادر معجبة ؛ ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته ، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه ، وخافى مذهبه . فقلت : أيها الوزير ، أنت الذى تعرفه قبلى قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام ، وله منك الإمرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال : دع هذا وصفه لى . فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر فى الآراء والديانات ، وتصرف فى كل فن ، إما بالشدو[2] الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهى المفحم . قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب إلى شىء ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شىء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمناً طويلاً ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة . منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ، ويعرف بالمقدسى وأبو الحسن على بن هرون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت

---

(١) مذهبه وبيته . (٢) الشدو قليل من كل كثير .

على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ؛ فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها : « رسائل إخوان الصفاء » وكتموا فيها أسماءهم ، و بثوها فى الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق المموهة .

قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها وهى مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى السجستانى محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً ، وتبحرها طويلاً ، ثم ردها علَىَّ وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغَنُّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا [(١)] ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التى هى علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطى وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذى هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذى هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات فى الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة فى الفلسفة ، وهذا مرام دونه حَدَد [(٢)] . وقد تورد [(٣)]

---

(١) ثوب مفلفل موشى ، وهلهلوا : نسجوا نسجاً سخيفا .

(٢) ممتنع باطل .

(٣) ورد : أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورد .

على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات[1] قبيحة ، والطخات واضحة ، وحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخارى ابن العباس : ولم ذلك أيها الشيخ ؟ فقال : إن الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ ، بوساطة السفير بينه وبين الخلق ، من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بد من التسليم المدعو إليه ، والمنبه عليه ، وهناك يسقط « لِمَ » ويبطل « كيف » ويزول « هلا » ويذهب « لو وليت » فى الريح الخ (عن تراجم الحكماء) . هذه حقيقة جمعية إخوان الصفاء ، وصفها التوحيدى أجمل وصف وما أحلى قوله فى ابن رفاعة إنه تصرف فى كل فن إما بالشدو الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهى المفحم .

من كتاب تقريظ الجاحظ : هذا الكتاب ينقل عنه ياقوت أحياناً ونقل عنه الجرجانى فى كنايات الأدباء كما نقل أيضاً عن كتاب الذخائر والبصائر قال : قرأت بخط أبى حيان التوحيدى فى كتابه الذى ألفه فى تقريظ الجاحظ . وقد ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال ومنهم على بن عيسى الرمانى فإنه لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش . ولا اشمئزاز ولا استيحاش . علماً بالنحو . وغزارة فى الكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ، ودين ويقين ، وفصاحة وفقاهة ، وعفافة ونظافة .

ونقل ياقوت أيضاً جملة من هذا الكتاب فقال : ومنهم (أى من الذين قدمهم التوحيدى على الجاحظ وفضلهم) أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ وإمام

(١) اللوثة بالضم : حمق وهيج ومس جنون .

الأئمة معرفة بالنحو ، والفقه ، واللغة ، والشعر ، والعروض ، والقوافى ، والقرآن ، والفرائض ، والحديث ، والكلام ، والحساب ، والهندسة . أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقة بخطه فى السليمانى ، فما جاراه فيه أحد ، ولا سبقه إلى إتمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية ، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله . وهذا الكتاب من عجائب التوحيدى أيضاً فإنه على ما ظهر من هذين النموذجين فيما نرى فى وصف السيرافى والرمانى أنه فضلهما على الجاحظ فى هذا الاختصاص وهذا موضع نظر أيضاً .

مثال من كتابه الصداقة والصديق قال فى مقدمته : « اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ؛ آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لا بد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تؤتى من تشاء ما تشاء .

« سُمع منى فى وقت بمدينة السلام ، كلام فى الصداقة والعشرة ، والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ ، والوفاء والمساعدة ، والنصيحة والبذل ، والمؤاساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعُفى أثره عند العام والخاص ، وسئلت إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة ، وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها فى المعاش والمعاد . وسمعت الخُوارزمى أبا بكر محمد

ابن العباس الشاعر البليغ يقول : اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص ، كما مات الفهم . وأقول : اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ، والفرج معدوم ، وأظن أن الداء فى هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج منه معتاد .

« فأول ذلك أنى قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى إنى أرى بينك و بين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة خُلُقية . فمن أين هـذا وكيف هو ؟ فقال : يا بنى اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طمأنينة وسكوناً لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ، ومواقع الكواكب ، مشاكلة عجيبة ، ومظاهرة غريبة حتى إنا نلتقى كثيراً فى الإرادات والاختيارات ، والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان ، حتى كأنها قسائم بينى و بينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا ، وربما حدثته رؤيا فيحدثنى بأختها ، فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل : قال : ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه . فحدثته عما نتقاسمه من قوى الفلك ، وأن سهمنا واحدة . وأنصبتنا منه متساوية ، أو قريبة من التساوى ، فعجب وازداد بصيرة فى إخلاص الصداقة . وتوكيد العلاقة . فقلت لأبى سليمان كيف يصح هـذا . وأنت مضنك فى فلسفة . وصورك مأخوذة من الحكمة . وقتيبتك[1] مجموعة من حقائق . وخوضك فى

(١) قتيبة : تصغير قتبة ، وهى . . . .

الغوامض والدقائق ، وذاك رجل فى عداد القضاة ، وجلة الحكام ، وأصحاب القلانس ، ومخاضه[1] الظاهر الذى عليه الجمهور ، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم ؟ فقال : هذا هو الذى انفردنا عنه ، بعد أن ازدوجنا عليه ، والأصل أبداً مخالف للفرع ، لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مشتريه خالياً من قوة زحل ، فبرّز فى حلبة القضاة ، وكان المشترى لى مقتبساً من زحل فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .

قلت : هذا والله طريف ، ومما يزيد فى طرافته أنك من سجستان وهو من الصَّيْمَرة ، فقال : الأمكنة فى الفلك أشد تصاماً من الخاتم فى إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذى تجده بالمسافة الأرضية ، من بلد إلى بلد ، ففراسخ تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تُخرق ، فقلت : هل تجد عليه فى شىء أو يجد عليك فى شىء ؟ فقال : وجدى به فى الأول ، قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه فى مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا ، كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا فى ذاك مقنع ، وإليه مفزع ؛ وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى ، ولا ندّت عن صدرى إلى لفظى ، وذاك للصفاء الذى نتساهمه ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه ، والأصل الذى رسوخنا فيه ، والفرع الذى تشبثنا به ، والله ما يسرنى بصداقته حُمر النَّعم ولا أجد بها بحياتى ما أجد بحياتى لى ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وحنى لى ثمرتها ، وجاب إلى روحها ، وخلط لى طيبها وحلاوتها .

---

(١) المخاضة ما جزر الناس فيه مشاة وركباناً ، وخاض الغمرات اقتحمها .

وكان أبو سليمان يحدثنى عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلا صاحب جَدّ وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعانى ، بعيد المرامى . يذهب مذهب أبى حنيفة .

« ثم قال أبو سليمان : الصداقة التى تدور بين الرغبة والرهبة ، شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه فى غرور ، والزلة فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور . قال : فأما الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة ، ولذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفى بعهودها ، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى ، والشائق والاستحلاء والاستخفاف ، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم ، ونهاية المشاكلة لهم لانتشابهم[1] بهم ، وانتسابهم إليهم ، وولوع طورهم بما يصدر عنهم ، ويرد عليهم . وأما التُّنَّاء[2] وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث فى عير ولا نفير . وأما التجار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم وبين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة . وأما أصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى ، وتأسيسها على أحكام الحرج ، وطلب سلامة العقبى . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحسد ، والتمارى والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذاب والتطفيف[3]

---

(١) انتشب به : اعتلق .

(٢) التانئ : الساكن ، وتنأ : أقام .

(٣) التطفيف نقص يخون به صاحبه فى كيل أو وزن ، والمطففون الذين ينقصون المكيال والميزان ، والمذاب جمع مذبة بكسر الميم : ما يذب به الذباب ، وهى هنة تسوى من هلب الفرس ، ويقال أذنابها مذابها ، وهو مجاز .

فإنها رِجْرِجة (١) بين الناس . لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعى فتنشر ، ولذلك قيل لهم همج ورَعَاع ، وأوباش وأوتاش (٢) ولغيف (٣) وزعانف وداصَة (٤) وسُقَّاط وأنذال وغوغاء ، لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة النفوس ، ولؤم الطباع ، على حال لا يجوز أن يكونوا فى حومة المذكورين ، وعصابة المشهورين . فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها ، الزائغة إلى غير جهاتها ، علل وأسباب ، لو نفَّس الزمان قليلاً لكنا ننشط لشرحها ، وذكر ما قد أتى النسيان عليه ، وعفى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت ، ومن أين يظفر بالغذاء ، من كان عاجزاً عن الحاجة ، وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ، وكيف يحتال فى حصول طِمْرين (٥) للستر لا للتجمل ، وكيف يهرب من الشر المقبل ، وكيف يهرول وراء الخير المدبر ، وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويشتكى إلى غير رحيم ، ولكن حال الجريض دون القريض (٦) .

« ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ ، والكمد والومد (٧) ، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقمصت نفسه عنها ، وأمرّ نقده عليها ، وأنكر علىّ التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ، لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك ، وذلك

(١) الرجرجة : بقية ماء مختلط بطين فى أسفل الحوض ، ويطلق على الحمقى والمهاريل .

(٢) الوتش : القليل من كل شىء ورذال الناس ، ولعلها الأوقاش وهم الأوباش أيضا .

(٣) اللغيف : من يأكل مع اللصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم .

(٤) جمع دائص وهو اللص أو من يتتبع الولاة .

(٥) الطمر بكسر الطاء : الثوب الخلق .

(٦) الجريض : الغصة من الجرض وهو الريق والقريض الشعر ، وأصل المثل أن رجلا كان له ابن نبغ فى الشعر فنهاه أبوه عن ذلك فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك فأذن له أبوه فى قول الشعر ، فقال هذا القول .

(٧) الغضب .

لعلمك بحالي ، واطلاعك على دخلتي ، واستمراري على هذا الإنقاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي ، ونكثا مِرّتي[١] ، وأفسدا حياتي ، وقرناني بالأَسى ، وحجباني عن الأسى[٢] ، لأني فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي ، فإن اتفق فبقال أو عصار ، أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني[٣] بصُنانه ، وأسكرني بنتنه . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلُق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوَحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدّ من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أُفول ، وظل التلبث إلى قلوص » .

قال التوحيدي بعد ذكر هذه المقدمة إن سبب إنشائه هذه الرسالة في الصداقة والصديق أنه ذكر « شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها[٤] جارية » ، فأشار عليه ابن سعدان أن يدونه ، فجمع هذه الرسالة ، وأبطأ عن تحريرها ، فلما مرّ على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها .

وقال في مكان آخر : « قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف ، والهجر والصلة ، والعتب والرضا .

---

(١) المرة بكسر الميم : قوة الخلق وشدته .
(٢) الأسى بفتح الحزن والأسى بالفتح والضم واحدها أسوة ما يأتسي به الحزين
(٣) أسدرني : حيرني . والصنان ذفر الإبط . (٤) في المتن : أمر الأمور على أذلالها أي على وجوهها في تصحح وسهل وتيسر ، ووجد الأذلال ذل بالكسر .

والمذق[1] والإخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه ، وأجرى إلى الغاية فى ضم الشىء إلى شكله ، وحبسه فى قالبه ، فكان رونقه أبين ، ورفقه أحسن ، ولكن العذر قد تقدم . ولو أردنا أيضاً أن نجمع ما قاله كل ناظم فى شعره ، وكل ناثر من لفظه ، لكان ذلك عسراً بل متعذراً ، فإن أنفاس الناس فى هذا الباب طويلة ، وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة ، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب ، أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف ، أو قريب أو بعيد أو ولى أو خليط . كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مداجٍ أو مكاشف ، أو حاسد أو شامت ، أو منافق أو مؤذٍ ، أو منابذ أو معاند ، أو مزل أو مضل أو مغل . وقد قال الأوائل الإنسان مدنى بالطبع ، و بيان هـذا أنه لا بد له من الإعانة والاستعانة ، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر ، و إذا كان مدنياً بالطبع كما قيـل ، فبالواجب ما يعرض فى أصناف ذلك من الأخذ والعطاء ، والمجاورة والمحاورة ، والمخالطة والمعاشرة ، ما يكون سبباً لنظام الحال ، أو يكون سبباً لانتشار الأمر ، ولا محالة أن هـذه وأشباهها مفضية بالناس إلى جملة ما نمته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم ، وكتبنا جورهم و إنصافهم ، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه ، وعيون ما ذكروه ونشروه ، وبروى فى هذا الموضع بقية أبيات و إن عنَّ شىء حكيناه ، ونفاق الرسالة فإنها إذا طالت أبغضت ، و إذا أبغضت هجرت اهـ .

وهـذا النموذج الذى أوردناه من الصداقة والصديق كافٍ فى الحكم على

---

(١) مذق الود : لم يخلصه .

أُسلوبه والروح الذى ينزع إليه فى تأليفه . وملاحظة التوحيدى على ائتلاف المتضادين فى العلم ، والتمثيل بصداقة أُستاذه أبى سليمان المنطقى وصديقه ابن سيار القاضى ، ووصف أبى سليمان وصفاً دقيقاً للصلات التى عقدت بين قلبهما ، ثم إبداعه فى وصف طبقات الأصدقاء ، كل ذلك من جميل الوصف ، وإلى اليوم ما اختل هذا التقسيم ، وإن رأيت الوفاء والصداقة فنى النادر الشاذ . ومن أبدع الصفحات وصف غُربته فى أُمته ، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلُق والعادة . ولا بدع فهو من جيد الوصف فى نفسية أهل عصره ، ومنزلة العالم بين جمهور الغاغة[1] . ومن أجمل الأعذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علماً منه أن مكانة الكتاب بعادته لا بسعته ، ولكن إذا قضت الحال بالتطويل ، اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه .

* * *

وفى كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله : رأيت ابن سعدان ينشد يوماً وقد أنكر شيئاً من بعض الندماء :

عدوٌّ راح فى ثوب الصديق ... شريك فى الصَّبوح وفى الغَبوق[2]

له وجهان ظاهره ابن عم ... وباطنه ابن زانيـة عتيق

يسرك ظاهراً ويسوء سراً ... كذاك تكون أبناء الطريق

وأنا أسمى لك ندماءه ، وأروى كلاماً له وصفهم به . منهم أبو على عيسى ابن زرعة النصرانى المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، وابن الحجاج الشاعر ، وأبو الوفاء المهندس ، وابن بكر ، ومسكويه ، وأبو القاسم الأهوازى ، وأبو سعد

(١) أصل معنى الغوغاء الجراد بعد أن ينبت جناحه أو إذا انسلخ من الألوان وصار إلى الحمرة وشىء يشبه البعوض ولا يعض لضعفه وبه سمى الغوغاء من الناس وهم الكثير المختلط منهم كالغاغة .

(٢) الصبوح ما يشرب فى الصباح والغبوق ما يشرب بالعشى .

بهرام بن أزدشير . وكان أوزنهم عنده ، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه . هؤلاء أهل المجلس سوى الطارئين من أهل الدولة لا فائدة فى ذكرهم . قال زيد بن رفاعة وكان قريباً له من جهة الخوف له (؟) : رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق ، ليستفيده الصغير والكبير . قال : أصحابى طرائق قدد[1] ، كما قال عبد الحميد الكاتب : الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فمنهم عِلق[2] مضنة لا يباع ، ومنهم غُل[3] مظنة لا يبتاع . وكما قال الآخر :

الناس أخياف وشتى فى الشيم　　وكلهم يجمعهم بيت الأدم

فأما ابن زرعة فكبره بالحكمة ، وخيلاؤه بالثروة ، قد قدحا فى حاق[4] عقله ، وهو لا يحس بذلك القدح ، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا النفخ والتعظيم ، والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان ، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء ، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب . يا نائم يا غافل يا ساهى ، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء ، أسيرتك سيرتهم ، أحالك حالهم ؟ إنما تدعى عقائدهم باللسان ، وتنتحل أسماءهم باللفظ ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل ، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله ، لكان محمولاً مقبولاً ، ولكنه يأبى إلا ما ألفه ، وأفاد المران عليه .

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة قد طرحه فى عمق لجّ لا مطمع فى انتقاذه منه ، ولا طريق إلى صرفه عنه ، هذا مع حركات

(١) طرائق قدد : فرق مختلفة أهواؤها .

(٢) النفيس من كل شىء ج أعلاق وعلوق .

(٣) سير من جلد أو حديد يجعل فى عنق الأسير ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق : غُلٌّ قَمِلٌ .

(٤) وسط عقله .

غير متناسبة ، وشمائل غير دمثة ، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة ، ودالة أصحاب الحجة .

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاضى أبى عمر فى جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته ، مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة ، وبين سخف شعره الذى لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله ، فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء ، فى صورة عقل حسناء ، ولا تَخلُص هذه من هذه ، ولا جرم اجتماعنا به ، قاصر عن مرادنا منه ، ودنوه منا ناب عن مراده له . أما الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطربة ، والفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى إذا « تخرسن » كان أحلى وأظرف من الخراسانى إذا « تبغدد » . وإن شئت فصع الاعتبار على من أردت فإنك تجد هذا القول حقاً ، وهذه الدعوى مسموعة .

وأما مسكويه فإنه يسترد بدمامة خَلقه ما يتكلفه من تهذيب خُلقه ، وأكره له المشاغبة فى كل ما يجرى ، لا يجد فى نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مصاءه فى فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السيل ، لا يأذن له فى تعاطى فن آخر هو فيه قصير الباع ، بليد الطبع ، وصاحب هذا الرأى ممكور به ، مصاب بجيد رأيه وقد أفسده : قال المهلبى ، قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين ، والتشيع بذكر الرجال ، واضع من قدر الرجال .

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس ، ولا بد للدار وإن كانت قوراء[1] من

(١) القوراء : الواسعة .

مخرج ، وهو بجهله ، مع خفة روحه وقبح وجهه ، أدخل فى العين ، وألصق بالقلب من غيره ، مع علمه وثقل روحه ، وحسن ظاهره .

وأما الأهوازى أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة ، ولا حموضة ولا ملوحة ، وإنما هو كالبصل فى القِدر ، وكالإصبع الزائد فى اليد ، على أنا نرعى فيه حقاً قديماً ، ونرحمه الآن رحمة حديثة .

وأما سيدى أبو سعد فوالله إنى لأجد به وجداً أتهم فيه نفسى ، وما وجدت ألم سهر معه قط ، وإنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أُدركت ، ومن الدنيا إذا مُلكت . وإنَّ تمازُجَنا بالعقل والروح ، والرأى والتدبير ، والنظر والإرادة ، والاختيار والعادة ، ليزيد على حال توأمين تراكضا فى رحم ، وتراضعا من ثدى ، ونوغيا فى مهد ، وما أخوفنى أن يؤتى من جهتى ، أو أُوتى من جهته ، وإن عاقبته موصولة بعاقبتى ، لأنى مأمنه وهو مأمنى ، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه ، والله المستعان .

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته ، ولولا زيادته التى تصنع بها من نفسه ، وبعض من خطراته ، لكان هَدَّكَ[1] من رجل ، ولكن من لك بالمهذب ، ألم يقل الأول : أى الرجال المهذب .

قال زيد بن رفاعة : قلت أيها الوزير إن طلوعك فى خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم ، يطالبانك بالإفراج عنهم ، وقلة الاكتراث بهم ، قال : لا نفعل والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقّن[2] على الحكمة المروية ،

(١) هدك : حسبك .

(٢) الترقين : تسويد مواضع فى الحسابات لئلا يتوهم أنها بيضت كى لا يقع فيها حساب .

والأدب المتهادَى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء ، أو لا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ؟ قال : قلت هـذا ابن عباد بالري وهو من يعرف ويسمع . قال : ويحك ! وهل عنـد ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول قال شيخانا أبو علي وأبو هاشم ، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته ، فما أحب أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليـه ، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم والأدب والحنكة والإنصاف لذكر شأنه وسيرته ، ووصف حاله وطريقته ، لحكى كل غريبة ، وأتى بكل أعجوبة : الرحل مجدود ، وفي زمرة أهل الفضل معدود .

قال : رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكاناً منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق اهـ » .

عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء في عصر التوحيدي وما يغمزهم به الغامزون ، وأبى يغتابهم المغتابون ، ولو كتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان في كتبه لجاءت السلسلة تامة من كل وجه في الحكم على أهل القرن الرابع في بغداد ، واتبدل الحكم عليهم وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم ، كأنها حكم مُسَمَّط[1] لا ينقض .

في مقدمة كتابه ثمرات العلوم : « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم ، وقد كان يقال من لم يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبني جنسه منتصراً ، ومن لم يقف عند العظيمة منتصماً ، لم يرج عند النوائب مسعفاً ، ومن لم يأنف من

(١) حكمك مسمطاً أي متمماً أي لك حكمك مسمطاً .

القذع فى عرضه آبياً ، لم يبت على الخسف إلا راضياً ، والغضب وإن كان مذموماً عنـد بعض الخلال ، فإنه محمود فى بعض الأحوال ، وكما أن استمرار الغضب فى جميع الأحوال ، نوع من فساد الأخلاق ، كذلك أيضاً الرضا فى جميع الأمور ، ضرب من ضروب النفاق ، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب .

« وقد كنت أحب لصديقى وجليسى ، ومن يأنس بمكانى ، أن لا يجعل اللَّجاج مطيته ، والمَحْلَ[1] والمكر طويته ، فإن ذلك أحسن له عند الله ، وأزين له عند الناس ، ومن بعد ذلك فإنى لم أرد بلادكم من العراق مباهياً لـكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم ، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم ، ولا تتبعت مساويكم شامتاً بكم ، بل وردت مستفيداً ومفيداً ، ومباحثاً ومستزيداً ، فما هذا الذى بلغنى عن بعضكم ، على حسن توفرى على صغيركم وكبيركم ، أما إنه لو أنصف لعلم أنى إلى تسمحه ، أحوج منى إلى تصفحه ، وهو عجاملته أسعد منى بمجادلته ، وأنا لإحسانه ، أشكر منى لامتحانه ، وهذا باب باطنه ظاهر ، وشاهده حاضر ، وخصمه جلى ، ولـكن ما أصنع والشاعر يقول : « إنما للعبد ما رزقا » .

« ولعمرى ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف ، ولـكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر ، والترادف والتناصر ، والذى هاجنى لهذه الشكوى ، وأحوجنى إلى هذه العدوى ، قول قائل منكم ، ليس للمنطق مدخل فى الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير فى الأحكام ، وهذا كلام من لو أنعم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ماله منه . فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً[2] ،

---

(١) المحل : المكر والكيد . (٢) الخلاق : كسحاب الصيب ، الوافر من الخير .

عاب هذا الرجل المنطق وهَجَّن طريقة الأوائل ، وزرى على الحكمة ، وفَيَّل[1] رأى الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ، وهذا كله إن لم يكن ثَمَّه سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن ، وحرج صدر ، ومجازفة فى القول ، وانحرافاً عن الصواب ، وأمناً من الاعتقاب الخ ، وربما نيل من عرض صاحبها ، وأنحى باللائمة عليه من أجلها ، وهو قلم لا يقصد إلا الخير ، ولا أراد إلا الرشاد ، وقد يؤتى الإنسان من حيث لا يعلم ، ويرمى من حيث لا يتقى ، كما يؤتى من حيث لا يحتسب ، وينجو وقد أشفى ، ويدرك وقد غاب الناس » .

وعاد فى آخر الرسالة يعتذر عن طولها: « قد تكرر اعتذارى من طول هذه الرسالة ، وكان ظنى فى أولها أنها تكون لطيفة خفيفة ، يسهل انتساخها وقراءتها ، فجاءت بشجون الحديث ، وروادف من الطيب والخبيث ، فاقبل ، حاطك الله ، هذا العذر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت ، فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أى حال تمت اتجهت ، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك » اه ...

***

وفى الحق أن رسالته فى الصداقة والصديق قد حوت من آراء الناس إلى عصره كل ما رق وراق من المنظوم والمنثور فى موضوعه . ولم يقتصر فى الرواية على حكماء الإسلاميين ؛ بل تعدى إلى إيراد أقوال فلاسفة يونان . وفى الرسالة من رسائل الكتاب فى هذا الباب ، ما هو مفيد على عبر الأحقاب ، وقد ذكر أبا سليمان المنطقى وأبا سعيد السيرافى غير مرة وروى عنهما ما دل على إعظامه لهما شأنه فى مقابساته . ولا مراء فى أن رسالة الصداقة والصديق ، مرآة صادقة تمثلت فيها

---

(١) فيل رأيه : قبحه وخطأه .

أفكار أربعة قرون فى هذا النوع الصغير من الأدب ، ولغة حوت مثل هذه الأفكار وهذه المعانى هى ولا شك أغنى اللغات بأدبها ووفرة مادتها وأداتها .

وهذه الرسالة على ما رأيناها كتبها بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم ، وتأولوا كلامه فجبهم بما كتب وأجاد . وجميع كتبه على ما ظهر مما دعا إلى وضعه دواع حافزة ، وأمور جاش بها صدره ، فهى معمولة بالمناسبات لا متعملة ، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التى نحسها ونلمسها .

من جملة كتب أبى حيان كتاب المقابسات ، واسمه صيغة تفاعل من قبسته أو أقبسته علماً وخبراً أى أن كلا أقبس صاحبه علماً ، وصاحبه أقبسه من علمه . ذكر فيه أبو حيان ، وأكثره من محفوظه ، بعض ما وقع إليه من مفاوضات علماء مشهورين ، كانوا فى بغداد يختلفون إلى مجلس صديقه وأستاذه أبى سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، وعنه أكثر مروياته ، فيتذاكرون فى موضوعات شتى فى الفلسفة أو ما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب ، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة ، وهذبت نفوسهم الآداب العالية ، يتناحون بالأفكار الصحيحة والشاذة ، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم . وكان فيهم المجوسى والصابى واليعقوبى والنسطورى والملحد والمعتزلى والشافعى والشيعى أمثال أبى زكريا يحيى بن عدى وأبى الفتح النوشجانى وأبى محمد المقدسى العروضى وأبى بكر القومسى وعيسى بن ثقيف الرومى وابن مقداد وأبى القاسم الأنطاكى ، وكان يعرف بالمجتبى ، وأبى محمد الأندلسى النحوى وأبى إسحق الصابى والخوارزمى الكاتب ووهب بن يعيش الرقى وابن سوار ومانى المجوسى وأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبيد الكاتب والبديهى وأبى إسحق النصيبى وأبى على عيسى بن زرعة المنطقى ومظهر الكاتب وأبى

الخطاب الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد فى شأنه وفرد فى صناعته » ، وكان مذهبهم فى الفلسفة على الأرجح مذهب أرسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الإسلام ، أمثال ثابت بن قرة وحنين بن إسحق و يعقوب بن إسحق وأحمد بن سهل البلخى ومسكويه والقُمى والسرخسى والنيسابورى . يطلقون فى جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم ، ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين إلى هدف واحد ، وهو معرفة حقائق الأشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات شأن علماء العصور الأخيرة . وإذا أحببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح أهل هذا العصر فقل هو محضر جلسات المجمع العلمى البغدادى فى القرن الرابع ، وكان لا يحضرها إلا من يدعى إليها ، ويوافق من أكثر الوجوه على ما يلقى فيها .

وهذه المجامع مثال ناطق بأفصح بيان بأن النصرانية لم تكن مضطهدة فى العهد العباسى كما زعم بعضهم ، بل إن الإسلام كان دين الدولة ، والبلاد لأهلها ، فكانت بحكم الطبيعة كلمة المسلمين هى العليا ، وقد ساووا عامة أهل المذاهب بأنفسهم ، مساواة لم تصل إليها أكثر دول الحضارة الحديثة اليوم . وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بأن نقول إن علماء العرب ما برحوا منذ الأعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون فى أندية لهم خاصة ، تجمعهم جامعة الأعمال العقلية ، فيتقاربون وإن اختلفوا فى مظاهرهم ، وقد لا يحابيهم الزمن من موسع عليه من بينهم ، يفتح صدر مجلسه لهم ، يستطلع طلع أفكارهم ، ويأنس بهم ويأنسون به ، ويعطف عليهم ويعطفون عليه . وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من أهل الدولة من يحميها ، أو تكون للسمر واللعب واللهو وتعاطى الملاذ . ومعظم ما تناهى إلينا من أخبارها مفيد .

سئل أبو سليمان المنطقى لِمَ لم يصفُ التوحيد فى الشريعة من شوائب

الظنون وأمثلة الألفاظ ، كما صفا ذلك فى الفلسفة فقال : إنا لا نظن أن كل من كان فى زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم . وعرف حقيقة أقوال متقدميهم ، بل كان فى القوم من رأى رأى العامة ، وحط إلى ما حطت إليه ، ولم يبن منهم كثير شىء مع قدم الزمان ، ولقاء المحققين الفاضلين ، وهذا إذا حل لا يكون قادحاً فيما نصصناه من القول فى حقائق التوحيد الذى ظفر به خلصان الحكمة ، وفرسان الصناعة . على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربيـــة قد أخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد . ولو كانت معانى يونان تهجس[1] فى أنفس العرب ، مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها المعجز ، وسعتها المشهورة ، لـكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب[2] ، وكاملة بلا نقص ، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضاً ناقعاً للغليل ، وناهجاً للسبيل ، ومبلغاً إلى الحد المطلوب ، ولـكن لا بد فى كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها ، وخفايا لا يهتدى أحد من البشر إليها ، وذلك للعجز الموروث عن الهيولى ، والضعف الثابت فى الطينة الأولى ، وهـذا لـكى يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ، ومعاذاً للعالم .

قال أبو حيان لأبى سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين و بين طريقة الفلاسفة ؟ فقال : ما هو ظاهر لـكل ذى تمييز وعقل وفهم ، وطريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وعلى ما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل

(١) هجس الشيء فى صدره : خطر بباله . (٢) الشوب : الخلط .

مع الإلف والعادة والمنشإ ، وسائر الأعراض التى يطول إحصاؤها ، ويشق الإتيان عليها ، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع ، وإسكات الخصم بما اتفق ، وإتمام القول الذى لا محصول فيه ، ولا مرجوع له ، مع بوادر لا تليق بالعلم ، ومع سوء أدب كثير ، نعم ومع قلة تأله ، وسوء ديانة ، وفساد دخلة ، ورفض الورع بتحمله . والفلسفة أدام الله توفيقك محدودة بحدود ستة ، كلها تدلك على أنها بحث عن جميعها فى العالم : من ظاهر للعين ، وباطن للعقل ، ومركب بينهما ، ومائل إلى حد طرفيهما ، على ما هو عليه ، واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله ، ومسموعه ومرئيه ، وموجوده ومعدومه ، من غير هوى يمال به على العقل ، ولا إلف تفتقر معه جناية التقليد ، مع إحكام العقل الاختيارى ، وترتيب العقل الطبيعى ، وتحصيل ما ند وانقلب ، من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حساً وعياناً ، وكانت محققة عقلاً وبياناً ، ومع إخلاق الهيئة واختيارات علوية ، وسياسات عقلية ، ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها ، ولا تبلغ أقصى ما لها من حقها فى شرفها .

ثم قال : وكان شيخنا يحيى بن عدى يقول : إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام ، والكلام لنا بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ، كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل كلام ، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت . أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوى والطبيب والمهندس والمنطقى والمنجم والطبيعى والإلهى والحديثى والصوفى قال : وكان يلهج بهذا وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أصولاً ، وجعلوا ما يدعونه محمولاً عليها ومسؤولاً عن عرفها ، وإن كانت المغالطات تجرى عليهم ومن جهتهم ، بقصدهم مرة ، وبغير قصدهم أخرى .

قال أبو حيان : رويت لأبى سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال : لو قلت أنا فى هذه الطريقة شيئاً لقلت : الحواس مهالك ، والأوهام مسالك ، والعقول ممالك ، فمن خلص نفسه من المهالك ، قوى على المسالك ، ومن قوى على المسالك ، أشرف على المهالك ، شرفاً يوصله إلى الممالك . قال أبو الخطاب الكاتب : أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم ، فلو زدتنا منه ، فقال : الحواس مضلة ، والأوهام مزلة ، والعقل مذلة . فمن اهتدى فى الأول وثبت فى الثانى أدرك فى الثالث ، ومن أدرك فى الثالث فقد أفلح ، ومن ضل فى الأول وزل فى الثانى خاف ، ومن خاف فى الثالث فهو من الهمج . واستزاده مظهر الكاتب البغدادى فاستعفى قال : هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكسة ... إلى أن قال : فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة ، وهذه الأسرار فى هذه الطريقة اه .

على هـذا النحو كانوا يمضون فى أحاديثهم ، فقد صرح أحدهم عما يراد فى التصوف فلم يحط منه ولا من المنصرفين إليـه ، وتناول آخر المتكلمين فى غير ما تدليس وتأدب معهم ، والمتكلم غير مسلم ، لـكن العلم مشاع لأهل كل مذهب ، ولم يحمل كلامه على غير محمله . وقال آخر فى الفلسفة ، وامتدح من معانى اليونان ، وقال : لو كتبت بالبيان العربى لكانت غيرها ، وهذه هى الحرية المطلقة ، ولولاها ما عاش علم صالح ، ولا انبعث عقل راجح ، ولا كانت حضارة هذه الأمة مما ترتفع به الرؤوس ، ويقال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس .

قال فى مقدمة كتابه الإشارات الإلٰهية مخاطباً النفس : اللهم إنا نسألك ما يسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلك ، ولـكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم وعن

توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمار قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ؛ نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ويا مسبل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشئ الأخبار ، ويا مولج الليل فى النهار ، ويا مصافى الأخيار ، ويا مدارى الأشرار ، ويا منقذ الأبرار ، من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ؛ وانعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا ، وإذا خفنا منك فأبرح[1] خوفنا منك برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا يأسنا منك فتلقه بالأمل فيك . . . .

ومن فصوله فيه : أيها المحاور ، والصديق المحاور ، كيف أتكلم ، والفؤاد هائم فى كل واد ، والخاطر خال من كل جاد وهاد ، أم كيف أشكو والسر ظاهر باد ، أم بأى شىء أتعال وكل ما أجده مردد ومعاد ، أم على من أعتمد ، وكل أحد أراه فهو لى ضد ومعاد ؛ أنفاسى محترقة بالحسرات ، ودموعى مترقرقة بين النغرات والزفرات ، وكبدى مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتى جارية على الرسوم والعادات ، وأحلامى عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينة بالسيئات ، مفتونة بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، ممنوعة عن الحسنات والصالحات ، الجهات دونى منسدة ، والوجوه أمامى مسودة ؛ إن قلت قيل هذا زور وبهتان ، وإن أشرت قيل هذا غرور وعدوان ، وإن سكت قيل هذا سهو ونسيان ، فليت من ابتلانى بما لا طاقة لى به ، رحمنى بما لا غنى لى عنه ، أو ليت من طردنى عن بابه ، أهلنى لعتابه ، أو ليت من جرعنى مر فراقه ،

(١) أبرحه : أراله .

أخطر على بالى حلاوة لقائه ، أو ليت من غمسنى فى بحر البلوى ، طرحنى إلى ساحل المنى ، أو ليت من حطنى عن درجة المخدومين رقانى إلى مقامات الخدم . . . . .

وقال من رسالة أيضاً : حرام على قلب استنار بنور الله ، أن يفكر فى غير عظمة الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله ، أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله ، أن تدنس بشىء من مخالفة الله ، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله ، أن تحدق إلى غير الله ، حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله ، أن تطمئن إلى غير الله ، حرام على من لم ير الخير إلا من الله ، أن يجدد طمعاً فى غير الله ، حرام على من شرف بخدمة الله ، أن يتصع بخدمة غير الله ، حرام على من ألف فناء الله ، أن يعرج إلى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاة الله ، أن يناجى غير الله ، حرام على من رتع فى فقه الله ، أن يعبد غير الله . . . .

وعجيب أن يُرمى من يقول هذا القول فى العزة الإلهية بالزندقة ، ويتهم بالمروق . كأن كل هذا الإحسان لا يكفر سيئة لإنسان ، وكل هذا التقديس والتوحيد ، لا ينجى صاحبه من الوعد والوعيد ! قال شمس الدين إنه كان سيئ الاعتقاد نفاه الوزير المهلبى ، وقال غيره مات فى الاستتار ؛ وساق ابن أبى الحديد فصولا من كلام أبى حيان وعنن[1] لها بقوله : « ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة » وهى برهان آخر على توحيده ، وأن نفسه كانت تتجرد من الكثافة . وهذا هو وجه الغرابة فى حياة التوحيدى جمع كل صفات العلماء ولم يفته شىء من فضائل النفس والدرس . قال : « اللهم إنى أبرأ من الثقة

(١) جعل له عنوانا .

إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى ؛ اللهم تتابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ، وبرّ قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم تبق حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك أهل ذلك ، والقادر عليه ، والولىّ به » .

ومنها : اللهم إنى أسألك جَداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملا عريًّا من الرياء ، وقولا موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة ، حتى تكون عيشتى فى هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ، من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه ، اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك ، ولا تصفر[1] كفاً هى ممدودة إليك ، ولا تعذب عيناً فتحتها بنعمتك ، ولا تذل نفساً هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تخرس لساناً عودته الثناء عليك ، فكما كنت أولاً بالتفضل ، فكن آخراً بالإحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك ، ألبسنى فى هذه الحياة البائدة ثوب العصمة ، وحَلّنى

(١) أصفر : افتقر ، و بيت أخذه كصفره .

فى تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسى عن طلب العاجلة الزائلة ، وأجرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقى من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش فى الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

* * *

وهذه النبذة من مقدمة كتاب البصائر والذخائر : قال إنه أودع كتابه جميع ما فى ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به ، واشتملت الروية عليه ، منذ عام خمسين وثلثمائة إلى سـنة خمس وستين وثلثمائة مع توخى قصار ذاك دون طواله ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون معتاده ، ورفيعه دون سفسافه . قال : إن القارئ سيشرف منه على رياض الأدب وقرائح العقول ، من لفظ مصون ، وكلام شريف ، ونثر مقبول ، ونظم لطيف ، ومثل سائر ، وبلاغة مختارة ، وخطب محبرة الخ ، وجمعه من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن الأعرابى والمبرد والصولى وابن عبدوس وقدامة وغيرهم .

من أهم ما حواه كتاب البصائر ، مناظرة أبى بكر الصديق مع على ومبايعته إياه ، وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة ، ومنهم من غمز التوحيدى واتهمه بأنه هو واضعها ، مثل ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيي الدين بن عربى فى المسامرات . وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدى هذه الرسالة وهى بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبى الحديد أن يشبهها به . أما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال : سمرنا ليلة عنـد القاضى أبى حامد احمد بن بشر المرورُوزى ببغداد بدار أبى حبشان فى

شارع المازيان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرَّف ، وكان أبو حامد معناً مفنناً مخلطاً مزيلا[١] غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متنفس ، وفى كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة ، فركب كل منا مركباً ، وقال قولا ، وعرض بشىء ، ونزع إلى فن ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر الصديق إلى علىّ وجواب علىّ له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ، فقالت الجماعة التى بين يديه : لا والله ، فقال : هى من درر الحقاق[٢] المصونة ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى أبى محمد فى وزارته ، وكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحكم ، وفصاحة وفقاهة ، ودهاء ودين ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له أبو بكر العبادانى : أيها القاضى فلو أتممت المنة علينا بروايتها ، وسمعناها ورويناها عنك . فنحن أوعى لها من المهلبى ، وأوجب ذماماً عليك الخ .

وبعد أن أورد التوحيدى هذه الرسالة العجيبة قال : روى لنا هذا كله أبو حامد ، ثم أخرج لنا أصله فقابلنا به ، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له ، فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذى هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفى غرائبها أنقد ، وإنما قدمت رواية أبى حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه . قلنا وبالجملة والدلائل كلها قائمة أن

(١) المفن الذى يتصرف فى المعانى ، والمفنن الذى يتصرف فى كل فن . والمزيل بكسر الميم الرجل الكيس اللطيف ، يقال هو مخلط مزيل كما يقال هو راتق فاتق ، ويراد به أنه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم .

(٢) الحقاق : جمع حقة ، وعاء يحفظ فيه الطيب والجوهر .

الرسالة ليست من صنع أبى حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، و إذا أبى بعضهم إلا أن يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير ، وهى على كل حال لا تخلو من أصل ربما زيد عليه بأيدى من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة فى كثير مما صنعوه ، فزادوا أموراً فى هذه الرسالة وقعت بين الصحابة أو تمثلوا وقوعها .

والرسالة من جملة ما يجب على الأديب أن يستظهره و يعيه ، لأنها حوت من أساليب البلاغة كل جميل ، وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه ، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد .

وهاك جملة قليلة من الرسالة قال أبو بكر لأبى عبيدة : امض إلى علىّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدنا بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط منعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف ، والعجب مقدحة الشر ، والضِّغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه ، نافج[1] حضنيه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوس بالفجور ، ويدلى بالغرور ، ويمنى أهل

(١) الأرض الصلعاء : التى لا نبات فيها ، والجلواء المصحية ، وأغدف الليل أظلم ، والأكلف الأغبر ، والمفرقة من الفرق وهو الفزع ، والمغرقة يغرق فيه ، والعصوف الريح الشديدة ، والنسوف الطويل الشاق الذى ينسف صاحبه ، ومن المجاز بينى وبينه عقبة نسوف طويلة شاقة ، والشجار ككتاب خشبة توضع خلف الباب ، الضغن العداوة ، والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها ، والنافج الرافع .

الشرور ، و يوحى إلى أوليائه زخرف القول بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له منذ أهانه الله عزّ وجلّ فى سالف الدهر ...

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك ، ما هذا الذى تسوّل لك نفسك ، و يدوى قلبك ، و يلتوى عليه رأيك ، و يتخاوص دونه طرفك ، و يستشرى به ضغنك ، ويتراد معه نفسك ، وتكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ، أدين غير دين الله ، أخُلق غير خلق القرآن ، أهدى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ، أمثلى يمشى له الضراء ويدب له الخَمَر ، أم مثلك يغص عليه الفضاء ، أو يكسف فى عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان[1] ، وما هذه الوعوعة باللسان ...

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التجسس والتعسس لمن لا يظلع لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض ، والنفوس فيها مض ، و إنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا ، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لى : يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يرغب فيه و يجاحش عليه ، ولمن يتصاغر عنه ، لا لمن يتشمخ إليه ، ولمن يقال هو لك ، لا لمن يقول هو لى ،

---

(١) أفاء أرجع ، ويراد مثل تردد ، والتخاوص غؤور البصر مع الإحداق كأنه يقوم سهماً . ويدوى به قلبك أى يفسد من داء ، والصعداء النفس العالى فى الغضب والهم ، والضراء الشجر الملتف فى الوادى ، والخمر الشجر الملتف أيضاً ، يقال للرجل إذا ختل بصاحبه هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر ، والقعقعة حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها . و شنان جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع ، وفى المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع .

والله لقد شاورنى رسول الله فى الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت له : أين أنت من على ، فقال : إنى لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحدة سنه . فقلت : متى كنفته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك حوجاء ولا لوجاء ، فقلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لى ، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن يختلج[1] فى نفسك شىء فهلم فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . . .

فذلكة فى حياة التوحيدى :

أظننا بلغنا حاجة النفس فى نقل صورة التوحيدى نقلاً إن لم يكن طابق الأصل فهو قريب منه ، بعد اقتباسنا درراً من كتبه ورسائله ، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج ، وقلبه من النزوات ؛ وما تقلب فيه من البأساء والضراء ، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف إلى العظماء ، والأخذ عن العلماء ، وعرف مكنونات الصدور . وتمثلنا فى كلامه سلامة الفكر والإبداع فيه ، وسلاسة الإنشاء وتجويده . أرأيتم هذا الإيجاد الذى تقف عنده العقول

(١) يقال رهصى فى الأمر استعجلى فيه ، ومن المجاز أرهص الله فلاناً جعله الله معدناً للخير . يقال فلان يعنس الآثار أى يقتصها ويعتس الفحور يتبعه . وقلص أرداتك قمر أكمامك ، والمس الألم ، والعض الحديد ، وظلع عرج ، وحلم الأديم والجلد إذا فسد فى العمل ووقع فيه دود فتثقب ، وفى المثل كدابغة وقد حلم الأديم ، يضرب لمن يسعى فى إصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لايرجى إصلاحه ، جاحش حامى ودافع يقال جاحش عن خيط رقبته أى نفسه وهو مثل قال الميدانى أصله من الجحش الذى هو سحج الجلد ، يقال أصابه شىء فجحش وجهه أى قشره فجحش شقه الأيمن ، ميعة الشباب أوله ، والحوجاء الحاجة ومنه ما كان فى نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء أى حاجة ، واختلج تلجلج .

حائرة ، يكتب صاحبه فى العلوم المختلفة فلا تخونه لفظة ، وتتناسق الجمل فى تركيبها تناسق العقد النفيس ، ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أى مواءمة ، ويؤثر فى قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوله على مسمعه ؟ أرأيتم كيف آضت اللغة فى يد التوحيدى كالعجين يرسمه الرسم الذى يشاء ، أو كالقرطاس فى يد المصور الحاذق ، وعنده جماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء ؟

اللغة فى نظر التوحيدى واسطة تعبير وتصوير ، لا أداة لطافة وظرافة ؛ كانت على أسلة قلمه ، غزيرة المائية نضيرة الديباجة ، وكان بيانه الصافى البراق ، يسيل مطواعاً لبنانه ، يتصرف به تصرفاً غريباً ، ويصرفه فى ضروب الموضوعات العالية ؛ وكأن اللغة فى عصره ، وقد أصبحت لغة حضارة باهرة ، أخذت الزبدة النافعة من الأمم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين ، فمرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى ، وصفا رصفها ونسجها ، فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام ، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشى بقاعدة بقاء الأنسب ، ودرجت بعد ذلك نقية لا شوب فيها ولا تعقيد . كأنها خلقت ، منذ عرفت ، لغة فلسفة وطبيعة وإلهيات ، كما كانت لغة شعر وخطب ، منذ أقدم عصور الجاهلية .

عمد التوحيدى إلى استخدام طوائف من الألفاظ تبهرك فى رصفها إلى جانب أخواتها ، ويتعذر عليك أن تخلى المكان من لفظة تضع غيرها محلها . وقد قال العتابى : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب . فإذا قدمت منها مؤخراً ، أو أخرت منها مقدماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة

وتغيرت الحلية ، وهذا ما تراه متجليا فى كلام أبى حيان . « والكلام إذا خرج فى غير تكلف وكد وشدة تفكر وتعمل كان سلساً سهلا ، وكان له ماء ورواء ورقراق ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه » .

ذاكر التوحيدى فى العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء ، وكانوا فى العلم جميعاً ، وفى مذاهبهم شتى ، فلم يجمد على نقل كلام أهل فن واحد ، ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه فى معتقده ، فكان شأنه شأن عالم فى عصرنا فتح بحثاً فى مجلة أو كتاب يؤلمه ، وأنشأ يجمع فى كناشه وجزازاته أفكار المتضادين ومراميهم فى العلم والتفكر ، وهذا ما كان على حصة موفورة فى كتب التوحيدى على ما رأينا ، لخص لمعاصريه آراء المتقدمين ، وخلف لمن بعده مُصَوَّراً صحيحاً من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم فى الميلاد ، فأدركنا بما أسمعناه بعض حقيقة عصره فى أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة .

ويحمد قصد التوحيدى فى نقل كل مجلس كما وقع ، وإن كان بعضهم لم يرقه التعرض لتدوين ما يخالف معتقدهم ، أما هو فما كان له أن ينقل كل كلام يرتضيه كل إنسان ، لأنه لا يحيط بأهواء جميع الناس ، وتعدد الأهواء كتعدد الأناسى ، وهو مخالف فى طريقته طريقة كثير من المؤلفين ، فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على صواب فيما يذهب اليه ، وإذا رأى بعض المتحذلقين[1] فى كلامه بعض العهدة ، فيجانون وأى كلام خلا مما يُتعلق عليه بشىء . إن التوحيدى لقى شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم ، وجوّد وصفهم وأجمل طرازهم ، وكلما نقل شيئاً لا يوافق نحلةً ومذهباً ، قال خصوم فكره إنه يصطنع نقله ، ويزوّر على رواته فيزوّرون[2] له . كان التوحيدى راوية المجالس العالية ،

(١) حذلق أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق .
(٢) تزاور عنه عدل وانحرف كازور ، وزور زين الكذب والشىء حسنه وقومه .

والرواية كما قيل العلم المستطيل ، ومخالفوه يسوءهم هـذا و ينوءهم ، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها ، وتابعوا على العمياء قائليها . خالف التوحيدى فى طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء ، فبينه و بينهم بعد باعد ، وليس من الإنصاف أن نأخذ عليه خروجه عن مألوفهم .

الحق أبلج لا يُخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الأحلام

لا جرم أن التوحيدى حار فى أمره مع من وسموا بالعلم فى زمنه ، وهم محافظون متشددون فى تقاليدهم ومصطلحاتهم ، لا يبالون أن يرموا كل من أبدع طريقة ، وكشف عن حقيقة ، بالتفسيق والتبديع والتكفير ، ومن أسهل الأعمال عليهم أن يتقربوا من ذوى السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن يذمهم وأربى عليهم . و يا لبؤس عالم لم يتخذ له بداً عند صاحب صولة فى مثل ذاك المجتمع ، فإن مجرد اتهام بعض المتقدين له بانحلال العقيدة ، كاف فى بتر حبل حياته ، ولا من يرحمه أو يتشفع به . أراد المأمون « رضى الله عنه وأرضاه » أول المئة الثالثة أن يُخرج الأمة من ربقة التقليد الأعمى إلى ساحة العقل السليم . فرأى أن يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم ، بتسامح وتعقل . ولكن معظم ما بناه تهدم بأفول نجمه و يا للأسف ، فلم ينشأ بعده للأمة خليفة فى وزنه وعياره ، يحمى العقل ودعاته ، و يفسح للباحثين مجال النقد والنظر .

ومن أعظم المصائب أن أقدار البلاد معلقة أبداً على الرأس الذى يدير أمرها خليفة كان أو سلطانا أو أميراً ، متى زال تزول معه أوضاعه وتراتيبه أو أكثرها ، وقلّ أن بنى الخلف على أساس السلف ، أو سار المتأخر على قدم المتقدم ، خصوصاً فى المسائل الذهنية ، والمطالب الاجتماعية والمدنية . ولذلك كانت حضارتنا فى كل عصر وقطر كالأرض البقعة نبتها متقطع . أو كالواحات متفرقة فى البهمه

الفقر ، يختلف شكلها باختلاف البقعة التى نشأت فيها ، وتلبس ثوباً فُصل على عقل صاحب السلطان الأكبر ، وكثرة بلائه وغنائه . وقلما عهد أن سار الابن بسير أبيه وجده إلا على عهد أوائل العباسيين ، وفى بعض دور الامويين فى الشرق ، والأمويين فى الأندلس ، وما عدا ذلك فأفراد من أصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم فأحالوا القفار جناناً ، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطاناً ، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الأمّة سيرتها الأولى ، تثبت أن الامية أعلق بشغاف قلبها ، لا سيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة فى ترك العقول جامدة خامدة ، حتى لا يرتفع عقل عن عقل ، ولا يمتاز فاضل بعموم الفضل .

فالرجل الذى لم يأبه لما اعترضه من العقبات ، ومزّق حجب الوهم وحكّم سلطان العقل ، واستعرض ما جادت به قرائح أعاظم الملة فى القرون الثلاثة قبله ، وكتبَ العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق ، تسيغه وتستطيبه على كدورة فى شرعته أحياناً — الرجل الذى كان كذلك حاله يعد النابغة المجتهد حقاً وصدقاً ، ويعد جديداً مجدداً فى فكره و بيانه .

كتب التوحيدى فأكثر الكتابة ، ومع هذا فإنشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب ، ولا عُنى بالتنميق والتحبير ، والصقل والتطرية . وكان هدفه إبلاغ العقول ، ما يجول فى الخواطر ، من أقصر الطرق ، وأسهل المسالك تارة ، ومن أطولها تارة أخرى . اختص بوصف آراء المفكرين والنظار ، على وجه لم يؤثر عن غيره ، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة ، فكأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذى كاد يموت بموت الجاحظ ، وأتمه بما حدث بعد أبى عثمان من فنون القول ، وضروب المعارف . ولو كان روح التوحيدى غير معذَّب بالإخفاق والإملاق ، كروح الجاحظ الشفاف البراق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه ، واطمأن بما

تطمئن به روح من تهنأ العيش ، لجاء التوحيدى كالجاحظ إلا قليلاً .

بيد أن اضطراب عصره ، كان منه اضطراب فكره ، وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته ، أدّت إلى اشتغال قلبه برزقه وجرايته ، فكان فى ذل الفقر ، وخوف القهر ، طول العمر . وإذا قيل إن الجاحظ كان على دهاء لا ينكر محله ، فاتقى بجربزته لدغات حساده ، ومؤلمات مناظريه ، وأن التوحيدى لم يعرف سياسة العلم ، ولم يستكمل تعاطى الأسباب إلى الرزق ، وإحراز خِصَل السبق ، فلا تنس أن الجاحظ كان الخلفاء يَرعونه ويُحبّونه ، والوزراء يخادنونه ويَحْبُونه ، والناس يعجبون به ويمجدونه . والتوحيدى ، للجهل الطارئ على الخلفاء والأمراء فى عهده ، يضطرب فى حياته اضطراب الأرشية فى الطوى البعيد ، كلما التفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة ، وكلما قال يسراً ، قالت الأيام عسراً ، عاش فى شظف من العيش ، وعجف من المال ، وكلب من الزمان ؛ فكان الموتور المفلوك ، الموجع القلب ، المعذب الفؤاد . والمرء مهما أُوتى من عقل سليم وأخلاق فاضلة ، لا يخرج عن كونه محصولَ مسكنه وهوائه ومدرسته وأساتيذه وأقرانه ، وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعى على نفسه ، وهو زبدة ما أخذه بالفطرة من دم أبويه ، واكتنهه من اتصاله بأجداد قدماء قد لا يعرف أخبارهم ؛ على حين أورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم .

ابن العميد

عصره :

يُعدّ القرن الرابع عصر الكمال العلمى والأدبى فى الإسلام : استقرت فيه القواعد ، وتعينت المعالم والمناهج ، ودُوِّن ما تيسر تدوينه فى اللغة والأدب والشريعــة ، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الأوائل ، وخف الصراع بين حملة الدين ، ورجال الحكمة والعقل ، ونشأت الفرق الباطنية ، وكلها تريد إقامة مُلك ، واتخذ دعاتها من آل البيت تكأة وصبغوا نِحلهم بصبغة دينية .

وكان الأدب فى مقدمة الفنون التى بلغت فى هذا العصر إناها ، بنبوغ أعظم شعراء الحضارة العربية ، تقدمهم رعيل جميل فى القرنين السابقين . أدخلوا على الشعر معانى جديدة ، وما غيروا موازينه وأوضاعه . وأنشأ الكتّاب يتفننون فى الإنشاء المصنَّع ، فضيقوا المنافذ فى أداء المعانى ، وغلوا فى التطويل والتهويل فأصبح النثر بالإكثار من السجع بمعنى وبلا معنى أشبه بشعر لا أوزان له .

وسكن ثائر الشعوبيين أعداء العرب ، وكان دأبهم إلقاء بذور التفرقة بين الشعوب التى وحّد الإسلام بينها ، وألغى من بينها نظام الإقطاعات ، وساوى بين الكبير والصغير فى الحقوق والواجبات . واغتبط الشعوبيون من الفرس بقيام دولتين شيعيتين فى العالم : دولة بنى بُوَيْه الديلم فى الشرق ، استولت على فارس والعراق ، وجعلت الخليفة العباسى شبحاً بلا روح ؛ ودولة بنى عُبَيْد الفاطميين فى إفريقية . وعمل القرامطة أفاعيلهم فى العراق والشام والحجاز وما انتظمت لهم دولة ، وقرض محمود بن سبكتكين الدولة السامانية الشيعية من خراسان وما وراء

النهر ، وفتح القسم الشمالى من بلاد الهنـد وأضافه إلى مملكته ، وخدم الآداب والعلوم ، وضرب المنزلة ضربة قاضية فى بلاده .

كان الفرس أهم العناصر الإسلامية التى عُنيت بنشر العربيـة منذ رفرف علَم الإسلام على بلادهم ، وقد أحرزوا فى العلم والسياسة أفضل منزلة ، لما خصوا به من الاستعداد لقبول الحضارة ، أعانهم على ذلك الفهم الحكم والنظام ، وتفانيهم فى طاعة العظماء والملوك . وكانوا فى القرون الأولى من خير الشعوب التى قامت بحق الإسلام .

وبينا كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الإسلام والعربية ، لا يتخذون عن لغة الدين والدولة والعلم بديلاً ، كان أناس من عشاق القوميـة الفارسية يسرون حسواً فى ارتغاء[1] ، ويلوبون على من يقيم لهم دولة ، ذات وزن وصولة . وقد آلمهم تراجع لغتهم أمام العربية ، ومنازعة العربية الفارسيةَ فى عقر[2] دارها ، حتى أصبحت لسان المدن ؛ ووجدت الفارسية معتصماً لها فى الأرياف والجبال بين الأكارين والسوقة . والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع أهل فارس ، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس ، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم . وبالعربية تكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس . ولما اجتاز أبو الطيب المتنبى بشعب بوّان وأرّجان والنوبندجان انقبض صدره لقلة من يتفهم ويام فوصف الحال بقوله :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى   بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها   غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنّـة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

(١) هذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد غيره .
(٢) العقر بضم العين وسكون القاف وسطها وفتحها ويفتح .

كان يرمض دعاة القومية الفارسية ، أو مَن يريدون تحريك عرقها الحساس ، أن يشهدوا العربيّة تُعرِّب كل يوم جماعة من أبناء فارس ، فلم يروا لوضع حدّ أمام ذاك التيار الجارف إلا إثارة النُّعَرة الدينية ، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية ، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة ، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر .

كان يُرمضهم أن يروا نيسابور وشيراز والرى ومرو وأصفهان وهمدان تتنافس فى بث العلوم والآداب ، وأن يؤلف المؤلفون ، ويعظ الواعظون ، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية ، وأن يمسى أدب آبائهم عبارة عن شعر ما رُزق من يصفق له ، وأن تغتنى العربية بالعلوم الكثيرة . فحاولوا إشرابَ نفوس قومهم حب آدابها القديمة ، ولم يكن الشعر الفارسى بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث ؛ وقد نشأ مع شاعرهم الروذكى السمرقندى (٣٢٩) « الذى كان مقدماً فى الشعر بالفارسية فى زمانه على أقرانه » .

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية ببلاد الأعاجم فى ذاك العصر ، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية ، كان العلم العربى يزيد انتشاراً ورسوخاً ، وتتعدد مواطنه ، وتقوم أسواقه ، وما كانت مراكز الآداب فى القرن الرابع فى قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والرى وسمرقند تقل كثيراً عن مكانة بغداد ، ومن قبل البصرة والكوفة فى هذا المعنى . كان الناس يحملون إلى بغداد علمهم وأدبهم أيام عظماء خلفائها ، فلما خلف من بعدهم خلف من الضعفاء غدت بهم بغداد تنقل أدبها إلى العواصم المستحدثة . ولما قامت دولة بنى بويه واتخذت من الرىّ قصبة بلاد الجبال عاصمة لها ، أصبحت بعد حين دار علم ، ومثابة أدب ، على مثل ما كانت عاصمة الأمويين فى الأندلس ، وعاصمة بنى الأغلب

فى إفريقية ، وعاصمة الطولونيين فى مصر ، وعاصمة الغزنويين فى خراسان .

وكانت الرىّ وما إليها من أرض فارس فى هذا العصر مجموعة من المذاهب الإسلامية فيها الشيعة الإمامية والغالية ، والأحناف والشوافع والمعتزلة والخوارج وغيرهم . وظلّ أهل الرى على مذهب أهل السنة والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعة ، وأظهر التشيع وأكرم أهله ، فتقرب الناس إليه بتصنيف الكتب ، فأصبحت جمهرة أهل الرى شيعة غالية ، وكان ذلك فى أواخر الربع الثالث من القرن الثالث . ومن أهل هذا المذهب كان بنو بويه أصحاب الدولة . وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعة إمامية غالية ، ومعظم العلماء فى أرض فارس من أهل السنة ، والملوك يخطبون ودّ أرباب المعرفة من جميع الطبقات والمذاهب .

أوليته وسيرته :

فى هذه البيئة نشأ أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد ، من بيت فضل وصدارة . وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلة كاتباً مذكوراً فى خراسان ، وله باع فى السياسة « تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلى ذلك الديوان » ، « والعميد لقب والده لقب بذلك ، على عادة أهل خراسان فى إجرائه مجرى التعظيم » .

والغالب أن ابن العميد وُلد فى آخر سنة من القرن الثالث ، لأنه عُمّر ستين سنة ، ومات سنة ستين بعد الثلاثمائة ، « وكان يعتده الفونج تارة ، والفرس أخرى ، تسلمه هذه إلى هذه » ، وقيل إنه أخذ العلم فى بغداد ورحل إليها مرة أو مرتين وهو وزير ، ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها ، ونشأ أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكوّر الجمل ودرس يتدرج إلى المعالى ،

ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل » ، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . ولما تقلدها ، وكان دون الثلاثين ، أتته السعادة فى صباه ، وتمت أدوات علمه وأدبه ، وهو يتولى أعمال الدولة ، وطالت أيام وزارته حتى أربت سنوها على زمن صباه ودراسته ، ودعى ابن العميد بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الإمارة والأدب ، وذهب له هذا اللقب عن جدارة ، ولقب أيضاً بلسان المشرق .

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسى من أهل قُم ، ولا يفهم من كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد يسكن العربى قم وقزوين وشيراز ونيسابور والرى وهو عربى بأصوله فينسب إلى البلد الذى نزله أو ولد فيه . وما هو فارسى بالمعنى الذى نفهم به اليوم معنى هذه النسبة [1] ، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عرباً أقحاحاً ، نشأوا فى تلك الأرض فنسبوا إليها ، وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى البلاد التى فتحت على أيدى العرب فى الشرق والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك أصولهم .

---

(١) تعلم أصول من اشتهروا فى فارس من العلماء بالقاء نظرة على كتب الأنساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم . فقد نسبوا صاحب الأغانى إلى أصفهان وهو أموى عربى ، ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزاباد وهو بكرى عربى ، ونسبوا القزوينى صاحب آثار البلاد إلى قزوين وهو عربى من سلالة مالك بن أنس ، ونسبوا ابن حبان البستى صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخارى إلى بست وهو تميمى ، ونسبوا أبا حيان التوحيدى إلى شيراز وهو من صميم العرب ، وكان أبو داود السجستانى صاحب السنن من الأزد ، وأبو العباس النسوى مصنف المسند من بنى شيبان ، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى صاحب المسند من بنى قشير ، والهروى المفسر من ولد أبى أيوب الأنصارى ، وأبو الوليد النيسابورى فقيه خراسان أموى من ذرية سعيد بن العاص الأكبر ، والفخر الرازى المفسر عربى . وقال ابن قتيبة إن خارجة بن مصعب هو من بنى شخبة من ضبيعة ، وكان من أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم وعقبه بخراسان ، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع على بن أبى طالب .

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وتأصل فيه بالدرس ، وكم من غريب عن هذا اللسان خدمه خدمة أبنائه الأصليين . وقد قال أبو الريحان البيرونى ، وهو من خُوَارَزْم ومن أعظم علماء الإسلام : « الهجو بالعربية أحب إلىَّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم نقل إلى الفارسى كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به ، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

لم نعرف من أساتذة ابن العميد غير محمد بن على بن سعيد [1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمى ، وكان يعلم علم الأوائل وهو « صاحب الأدب والحكمة والنجوم والترسل والإملاء » ، ولعله كان يذهب مذهب الاعتزال فلقن تلميذه مذهبه فأصبح مثله على مذهب أهل العدل والتوحيد ، فى إقليم يغلب التشيع على السواد الأعظم من أهله ، وما منع ذلك ابن العميد أن يخدم ركن الدولة بن بويه ، وكان شيعياً غالياً ، ولا أن يتخرج به عضد الدولة بن بويه فى إدارة الملك والدولة .

غلبت الحكمة على ابن العميد ، وتخللت شغاف قلبه . وكان أدبه غير أدب عصرييه ، كان أدباً ممزوجاً بعلوم عقلية ، فيه شعوف نادر . وطبيعة مؤاتية ؛

---

(١) هكذا ورد اسمه فى فهرست ابن النديم وفى ريحانة خفاجى : أنه أحمد بن إسماعيل بن عبد الله أبو على نحوى عربى من أهل قم يلقب سمكة ، كان من أهل الفضل والأدب ويه إلى ع يه قرأ أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب لم يصنف مثلها ، وكان متأدبا بن عبد الله من علماء أحمد بن عبد الله البرقى وممن تأدب عليه ، ومن كتبه كتاب معانى وهو كتاب عظم نحو عشرة آلاف ورقة فى أخبار الخلفاء والدولة العباسية رأيت منه أجزاء بخطه وهو كتاب حسن ، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفى ، ورسالة فى ... ورسالة فى معان أخر الخ .

ونفس حساسة ، تزن كل شيء بميزان النقد ، حتى الألفاظ والقوافى والأوزان والأسجاع وحتى الكلام العادى . ونشأ ابن العميد نشأة أدبية وسياسية ، عرف البلاد وأمزجة أهلها ، وعرف ما يصلحهم ويرضيهم و يرعاهم . ذكر مسكويه أنه سمعه فى كثير من خلواته يشرح لابنه أبى الفتح « صورة الديلم فى الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة ، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالاً ، وأن من قد دعاهم واحتشد لهم ، وحمل على حالة فوق طاقته ، لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته ، والسعى على إزالتها ، وترقب أوقات الغرة ، فى آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم ، فيعتكون به ذلك الوقت » .

قال : « وكان لوفور عقله يدارى أمره مع صاحبه ومع عسكره ، ثم يسوس رعيته والممالك التى يراعيها ، ويدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته ، موافقاً لزمانه ، فلا يظهر من الزينة وأبهة الوزارة ، إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته ، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس ، ثم يتواضع تواضعاً لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه فى جاهه ، أو تحطه عن المنزلة العالية التى يرقى إليها ، وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم وقيام هيبته وتمام سياسته متصلة تزيد على الأيام نماء ونماتاً » .

ومن سياسة ابن العميد وهو الصدر المقدم فى الآداب والسياسة أنه كان يصون مجلسه عن الخوض فى مسائل الخلاف فى الدين ، وقد يقاطع من يحاول المناقشة فيه ، وهو جدٌّ عارف بأهل الأثر وأهل الرأى من فقهاء الأمصار ، بصير بالمحكم والمتشابه من آى القرآن ، إلى معارف جمة فى النحو والتصريف واللغة وأشعار العرب ، يدرك ما يجر الخلاف من تبعات على دولة اختلفت مذاهب

سكانها وأجناسهم ، وتباينت أهواؤهم ودرجات ثقافتهم ، خصوصاً ومذهبه غير مذهب سلطانه ، وهو فوق ذلك متشبع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم فى دينه ، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض إلى الفقهاء وأتباعهم . والناس فى كل زمن أسرع إلى تكفير أهل التفكير من الماء إلى المنحدرات .

كان خلطاء ابن العميد ومنادموه من مذاهب مختلفة . فيهم مسكويه قيّم خزانته وهو فيلسوف مؤرخ ، وفيهم أستاذه ابن سمكة وأبو محمد هندو وكلاهما فيلسوف إلهى ، وفيهم أبو الحسين بن فارس أديب ، وابن خلاد القاضى أديب وفقيه ، وأبو الحسن العلوى ، وأبو العلاء السروى شاعر وكاتب . وكان يحاضرهم ويجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم إذا غابوا ويجاوبهم نظماً ونثراً ؛ حتى لقد قيل إن أحسن ما كتب ابن العميد رسائله فى الإخوانيات . وكان لا ينظر فى التراسل مع إخوانه إلى ما بينه وبينهم من التفاوت فى المصطلح عليه من درجات المجتمع ، أى أنه وزير وهم رعية ، يسحب ذيله على ما يكون منهم ؛ وما عُدّت عليه هفوة مع صديق ، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة . وفى نظره أن لا اعتبار فى الصداقات لاختلاف الدرجات ، والمشاكلة فى الفكر والعواطف أمتن صداقة . قالوا وكان يفتخر بالحسن بن إسحق بن محارب القمى ويقول : لو لم يخرج من بلدنا سواه لكان كافياً .

كانت معانى الحب متأصلة فى ابن العميد ، وروحه تحب . وإذا أحبت تخلص فى حبها ، وربما برّح به ، ثم إن نفسه عظيمة لا تكره ولا تبغض . والكراهة والبغض على الأكثر أثر من آثار الضّعة ، ولؤم الطبع ، والتواء المقاصد ، وكل أولئك كان الأستاذ الرئيس غنياً عنه . لأنه يعطى ولا يتوقع من غيره العطاء ، ويمنع ولا يخشى الناس أن يمنعوه ، وليس له بعد هذا إلا أن

يتحبب إلى النـاس ، ولا سيما أهل الذكر والفكر .

ألِف ابن العميد ، على ما بلغه من رتب المجد فى دنياه ، المذاكرة فى فنون العلم على سنة علماء السلف وأدبائهم ، واعتاد أن يفضل على خاصته وقاصديه خصوصاً إذا لم يَدِلّوا عليه بأدبهم فى مجلسه . كان يكره من يريد أن يُنفق عليا بأوه[1] ودعواه ، وكثيراً ما يستهدف لغضب أهل هذه الطبقة ، فيقدمون على هجوه ، وينصرفون عنه لاعنين طاعنين ، كما وقع لابن نباتة السعدى ولأبى حيان التوحيـدى ، فإنهما تجهّما له ، لأنهما لم ينالا ما كانا يؤملان منه ، فجسرا على هجوه ، وألّف التوحيدى كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، أى ابن العميد وصديقه الصاحب بن عَبّاد .

جعل ابن العميد لكل شىء نظاماً فى وزارته ، يعمل للمصلحة العامة ما استلزمت من الأوقات ، فإذا فرغ انصرف إلى العلم والأدب ، فهو على هذا يحمل شخصيتين : شخصية سياسـية إدارية ، وأخرى أدبية فلسفية ، وكثيراً ما تكون مجالسه مجالس العالم لا مجالس السياسى ، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والأدباء ما يحبون التوسع فيه من صنوف الآداب ، على نحو ما جرى له مع أبى الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى ، قيل إنه شرح له كتب أرسطو و « برك بين يديه ، واستأنف القراءة عليه ، وكان يعد نفسه فى منزلة من يصلح أن يُتعلم منه ، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ، ودرسـه إياها » . وهو بالطبع يستفيد من القراءة والإقراء . « وضبط أعماله ونظم أموره ، ورتب أسباب خدمته ، حتى كان أكثر نهاره مشغولا بالعلم وأهله » مما كان سبباً أعظم فى عظمته وشهرته . ورب وزير كان قبل الوزارة شيئاً مذكوراً فى العلم فأصبح

(١) البأو : الفخر بالنفس .

لا شىء بعدها ، لاستغراق أوقاته كلها بمصالح الناس ، ورد عادية الأحزاب والأعداء عنه وعن سلطانه . أما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفاً بالفضل ، وفى الوزارة أخذ بحظ وافر من حسن السمعة .

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه فى عمار الملك ، وبسط العدل فى ربوعه — وكان مسكويه على ما يظهر مأخوذاً بحبه عاش فى نعمته أيام صباه سبع سنين — قال : « فأما اضطلاعه بتدبير الممالك ، وعمارة البلاد ، واستغزار الأموال ، فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته إلى أبى محمد بن هندو التى يخبر فيها باضطراب أمر فارس ، وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن يتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن أحوالها ، فإن هذه الرسالة يتعلم منها صناعة الوزراء ، وكيف تُتلافى الممالك بعد تناهى فسادها . وما منعه من بسط العدل فى ممالكه ، وعمارة ما يدبره منها إلا أن صاحبه ركن الدولة ، مع فضله على أقرانه من الديلم ، كان على طريقة الجند المتغلبين ، يتغنم ما يتعجل له ، ولا يرى النظر فى عواقب أمره ، وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه » .

أتى مسكويه بوصف مخدومه فى معرض المدح . والمعقول أن من يقتصر على إزالة الأذى ويسكت عن رفعه مؤاخذ فى الشرائع . رأى ابن العميد السير على طريقة لينة ، فيها التغاضى والتعامى ، حتى لا يغضب جند ولا يغضب سيده الملك ، ولا يناله مكروه بسببهم ، ولو أحس بتخريبهم البلاد وظلمهم أهلها ، وترك العائثين والعابثين وشأنهم ، يمنى نفسه أن يأتيه الوقت الملائم فيحكم فيهم حكمه ، وينقذ بلاده من أوصابها وأوبائها الاجتماعية والإدارية . وسياسته هذه لا تنجو من اللوم فى نظر أرباب الحزم من مدبرى الممالك .

أدبه وعلمه :

عرفنا بما تقدم نوع الدراسة التى تعلقت بها همة ابن العميد ، ووقفنا على صورة من نفسيته ، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذى عرفه الناس به ، وبه خلد ذكره فى العالمين ؛ قالوا إنه واضع طريقة الشعر المنثور ، وإنه كان يلتزم السجع تارة ويطرحُه أخرى ، وهذا رأى ابن سنان فيه . قال إنه كان يترك السجع ويتجنبه ، وطريقته استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير، أو الإكراه والتكلف . أما نحن فإن ما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكماً يخالف حكم ابن سنان . ذلك لأنا رأيناه كان إلى التسجيع والمزاوجة أقرب . وما ندرى أيضاً إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع ، أم فيه شىء من المصانعة لابن العميد فى قولهم : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » أم هى السجعة التى أصدرت هذا الحكم ، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد فى قاضى قم هى التى نحته عن منصبه ، يوم كتب إليه : « أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم . فقال القاضى : والله ما عزلتنى إلا السجعة » .

عاصر ابن العميد عشرات من الكتاب ، وجاء بعده كثيرون كانوا أطول منه باعاً فى هذا الفن ، وفى مقدمتهم الهمدانى وأبو حيان التوحيدى فنسى الناس أو تناسوا من لم يحُظّهم الحظ حتى يشتهروا من كل وجه ، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فتأفقت شهرته .

وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله الباقية فى كتب الأدب والأخبار ، وفيها شهدناه يكثر كأهل قرنه من السجع ، ولم نَر شحن كتابنا بما

أثر عنه منه ، فاقتصرنا على كلامه المرسل ، وحكمنا عليه بالأسلوبين .

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع ، وفيه ظهر أعظم السجاعين ، فما وسعه أن ينحل من قيوده ؛ بل أخذ بمجاراة الناس طوعاً أو كرها ، فهو ابن عصره تأثر به ، إلا أنه كان أقل من غيره على ما يظهر تأثراً بالأفكار الفارسية ، وهذا داعية العجب ، كان أقرب إلى العروبة فى أكثر مناحيه ، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته . كان تأثره بكلام الأقدمين — وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين — أوفى من تأثره ببيئته ، هو عربى الأفكار ، فى ثوب فارسى رقيق ، أخذ من المدنيتين ما راقه ، ومزجهما مزجاً جميلا ، فكان آية بهرت أو كما قال أبو الطيب المتنبى فى مدحه :

عربى لسانه فلسفى　　رأيه فارسية أعياده
خلق الله أفصح الناس طراً　　فى بلاد أعرابه أكراده

لم تتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر ، أى الأدب فقط ؛ بل كانت ثقافة العالم الحكيم ، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم الحيل وجر الأثقال والتصوير والهندسة والطبيعة ، إلى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب . وكان على الكاتب المثقف فى ذلك العصر إتقان الفلك والطبيعيات والرياضيات فضلا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ وشريعة . وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وبحفر فُرَض المشارب ، وردم المهاوى ومجارى الأنهار فى الزيادة والنقصان ، واستهلال القمر وأفعاله ، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب — كان ناقصاً فى حال كتابته .

وما روى من مجالس ابن العميد وتنوقل من آرائه يؤذن بأنه لم يكن نُنفة فى هذه العلوم ، بل كان مشاركاً أعظم مشاركة . قالوا كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلم ، فأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه على محاسنها ، وأثنى خيراً عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ، ثم يسأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثراً لمطالعة كتبه ، والاقتباس من ألفاظه ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غرّة شادخة[1] فى أهل العلم ، وإن وجده ذاماً لبغداد ، غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التى يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن .

هذا تصوير لبعض مناحى الأستاذ الرئيس ، ولم نجارِ من توسعوا فى تصوير سيرته وبالغوا فى أدبه وأكثروا ومنهم الثعالبى فى يتيمة الدهر ومسكويه فى تجارب الأمم . لا جرم أن ابن العميد عظيم بأدبه ، ولكن ألا يذهب الفكر إلى أنه كان له بحكم منصبه السامى — ومفاتيح خزائن الدولة فى يده يفضل على العلماء والشعراء من قاصديه وغير قاصديه — ما زاد فى شهرته ، وعظّم فى النفوس أدبه ؟ وربما كان من حبِّ بعضهم له أن جملوا صورته على غير قصد .

وبعد الذى رأينا من مبالغات الشعراء فى كل عصر ، ملنا إلى التوقف فى الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذى قيل فيهم . شهدنا شعراء مدحوا رجالاً وهجوهم فى آن واحد ، فأى أقوالهم نصدق ؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبى من الأماديح ثياباً فضفاضة ، خلد ذكره فى العالمين . ولو بحثنا فى سيرة سيف الدولة ما زدنا فى تعريفه على ما نصف به ملكاً جائراً مستبداً ، يستحل أكل أموال الناس بالباطل ، ويخربُ البلاد لينفق ما يساب فى أبهته ،

(١) غرة شادخة : غشت الوجه من الناصية إلى الأنف .

ويفرط فى الإفضال على مادحيه وبذخه [1] . وإنا إذا تأملنا هجوه كافور الإخشيدى ، بعد أن مدحه ورفعه ، نسجل أنه ظلمه كثيراً ، فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء . وهكذا يقال فى أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء ، فلما قصروا فى العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته .

ولو هممنا بأخذ صورة الملوك والعظماء مما مدحهم به الشعراء لبعدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعداً كثيراً . وكذلك لو صدقنا كل ما هجا به الهاجون ، لما رسمنا لمهجو صورة صحيحة . لأن الشعر قام فى الأكثر على المديح والهجاء ، وعلى المبالغة فى كل منهما ، وهناك الأهواء السياسية والعداوات المذهبية والطوائل الجنسية . وكم من عالم وصمه خصومه بالكفر ، وهو أقرب إلى جوهر الشرع من أكثر حاسديه ومخالفيه . وكم من إنسان عظيم ألبسه أهل مجتمعه ثوبا باليا من حكمهم عليه ، وما كان أولاهم أن يكسوه الخز والديباج . والغرض مرض وقل أن خلت منه نفس بشرية . هـذا والشعر العربى على الغلو فى نسيبه وتشبيبه ورثائه ومديحه وهجائه يؤخذ على علاته ، وقلما يسقط فيه على حقيقة إلا فى الحكم والعبر ، ومتى جعلناه عمدتنا فى الترجمة للرجال نضل ضلالاً بعيداً .

وبعد فإن من سعادة ابن العميد أن يطول عهده فى الوزارة ، ومن سعادته أن يكون على أخلاق فاضلة وسياسة ناجحة يستميل بها قلوب العلماء والأدباء ،

---

(١) قال الأزدى فى الدول المنقطعة فى سنة أربع وخمسين وثلثمائة طهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة ، وزوج ابنته أبا [illegible] وأبا المعالى [illegible] وزوج [illegible] ست الناس ، وضرب دنانير فى كل دينار ثلاثين دينارا وعشرين وعشرة عليها مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب فاطمة الزهراء حسن حسين جبريل عليهم السلام ؛ وعلى الجانب الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله . وبين [illegible] فقال إن مبلغ ما جاد به سيف الدولة ألف دينار . [illegible]

ومن سعادته أن يرزق عقلاً ناقداً ، و بصيرة نافذة ، وثقافة كاملة ، ومن سعادته أن يظل وهو رأس الدولة على تنمية معارفه ومواهبه إلى الزمن الذى استأثر الله به فى همدان ، وهو فى طريق القضاء على الناشزين على الملك . كل أولئك زاد فى وزنه . وهو فى حقيقته أديب عظيم مجدود ، لم تبطره النعمة ، ولا أسكره تيه الإمارة و إقبال الدنيا ، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وقره فى الصدور ، ومن الفضائل ومكارم الأخلاق ما أمتعه بالصيت البعيد ، فتمتع بما يتمتع به الملوك فى سلطانهم ، وشارك الأدباء فى مجدهم الأدبى . ولو رحمت الأيام ثروة أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس ؛ لـكان الحكم عليه أفصح من هذا .

نموذجات من كتابته :

كتب ابن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى لما استحضره عضد الدولة المنادمة وفيه راموز من بُعد نظره فى سياسة الملوك قال : « وقفت على ما وصفته من برّ الأمير بك ، وتوفّره عليك ، وليس العجب أن يتناهى مثله فى الـكرم إلى أبعد غاياته ، و إنما العجب أن يقصر فى شىء من مساعيه عن نيل المجد كله ، وحيازة الفضل بأجمعه ، وقد رجوت أن يكون ما يغرسه أجدر غرس بالزكاء ، وأضمنه للرّيع والنماء ، فارع ذلك واركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال . فلأن تدعى من بعيد مرات ، خير من أن تُقصى من قريب مرة . وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب ، ولا تعجبنك تأتى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطناب توقعاً لمثلها ، فربما هدمت ما بنته الأولى . و بضاعتك فى الشرب مزجاة و بالعقل يزمّ اللسان و يلزم السداد . فلا يستفزنك

طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ، والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه ، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الإسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن فى الرد عليك ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عن حاجتك ، أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخفّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد ، فقد كمّل الله خصالك وفصلك فى ذلك كله ، لكن أنبه تنبيه المشارك ، وأعلم أن للذكرى موقعاً منك لطيفاً » .

وكتب اليه أيضاً :

« كتابى وأنا بحال لو لم يغصّ منها الشوق إليك ، ولم يُرَنِّق[1] صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح ، لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بُعدى عنك ، ويخلو ذرعى[2] مع خلوّى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظر تشمل [illegible] ، وقد حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة [illegible] وينفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك — حمانى الله فقدك — فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمّل تصرفك فى لفظك ، وما [illegible] . فكل خصالك مقرّظ عندى ، وما أمتدحه . وكل أمرك ممدوح فى ضميرى

---

(١) يرنق يكدر .   (٢) رجل واسع الذرع والذراع أى خلق وسع [illegible] وضاق بالأمر ذرعه وذراعه وضاق به ذرعاً ضعفت طاقته .

وعقدى[١] ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك و إلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى اهـ » . قلنا وهذا من مسجوعاته وفيه من المبالغات الفارسية ما كاد يذهب ببهجته وجميل عاطفته . ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعدة ، وسهل بن هرون ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وابن الزيات ، والصولى ، لجاء موضوعه فى سطرين سهلين على السمع والطبع ، مقبولين فى العرف والعادة ، لا غلو فيهما ولا إغراق .

وكتب إليه فصلا أوله سجع كله لم تفلت منه جملة بدونه إلى أن قال وقد ذكر دعواه فى العلم : وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة ؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق ، فأحسبك أرسطاطاليس بعينه ، أين ما رسمته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نر فيه هداية إلى شىء من العقوق ، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير ، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه أوله ، بل لك فى رؤساء العربية منا ريح ومضطرب ، واسنا نشاحك ، لكن أحب أن تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل ، وقد اغتررت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدى للرجوع عنه ؟ وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه و بصر به ، وقد اختصرته أوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجملك قدوة ، ويرضى بك أسوة ؛ فقات الغدر والباطل وما جرى مجراها مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحَبَهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضاً يرشق بسهام الغيبة ، وعلماً يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضى ذى اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه ، إلا أنى لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت فى بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب .

---

(١) العقد الضمان والعهد .

وكتب إلى بعض إخوانه : أنا أشكو إليك ، جعلنى الله فداك ، دهراً خؤوناً غدوراً ، وزمناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح إلا ريثما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرَعاً ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدى لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلابسه على ما شرط ، وإن خاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم لقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتى مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه ، سنة مبتدعة ، وشريعة متعبة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن لكل خلة من المكروه خلالا ، وبيان ذلك ، جعلنى الله فداك ، أنه كان يقنع من معارضته الإمتين ، بتفرق ذات البين ، فقد انثنى ممنوناً فيك بجميع ما أوغره ، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره ، وأحسبنى قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، وألزمته جرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقى إليه ، ولو أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتنى بيع الخَلَق ، وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عنى إعراض غير مراجع ، واطرحتنى إطراح غير مجامل . فهلا وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تجدنى هناك ، وأتعذب من جل ما عقدت من غير جريمة ، ونكثت ما عهدت من غير جريرة . فأجبنى عن واحدة منهما ، ما هذا التغالى بنفسك ، والتعلى على صديقك ، ولم بدتنى مد الموة ، وطرحتنى طرح القذاة ، ولم تلفظنى من فيك ، وتمجنى من حلقك ؟ وأنا خلال حمو البارد العذب ، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة . وتصيرنى من أشغالك مرة .

فترسل سلاماً إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة ، وأحسب كتابى سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك أيضاً تتعجب من طمعى فيك وقد وليت ، واستمالتى لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أن ودى وقف عليك ، وحبس فى سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضاً طرياً ، فخربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد .

وهـذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معاً ، وبأدنى تأمل يدرك المتمعن فيهـا أن ابن العميد لمـا اطرح فى آخرها السجع جوّد وأبدع ، وكان فى أولهـا لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وأبى بكر الخوارزمى والصابى من أهل جيله عشاق السجع ، وكان الهمدانى أقلهم به تشبثاً فى رسائله لا فى مقاماته .

وفى اليتيمة : ويقال إن أحسن رسائله الإخوانيات ، ما كاتب به أبا العلاء (السروى) لصدوره عن صدر مائل إليه ، محب له ، مناسب بالأدب إياه ؛ فصل من رسالة له إليـه فى شهر رمضان وهو ممـا لم يسبق إليه : كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب ، منذ فارقت شعبان ، وفى جهد ونَصَب ، من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعف حرور ، لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء عن التحديق ، ويزويه عن التنصر ، يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق ..

وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ، ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه فى أن يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد علىّ غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ، ويعرض علىّ هلاله أخفى من السر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر ، وأضنى من قيس بن ذريح ، وأبلى من أسير الهجر ؛ ويسلط عليه الحَوْر بعد الكور[1] ، ويرسل على رقاقته[2] التى يغشى العيون ضوءها ، ويحط من الأجسام نوءها ، كلفاً يغمرها ، وكسوفاً يسترها ، ويرينيه مغمور النور ، مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ، ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الأرَضة ، ويهدى إليه السوس ، ويغرى به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذر ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمى به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالألوان ، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه .
ويرحم الله عبداً قال آمينا . وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه ، وأستعفيه من توفيق لما يذمه ، وأسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يسيغه ، وحلى بعدما شكوته صالحة ، وعلى ما تحب وتهوى جارية ؛ ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر » ه .

وهذه الرسالة أيضاً لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة فى بابها ،

---

(١) فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور معناه النقصان بعد الزيادة وقيل معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها .

(٢) الرقاق كغراب الخبز الرقيق ، الواحدة رقاقة .

قال الثعالبي : وقد أجمع أهل البصيرة فى الترسل على أن رسالته التى كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرة كلامه وواسطة عقده ؛ وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام ؟ قال فصل من أولها : كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ؛ فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ؛ لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك[2] ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك[3] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما أمكن طمعاً فى إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك .

---

(١) الغلول الخيانة فى المغنم خاصة وآنف جمع أنف .
(٢) الاجتياح كالاصطلام الاستئصال . (٣) الفيئة الرجعة .

فلست أعدم فيما أُظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدْك ، و يأخذ بك إلى حظك و يسدّدك .

ثم نقل الثعالبي فصلا آخر من الكتاب وختمه بقطعة منها جاء فيها : « تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل يحس ، واجسس عِرْقك هل ينبض ، وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح[1] ، أو موت مريح . ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله » قال الثعالبي : بلغنى عن ابن بلكا ، وكان آدب أمثاله ، أنه كان يقول : والله ما كانت لى حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار اليه الأستاذ الرئيس ، ولقد ناب كتابه عن الكتائب فى عرك أديمى ، واستصلاحى وردى إلى طاعة صاحبه .

وقال الثعالبي فى المضاف والمنسوب : وقرأت فى رسالة لابن العميد إلى ابن سمكة : « جرّب ، جعلت فداءك ، ما قلته ، واختبرنى فيما ادعيته ، فإن لم أفعل فدمى حلال لك ، فاقتلنى بسيف الفرزدق ، وكلنى بخل وخردل » . وسيف الفرزدق يضرب مثلاً للسيف الكليل بيد الجبان .

وقال صاحب اليتيمة أيضاً : وأقرأنى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى ، وقد اجتمعنا باسفرايين عند زعيمها أبى العباس الفضل بن على ، فصلاً من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل ، فنبهنى على شرفه فى جنسه ، وحرّك منى ساكناً معجباً بحسنه ، متعجباً من نفاسة معناه وبراعة لفظه ، وهو : وقد يعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها ، وانتقاض مِرَرها[2] ، والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل

(١) سهل . (٢) المرة قوة الخلق وشدته ج مرر وأمرار .

الموجود منها ، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراماً ، وينتهكها انتهاكا ، ويجتث[1] أصولها اجتثاثاً ، وليس — عندى — الخطب فى جميع ذلك يقارب ما يولّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل ، كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل ملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهى نوازٍ نوافر[2] ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفُت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة الُضاع ، وحيرة المرتاع .

فإن تغش قوماً بعده أو تزورهم   فكالوحش يدنيها من الآنس المحل .

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله ، ومنها : الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب ، ولا تدرك إلا بتجشم كُلفة ونَصَب . رأْس المال خير من الربح ، والأصل أولى بالعناية من الفرع . المرء أشبه شىء بزمانه ، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه . قد يبذل المرء ماله فى إصلاح أعدائه ، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه . هل السيد إلا من تهابه إذا حضر ، وتفتاته إذا أدبر . الإبقاء على خدم السلطان عِدْل[3] الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه ، مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه . المزح والهزل بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد العسر ، وفحلان إذا أُلقحا لم ينتجا غير

---

(١) الحث القطع .   (٢) برا : وثب .

(٣) العدل بكسر العين وإسكان الدال المثل .

الشر . من أسرّ داءه ، وكتم ظمأه ، بعد عليه أن يُبل من علاه ، ويبل من غُلله . خير القول ما أغناك جده ، وألهاك هزله .

وقال ينبغي للملك أن يستظهر على أعدائه بسبعة أجناس من الناس ، فيتخذ الأحرار عُدَد ملكه ، والأعراب أُمناء جيشه ، والديلم أركان جنده ، والخُتّل[1] جمرات عسكره ، والأتراك خواص أصحابه ، والهند حراس قلاعه ، والأكراد غلفاً[2] لسيوف أعدائه .

ومن كلامه : قد تتسمح الأيام بما تمنع ، وتتساهل ثم تقطع ، وتصل الغبطة بالرزية ، والمحنة بالمنحة ، ولها ثمرات تبتدر ، وغفلات تُنتهز . القلوب أوعية يشرحها الرفق ، ويبسطها اللطف ، ويفسحها التمرين ، وإذا تجوز بها هذه الخلال إلى الاستكراه والإملال ، خرجت عن احتواء علم ، وضاقت عن ضبط فهم ، وفاضت بما تستودع . قدّم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره ، واحصد الشر قبل استفحاله ، وقدم الميل ما دام الغصن عصاً يقبل التقويم ، ورطباً يطيع التثقيف ، ولا تنتظر به العُسُوّ[3] والامتناع ، وداوِ فتقاً تبهره الأيام خرقاً إن تركته ، وارأب شَعْباً[4] يزيده الدهرُ وهياً إن أغفلته .

ولابن العميد شعر فيه كثير من شعوره ، ودليل على علو كعبه في الأدب ، وقد ذكر الثعالبي في كتابه خاص الخاص أن من أظرف شعره قوله في غلام قام على رأسه يظلله من الشمس :

قامت تظللني من الشمس نفسٌ أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

(١) الختل كسكر كورة بما وراء النهر .
(٢) عيش أغلف واسع وسيف أغلف بين الغلف وقوس غلفاء في غلاف .
(٣) العسو الغلظ واليبس .   (٤) أصلح الصدع .

وقوله فى مداد أهداه له صديق :

يا سيدى وعمادى أمددتنى بمدادِ
كمسكنَيْك جميعاً من ناظرى وفؤادى
أو كالليالى اللواتى رميننا بالبُعاد

ومن قوله :

متى علِقت نفسى حبيباً تعلقت به غِيَرَ الأيام تسلُبنيه

وقال :

وسألتك العتبى فلم ترنى لها أهلاً وجئت بمِذرة شوهاء
وردت مموَّهة فلم يرفع لها طرف ولم ترزق من الإصغاء
فأعار مُنطقها النديم شكية فتراجعت تمشى على استحياء
لم تشف من كمد ولم تبرد على كبد ولم تمسح جوانب داء
داوت جوىً بجوىً وليس بحازم من يستكف النارَ بالحلْفاء

وقال :

فلو أن ما أبقيت من جسمى قذى فى العين لم يمنع من الإغفاء

وقوله فى الأقارب :

آخ الرجال من الأبا عد والأقارب لا تقارب
إن الأقارب كالعقا رب بل أضر من العقارب

ولأبى الفضل على رواية ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله ، وكتاب المذهب فى البلاغات ؛ وذكره ابن حاجب النعمان فى الشعراء الكتاب وقال إن له خمسين ورقة .

المستدركات

الاستدراك الأول

ص ١٠٥

معنى « قاطيغورياس » المقولات أو القياس على ما فى الفهرست لابن النديم ، ومعنى « بارى ارمانياس » العبارة و « أنالوطيقا » تحليل القياس . ولهم مصطلحات أخرى كانت العرب تستعملها بلفظها اليونانى مثـل « أبودقطيقا » وهو « أنالوطيقا » الثـانى ومعناه البرهان و « طوبيقا » ومعناه الجدل و « سوفسطيقا » معناه المغالطة أوالحكمة المموهة و « ريطوريقا » معناه الخطابة و « أبوطيقا » ويقال « بوطيقا » معناه الشعر ، والثالوجيا معناه الربوبية .

الاستدراك الثانى

ص ١٠٦

مما يدل على أن ابن المقفع كتب كليلة ودمنة مباشرة ، ولم ينقله عن البهلوية بل اقتبس بعض الحكايات وألبسها ثوباً عربياً ، وزاد فيها ونقص حتى ما تكاد تعرف — أنك تقرأ حكماً فى كليلة ودمنة أوردها بلفظها أو بمعناها فى بعض رسائله . ويستدل أيضاً على صحة ذلك أن فى كتابه عشرات من ألفاظ إسلامية ، ومصطلحات إسلامية ، ومنازع إسلامية ، مثل قوله بالقضاء والقدر ، وإحالته على الأقدار فى مواضع كثيرة . وقد يضمن معنى الآية أو الحديث أو الحكمة أو البيت من الشعر فى كلامه ، وقد يأخذها برمتها .

يقول صاحب الفهرست إن لـكتاب كليلة ودمنة جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمريد الأسود الذى استدعاه المتوكل فى أيامه من فارس . ولعله يقصد بقوله جوامع وانتزاعات أنهم اختصروه .

الاستدراك الثالث

ص ١١٧

عزا ياقوت فى معجم الأدباء وابن عساكر فى تاريخ دمشق الحكم التى وردت فى الدرة اليتيمة فى باب الصديق لخالد بن صفوان . وهى بهذا النص فى الترجمتين : « ابذل لصديقك مالك ، ولمعرفتك بشرك وتحيتك ، وللعامة رفدك وحسن محضرك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد . » وخالد بن صفوان متقدم على ابن المقفع . وذكر هذه الحكم ابن حِبان البستى فى كتابه « روضة العقلاء » وأوردها كأنها من كلامه ، والمأمول أن تتجه همة بعض الباحثين فيردوا مثل هذه الحكم إلى قائلها الأول .

الاستدراك الرابع

ص ١٣١

كتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه : أما بعد فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

وقال : لا تحدّث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعِد

ما لا تريد إنجازه ، ولا تضمن ما لا تثق بالقدرة عليه ، ولا ترج ما تعنف برجائه ، ولا تقدم على ما تخاف العجز عنه .

وقال لبعض إخوانه : إذا صاحبت ملكاً فاعلم أنهم ينسبونك إلى قلة الوفاء فلا تشعرن قلبك استبطاءه ، فإنه لم يشعر أحد قلبه (شيئاً) إلا ظهر على لسانه إن كان سخيفاً ، وعلى وجهه إن كان حليماً .

الاستدراك الخامس

ص ١٤٣

من أروع الكلام ما ختم به ابن المقفع « الدرة اليتيمة » فى وصف الرجل الكامل فى قوله : « إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ... » وفى رواية « مفتاح الأفكار » زيادة على روايتنا جاءت بعد : « ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة الخ » . وروايته فى آخر الجملة « ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته » وروايتنا « بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته » والرواية الأولى أصرح .

وقد أورد الرضى فى نهج البلاغة هذا الوصف ، ونسبه إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بتحريف وزيادة ، والزيادة قوله : « وكان يعمل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل ، وكان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم ؛ وكان إذا بدهه أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه » . وهذه المعانى ، وردت فى مكان آخر من كلام ابن المقفع .

وأورد ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » وصف الرجل الكامل مقتضباً من كلام

ابن المقفع ، ونسبه للحسن بن على مع تحريف ، ولكن بألفاظ ابن المقفع ، وأضاف إلى قوله : « وكان إذا غاب على الكلام لم يغلب على السكوت . . . وكان إذا عرض له أمران لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه » وهذه الجملة وردت فى اليتيمة بحسب روايتنا هكذا « إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان أكثر الصواب فى خلاف الهوى » .

ونرجح أن عزو هذا الكلام إلى على بن أبى طالب أو إلى الحسن بن على هو من فعل من أضافوا على كلام أمير المؤمنين ما ليس منه سامحهم الله . فان نص عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بأنه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ، ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره ويستحل نسبته إليه خصوصاً إذا كان من الكلام المأثور المعروف صاحبه ، ثم إن يتيمته اشتهرت قبل أن يؤلف نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف . ويؤيد قولنا هذا ظهور التصنع ماثلاً للعيان ، ومن التصنع إدماج سجمات فى هذه الجملة الجميلة حاشا أمير المؤمنين أن يسف فى كلامه إلى مثلها وهو من أكبر الفصحاء بعد صاحب الرسالة عليه السلام .

لا جرم أن نهج البلاغة زيدت فيه زيادات كثيرة بعد عهد الرضى أيضاً ، وهو الذى قال إنه جمعه من كلام على ؛ والحال أن أكثره من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف العظيم فى نسخه ، وقد اعترف ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة بأن ماعزى إلى أمير المؤمنين هو من كلام غيره من الحكماء ، لكنه « كالنظير لكلامه والمصارع لحكمته ! » قال : « وإن الغرض بالكتاب الأدب والحكمة ، فاذا وجد ما يناسب كلامه ذكره على قاعدته فى ذكر النظير . ! » وأن الرضى قال : « إن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً » .

إذا عرفنا هذا ساغ لنا أن نقول إن صفة الرجل الكامل الذى عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها فى الكتاب الذى كسروه على كلام الخليفة الرابع ، وقد وقعت لصاحب النهج بعض حكم جوز ضمها إلى كلام أمير المؤمنين ، وهى أشبه بأن تكون لغيره ، ومن ذلك ما نسبه لعلى وهو لابن المقفع « للمؤمن ثلاث ساعات فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم فيها معايشه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا فى ثلاث : مرمة لمعاش ، أو خطوة فى معاد ، أو لذة فى غير محرم » فإن هذه الحكمة وردت فى الأدب الصغير لابن المقفع (ص ١١٩ من أمراء البيان) وعلى صورة أجمع وأمتع .

الاستدراك السادس

ص ٢٣٩

كتب أحمد بن يوسف : لولا حسن الظن بك ، أعزك الله ، لكان فى إغضائك عنى ما يقبضنى عن الطلبة إليك ، ولكن أمسك برمق من الرجاء علمى برأيك فى رعاية الحق ، وبسط يدك إلى الذى لو قصتها عنه ، لم يكن له إلا كرمك مذكراً وسؤددك شافعاً .

وكتب : الكريم أوسع ما تكون مغفرته ، إذا ضاقت بالمذنب معذرته .

الاستدراك السابع

ص ٢٦٨

كتب إبراهيم بن العباس : المودة تجمعنا محبتها ، والصناعة تؤلفنا أسبابها ، وما بين ذلك من تراخ فى لقاء ، أو تخلف فى مكاتبة ، موضوع بيننا يوجب العذر فيه .

الاستدراك الثامن

ص ٢٨٣

لما وثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة ، اقترض من مياسير التجار مالاً فأخذ من عبد الملك الزيات أبى محمد بن عبد الملك عشرة آلاف دينار ، وقال : أردها إذا جاءنى مال ، ولم يتم أمره واستخفى ثم ظهر ، فطواب بالأموال فقال : إنى أخذتها للمسلمين ، وأردت أن أقضيها من أموالهم ، والأمر إلى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب بها المأمون ، ومضى إلى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة للمأمون . فهاب إبراهيم أن يقرأ المأمون مثلها وقال : خذ منى بعض المال ونَجّم بعضه ففعل ، وأحلفه أن لا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ، ووفى له باقى المال . ولذلك كان إبراهيم بن المهدى يشنأ محمد بن عبد الملك ، فلما ولى وزارة المعتصم قال إبراهيم :

يا بؤس يوم كاسف إن لم يُغيَّر فى غده
لأمـــة وزيرها عاصر زيت بيده
يظهر نصحاً وجهه وغشه فى كبده

الاستدراك التاسع

ص ٣٦٠

يقول ابن أبى الحديد اتفق شيوخنا (أى المعتزلة) كافة رحمهم الله ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على أن بيعة أبى بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، و إنما كانت بالاختيار الذى ثبت بالإجماع و بغير الإجماع كونه طريقاً إلى الإمامة ، واختلفوا فى التفضيل فقال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عبيد ، وأبى إسحق إبراهيم بن سيار النظام وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى معن ثمامة بن أشرس ، وأبى محمد هشام ابن عمر الفوطى ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام ، وجماعة غيرهم أن أبا بكر أفضل من على عليه السلام . وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

الاستدراك العاشر

ص ٤٧٨

قال الجاحظ : إن العرب تمدح الشىء وتذمه ، لكنهم لا يمدحون الشىء من الوجه الذى يذمونه به من جنس فصاحتهم .

قال المأمون ما هجى إبراهيم بن المهدى ، فيما ادعاه ، على كثرة هجائه بأشد من قول الجاحظ فيه : « هو خليفة إذا خطب رأى آخر عمله » أى أن مملكته من الصغر بحيث لا تتجاوز رقعتها مدى صوت الخطيب ونظره .

أتى أبو العيناء الجاحظ يسأله فى رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة ، فقال : نعم ، لا تنصرف إلا به ، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه ،

ودفعه إليه ، فأتى إلى أبى العيناء بالكتاب فقال : أفضضه واقرأه عَلَىّ لأرى ما كتب وأعيده إليه ليختمه ، ففتحه فإذا فيه : « كتابى إليك سأأنى فيه من أخافه لمن لا أعرفه ، فافعل فى أمره ما تراه والسلام » . فغضب ونهض إلى الجاحظ ، فقال : أعرفك باعتنائى بهذا الرجل فتكتب له مثل هذا . فقال : لا تنكر ذلك فإنها أمارة بينى و بينه ، إذا عنيت برجل . فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشْدة . قال : أتشتمنى . قال : لأنها أمارة لى عند الثناء على إنسان .

قال الجاحظ : فى الخصى عشرة أحوال متضادة ، لم يخرج من ظهره مؤمن ، ولا خرج من ظهر مؤمن ، وهو أكثر الناس غيرة ، وأشدهم قيادة ، و هو أضعف الناس معدة ، وأشرههم على طعام ، وهو أسوأ الناس أدباً ، وهو يعلم الأدب ، وهو أغزر الناس دمعة ، وأقساهم قلباً ، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل ، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة .

فهرس الجزء الثانى